ثورة القمر

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

اسم الرواية: ثورة القمر

اسم المؤلف: نورهان إسماعيل

التدقيق اللغوي: خلود أحمد

تصميم الغلاف: محمد دربالة

الإخراج الداخلي: خالد محمود

رقم الإيداع: ٢٠٢٢ / ١٧٩٥٢

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٦٢٣٣-٧-٦

مسار للنشر و التوزيع

Massar publishing & Distribution

ش- حسن خطاب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية

01020439639

massar.pub1@gmail.com

ثورة القمر

نورهان إسماعيل

مسار
للنشر و التوزيع

إهداء

إلى قمر

مازال الجميع يخذلك ولكن ثورتك أبدًا لن تتوقف..

إلى أبي وأمي وأميرة وآية

شكرًا لدعمي اللامتناهي ولتقويتكم لي طوال حياتي.

مقدمة

يعتقد البعض أن الثورة كانت يوم ٢٥ يناير، وآخرون يرونها ٣٠ يونيو، أما أنا ومن معي نرى أن ثورتنا مختلفة، ثورة حقيقية من زاوية مختلفة، من منظور أخر، وحدتها القياسية ليست بالملايين في الشوارع، أو الهتافات والشعارات المرفوعة، بل وحدة قياسها هي مدى الوصول إلى قمر.. مدى عقلانية وذكاء من يريد الوصول إلى تلك الفتاة باستيعاب الأفكار الثورية، الثورة في الأصل ثورة اجتماعية، حياتية، شبابية، لا تمت للسياسة، ولا للدين بصلة. هي في الأساس ثورة نور ذهني يسطع في عقول هؤلاء ممن ظنوا أنهم أبطال وما هم سوي حالمين غاضبين من الواقع، يأملون في غد أفضل، وما هم مدركين أن أحلامهم لا تمت للواقع ولا السياسة ولا حتى للدين بصلة... ربطوا بين أفكارهم وبين أحلامهم ونسوا الواقع ونسوا أن يخلقوا أداة تنفيذ أحلام ثورتهم الشبابية ...

وسط ظلمات الجهل السياسي والانعدام الأخلاقي والتهور الشبابي ... تبدأ ثورتي ... ثورة قمر!

شابان يحاولان الوصول إلى القمر، يحلقان في سماء الحب، عاشقان، واهمان. ثوريان يران الثورة كلا على طريقته، يحبان الثورة ويكرهانها، ضلا، كلا في طريقه، هل يصل أيا منهما لها؟ هل يتحقق حلم أحدهما؟

أم يضيع الكل بما فيهم قمر في متاهات الحياة؟

قصة حب تتأجج، قصة ثورة تاهت في شوارع عابدين ، هل يعود الأمل لعابدين؟ أم تفقد أهم شبابها؟

الفصل الأول
بداية الثورة..!!

أين تبدأ حكايتي، ومتي تبدأ حكايتي؟ بدأت في منطقة عابدين في قلب القاهرة، بعد أشهر قليلة من الاستفتاء على الدستور في ٢٠١١، في أعقاب ثورة ٢٥ يناير. قابلتها، هي تلك الفتاة التي طالما انتظرتها، وقفت في عابدين أمام القصر حائرا بين الأوجه بالرغم من إنني أعرف شكلها. فكم الصور التي رأيت فيها وجهها، كم التركيز لحفظ معالم وجهها الجميل، كم التخيل لنظرات عينيها البنيتين اللامعتين، كنت لأعرفها ولو وسط ملايين الفتيات. لم أكن لأهتم بإحداهن، لم أكترث يوما بالبنات، ولم أكن أتخيل إنني سأكون يوما عاشقا متيما في الحب حتى أقف كالأحمق حاملا شكولاتة في عز الحر منتظرا رؤيتها، حبيبة قلب زياد عبدالحميد العلايلي. خفت أن تنصهر الشيكولاتة بين يدي فتلطخها و لا أعرف أن أسلم عليها، أخرقا، لم أفكر في شراء حقيبة لأضعها فيها من لهفتي للقائها . كيف لي ألا ألمس يدها؟ كيف يمكن ألا أجلب لها حلوي وهي من جعلت لحياتي طعما شهيا. قيمتها كانت أغلى من شيكولاتة من كشك الفلكي المتمركز في قلب ميدان الفلكي بعابدين، ولكن كم من الحمقى يعتقدون إن هدية رمزية يمكنها أن تجعل حبيبته تبتسم. كنت أحمقا، صدقت كلامها، لم تكن لتكترث بمثل

تلك التفاهات، ولكنها بالقطع كانت تعشق الرمزية. وقفت آملا ألا تأتي مظاهرة شاردة غاضبة متجهة لميدان التحرير تؤرق مقابلة طالما انتظرتها، فقد مر شهر على معرفتي بها، ولكنني كنت في تلهف شديد لرؤيتها ورؤية وجهها الجميل الذي كان يبدو ساطعا كالقمر.

قمر علم الدين هو إسمها، ملاكي الذي يطير مرفرفا بجناحيه ليجلس متربعا في شرايين قلبي. حقيقة، كانت نظرتها هي سبب انجذابي لها ، تلك النظرة التي جعلتها تلمس قلبي منذ رأيتها، فقد تعرفت عليها بعد الثورة، تحديدا يوم ٣ أبريل ٢٠١١، بعدما كتبت تعليقا بعدي علي فيسبوك على صفحة باسم يوسف، من انجذابي لصورتها لا أتذكر حتى ماذا كتبت. فتحت بروفايلها لأجد قمرا غزالا يهبلا، جعلتني أبتسم لمجرد رؤية صورتها المبتسمة وهي ترتدي حجابا مخمليا جعل الدم يغلي في عروقي. لم أتردد طويلا كي أضيفها ، ووالله لم أكن أبدا بهذا الشخص، فعلاقتي النسائية كانت محدودة لأضيق الحدود، كوني تلميذا في مدرسة أحمد عرابي للبنين فقط، ثم طالبا في كلية هندسة القاهرة جعلني لا أفقه شيئا في عالم الفتيات، جاهلا أميا فيما يخص معاملة الجنس الناعم .

نعم، إنها قصة حب نشأت علي شبكات التواصل الاجتماعي في القرن الواحد والعشرين. أخذت عدة ساعات حتي قبلت إضافتي، وعدة أيام حتي ردت سلامي، كانت في حالة نفسية سيئة، كانت حزينة لأنها أصبحت عاطلة عن العمل نتيجة الثورة لأنها كانت تعمل بشركة خدمات سياحية ، كان أصحابها قد قرروا تسريح العاملين نظرا

للظروف السياسية والإقتصادية، وإنها كانت تشعر بأن الثورة لم تنجح بعد. كل تعليقاتها علي الفيسبوك كانت تحث علي أن الثورة مستمرة، كانت تبدو متفائلة في كتاباتها ولكنها كانت حزينة في كلامها معي. لم تتحدث كثيرا عن ماضيها، لكنني فهمت إنها رومانسية الطبع، تعشق الأغاني الأجنبية، أظنها أحبت كثيرا، فبالطبع فتاة في جمالها وفي مستواها الإجتماعي ستكون قد أحبت وإرتبطت من قبل، لا سيما إنها كانت تكبرني بعامين إلا شهرين. مرت أيام .. وفي ذات يوم، ليلة عيد العمال، فوجئت بها تكلمني، قفزت من مكاني: أخيرا! قد قررت أن تكلمني بعد عدة أشهر أكلمها أنا وترد هي بكلمات قليلة. أخذت يومها تحدثني عن عشقها للموسيقي وإنها منذ أن أصبحت عاطلة عن العمل تسهر كل ليلة تستمع للموسيقي والأغاني أو تشاهد مسلسلا أجنبيا علي الكمبيوتر لأنها لا تحب مشاهدة التليفزيون بإعلاناته الطويلة المملة. أخذنا نتبادل الأغاني، حتي فاجئتني بأنها من عشاق الكينج محمد منير، كانت أفضل أغانيه بالنسبة لها "حواديت". ربما لم تري أبدا رد فعلي علي هذا الخبر، ولكنني لن أنسي أبدا كيف قفزت ورقصت رقصة حمقاء في غرفتي دليلا علي السعادة لأنني أخيرا وجدت فتاة تفهم عقلية الكينج. صحيح وأنا أرقص صدمتني أرض الواقع، بأنني أرقص في غرفة صغيرة بها سريران، قديمة، متهالكة، كان صوت صرير مروحة السقف يخرجني من شعوري، ؟ إلا أن الساعة التي أخذت أن أستمع فيها للأغاني التي نتبادلها كانت تقوم بدور التغطية علي الإزعاج الملحق بالمروحة، نظرتي للغرفة تبدلت تماما، لأنني وبساطة أدركت إنني في

عابدين بينما تسكن هي في قلب المعادي، ودعنا نقول في قلب المعادي النظيفة. صورها كانت إما في المهندسين، الزمالك أو المعادي. وبالرغم من إنها كانت في كلية الإعلام إلا إنها قد عملت في شركة سياحة ثم تلك الشركة للخدمات السياحية، كانت تتحدث الإنجليزية بطلاقة شديدة في بوستاتها وتعليقاتها علي صديقاتها وأصدقائها الشباب الذين كانوا غالبا من الجامعة الأمريكية أو الألمانية. تجسسي علي صفحتها كان من باب الفضول، فهناك مغناطيس شدني إليها تلقائيا دون تفكير.

قررت ليلتها أن أصارحها بتلميح إنها تعجبني كثيرا، شخصيتها حماسية، وشجاعة، وفي نفس اللحظة رومانسية جدا، وثورية جدا، ولكنني إستغربت ردها الذي حول حياتي إلي الأبد:

- مش هنكر إني حسيت إنك معجب بيا، بس أنا كنت بقاوم الصراحة ، صحيح هو فات حوالي شهر واحد، بس أنا كمان معجبة بشخصيتك جدا..

قفزت ثانيا، قفزة عالية ثم ربعت رجلاي تحتي وسألتني:

- بتحب الصراحة؟ الصراحة إن عينك لونها شدني ليك من أول ما شوفت صورك.

هذه هي بدايتنا، بداية قصتنا التي جعلتني أقف نصف ساعة منتظرا أن تهل قمر عليّ في ميدان عابدين. فقد قررت أن أقابلها فيه عن عمد حتى تري مستواي الاجتماعي لتحدد ما إذا كانت فعلا راغبة في الاستمرار في جنوننا في أن يحب بعضنا الأخر، أم إنها ستشعر بغربة،

وسبب ذهابي مبكرا كان بالطبع لأتأكد من أنها لن تتعرض لمضايقات أو تحرشات، خاصة وأن الوضع لم يكن مستتبا بعد في وسط البلد. وها هي كانت تسير تجاهي، كانت قادمة من ناحية ميدان محمد فريد، فكنت قد وصفت لها كيف تأتي بالمترو من المعادي، ولكنها أصرت أن يكون لقاءنا أمام القصر لأنها تعشق التاريخ، ولأنها كانت تحب الخديوي إسماعيل بالرغم من أنها ضد الملكية، كانت تحب عبد الناصر عشقا خاصا لم أفهمه يوما. هي بالقطع عنيدة، لا يمكنك مجادلتها كثيرا إذا أصرت على شيء ما، ظهرت متألقة، تلبس الكعب العالي الذي ظللت أستغربه لاحقا، واكتشفت فيما بعد أنها جزء من شخصيتها التي لا تتنازل عنه إلا حينما تكون في مظاهرة. شعرت أن قلبي يدق لمجرد تخيلي سماع صوته يدب على الأرض مع كل خطوة لها تجاهي، رائحتها تفوح من على بعد خطوات. وقفت محملق كالأهبل متسائلا كيف لي أن أحب مثل تلك الفتاة، هي بالقطع لا تنتمي إلى عابدين، لا تنتمي إليّ، كم كنت أحمقا تلك الليلة حينما وعدتها بأنني سأظل أحبها، بل وسأتزوجها لمجرد كلامي معها، لكنني أبتسم كلما تذكرت أنني لم أكن الأحمق الوحيد تلك الليلة، فهي أيضا بادلتني نفس الوعد.

- زياد..

قالتها ودمرت قلبي

- وحشتني

فتوقف قلبي، ثم ضحكت معلقة على طولي:

- كنت فكراك أطول من كدة.

مددت يدي أتحسس يدها الصغيرة الناعمة، عشقتها أكثر مما كنت أعشقها، عيناها أحلي من صورتها، شقية وتبعث أشعة تبث فيّ الحياة، مددت يدي أعطيها الشكولاتة، أحمرت وجنتاها وكأنني قد رميت عليها سحرا أخجلها، فكرة أنني أعطيها هدية بسيطة كانت مفاجأة لها لم تتخيلها. توجهنا إلى جروبي، تلك المجنونة التي تقطن في المعادي أرادت أن تخرج معي، في وسط البلد وتزور جروبي التي طالما سمعت عنه. مشيت معها فخورا بها وإن كنت شعرت بالغيرة من نظرات الناس إليها، كنت أشعر بالمسئولية الزائدة في ضرورة حمايتها حيث لم تكن منطقة وسط البلد آمنة تماما، كان هناك بعض المعتصمين في التحرير، استعدادا لمظاهرة ٢٧ مايو - جمعة الغضب الثانية، لاحظنا وجود المخبرين والعديد من الوجوه الغريبة، ولكنني لم أهتم كثيرا، كاهتمامي بأنها تمشي بجانبي وقد فاجأتني بأنها قد أمسكت يدي بخفة وكأنها ترسل لي رسالة سرية: أحبك، احميني، أنا خائفة، لكنني أثق بك، أو هكذا فهمتها.

مع دخولنا لجروبي الذي مازال محتفظا بشكله وهيبته وحتى موظفيه، وقفت أنتظرها لتجلس، ثم جلست أمامها، جاءنا جرسون عجوز من أصول نوبية مبتسما، لم تفكر كثيرا ولم تنظر حتى إلي المينو، وطلبت أيس كريم، وطلبت أنا قهوة كعادتي. فأنا مدمن للقهوة التركي، أشرب ما لا يقل عن خمسة فناجين يوميا، إن لم يصلوا إلى عشرة حينما أكون أعمل

على مشروع لأقدمه في الكلية. ثم ابتسمت وظلت ساكتة تنظر إلى عينيّ حتى أصابتني بنوع من الخجل، وظهر واضحا خجلي، فابتسمت وقالت:

- والله ما أقصد إني أبحلق، بس أنت لون عينك فعلا غريب يا زياد، لا هو أخضر ولا هو أصفر.

- مش عاجبينك هما كمان زي طولي؟

- لا والله أنت طولك كويس جدا، بس أنا اللي تخيلتك أطول من الصور، وبعدين حوش النخلة اللي قاعدة معاك، ده أنا أبوس إيدي وش وظهر على إني باينة. ويا سيدي لو على عينك، فالصراحة هما حلويين قوي..

- أكيد مش أحلي منك، بس أنا مش عايز أبان إني بسبل وببرش ومدلوق عليكي وعلى جمالك، لتقولي عليا إني بيئة.

كان هذا أول لقاء لنا، تركتها بعده ترحل في التاكسي الذي أوقفته لها وقلبي متعلق في الهواء، وفي يدي رائحتها التي ظللت أمسكها طوال لقائنا، من الواضح إنها قد وضعت برفان أصلي لإن رائحته ظلت في يدي حتى صباح اليوم التالي.

مشيت متجها إلى منطقتي، في قلب عابدين حيث أسكن في شارع نوبار باشا، ولكنني قابلت العديد من أصدقائي يقفون على ناصيتنا الشهيرة في ميدان الفلكي، حيث التجمع ثم نتوجه لاحقا للجلوس في

مقاهي البورصة الشهيرة، كانوا يتكلمون في السياسة كعادتهم، ولكنني هذه المرة دون غيرها كنت في قمة السعادة وأنا أستمع إلى خطتهم للنزول في جمعة الغضب الثانية، لأنها وعدتني بإنها ستراني حينما تذهب مع أخيها وأصدقائهم الثورجية.

استعدادات النزول ليوم ٢٧ كانت كالدخول في معركة، لكوننا مطالبين أن نملئ الميدان وحدنا دون الحاجة لأي من التيارات الإسلامية، كنا نسن أسناننا بعدما تم غزو منطقتنا من قبل الإسلاميين في جمعة سابقة، ألا وهي جمعة قندهار الشهيرة

- إحنا هنملي الميدان على فمة عينه

قالها بثقة صديقي العزيز كابو، محمد كامل، صديق المدرسة، ثم فيما بعد زميل الكلية إلا إنه لظروف عائلية بعد وفاة والده كان يعمل وهو طالب في أحدي شركات خدمات العملاء، لم يكن قويا في اللغة الإنجليزية، ولكنه كان متحدثا لبقا، فوجد نفسه يعمل بجانب دراسته في الكلية، ثم تخرج ليتركني وحدي بعدما أعدت سنة رابعة. لم يعمل بالهندسة، وظل وحش الكول سنتر كان يحب أن يلقب نفسه بكابو منذ المدرسة ليس لأي سبب نتذكره، حتى إنه لم يكن من لاعبي الكرة لإنه مدخن شره، كان ضخم البنية. وبعد الثورة قرر أن يطلق لحيته خفيفة، مع ذيل حصان واضح للعيان بشعره الأسود الغزير، لكي يؤكد للجميع أن الذقن لا علاقة لها بالدين إطلاقا. كنا شاكين لدرجة كبيرة إنه قد أصبح ملحدا، إلا إننا لم نتأكد من ذلك لأنه لا يتكلم كثيرا في

هذا الحوار، لكنه كان من الصفوف الأولي المعارضة للإسلاميين بجميع أشكالهم، لم يكن كابو كارها للتيار الإسلامي فقط، بل كان يمقت كل من ينتمي إليه، فكان حتى قد احتد يوما علي صديق أخر اسمه أنور أو أحمد أنور الذي كان سلفيا – وفقا للمسميات الجديدة فيما بعد الثورة – ولكنه لم يكن ملتحيا.

– إحنا مش هنملاه بس، إحنا هنثبت لهم إنهم طماعين ونهايتهم سودا سواد دقونهم ودقني، هنخليهم يندموا إنهم باعونا وركبوا الموجة على قفانا.

ثم رد عليه بدر قائلا

– حاسس إنهم هيخونونا تاني، حاسس إنهم هيهجموا علينا أو يسلمونا تسليم أهالي. من ساعة ما باعونا، وأنا متأكد إنهم واقفين لنا على الواحدة، والله فيه صفقة بتتعمل، شكلها مش هتعدي علي خير.

لم يكن بدر علي حق يومها، ولكن مع مرور الأيام أثبتت الأيام أنه كان أكثرنا فهما للموقف ليس بدر فقط، بل وقمر، تلك الفتاة التي صرت أدمنها، فهي بالنسبة لي ليست فقط فتاة أحببتها، بل كانت أملي، وحلمي، وبالنسبة لي كانت أكبر دليل علي إن الثورة مستمرة. استمرت قصة حبنا وازدادت مع كل مظاهرة، قضينا أغلب الجمعات نلتقي عن بعد في المظاهرات أو المليونيات كما كنا ندعوها، كانت تقف بجواري في بعض الأوقات، ولكنها كانت مع أصدقائها، بينما تلتقي عينانا وتكاد تتلامس يدانا. دائما ما أحببت عينيّ، كنت أشعر بعينيها

تخترقان الجموع لتلتقي بعينيّ، بينما كنت أتساءل لماذا تحبني؟ أنا مازالت طالبا وكل أصحابي متخرجين، أنا من عابدين وهي من المعادي، تلبس الكعب العالي حينما تأتي لتقابلني، طوال معرفتي بها كنت ولازالت أجزم بأنها ستبقي مشهورة يوما ما، لكن أنا ، أنا نكرة ، أنا لست في ثقافتها السياسية، أنا حي الله أقف كل يوم مع أصدقائي ممن يطلقون علي أنفسهم مثقفين ولكنهم ليسوا في تعليمها، فلم يتخرج أحد فيهم من كلية الإعلام أو كان أبوه دكتورا كبيرا في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، أسمع ما يقولونه ، بالرغم من عدم اتفاقي معهم في أغلب الأوقات ، ولكنني لا أفكر كثيرا سوي في الكمبيوتر والتكنولوجيا ، لكن طبعا بعد الثورة أصبحت السياسة لبانة في فم الجميع يتشدقون بها وكأنهم عوالم - أقصد علماء- في الشئون السياسية ، كلهم كانوا محدثين ماعدا هيثم، الذي كنت أثق في رأيه ، كنت أحترمه بشدة.

فهو عضو في حركة شبابية صغيرة، وكان يحضر اجتماعات حركات وأحزاب سياسية عديدة وكان من قبل في الجبهة الوطنية للتغيير، وكان يتظاهر على سلالم النقابات منذ نعومة أظافره. هيثم هو الأخ الأكبر لبدر، ومن هنا جاءت حكمة بدر السياسية. كان هيثم وبدر ابنين لأب محامي يخوض في العديد من قضايا الفساد وكان يكبرنا هيثم بحوالي خمس سنوات. أما بدر، فكان يصغرنا بثلاثة أعوام، فكان بدر في آداب القاهرة في عامه الثالث، كانا الأخوين بدر الدين هم قرة عين أبيهم، يشبهونه حتى في الطباع، مع اختلافها عليهم. فبدر كان طويلا بالنسبة لسنه، بشرته دائما أسمر من العادي وذلك لأنه عاشق للكرة، عاشق

للنادي الأهلي، أحد أعضاء الألتراس المشهورين. بالنسبة لعائلة بدر الدين، كان بدر هو الصغير المدلل، يفعل ما يحلو له، صوته عالي، حاد الطباع، لكنه كوميديان من الدرجة الأولي. بينما هيثم، فكان أقصر من أخيه نسبيا وإن كان أكبر منه بثمانية أعوام، مما جعله دائما يشعر بالمسئولية تجاهه وكأنه أبوه، كان يبدو هادئا، ولكنه كان عصبيا حتى في طريقة كلامه، كان يتكلم بسرعة بالغة حينما يتحمس، كان حماسيا، ولكنه كان عقلانيا جدا بالرغم من ذلك. صوته العالي كان دليلا صريحا على قوة موقفه على عكس ما يقال، فهو كان من الهتيفة الأشداء في المظاهرات له صوت جهوري يرن في الميادين.

لم يكن السياسيون فقط من أصدقائي هم هيثم وبدر وكابو، بل أصبحنا بحكم سكننا في عابدين من أوائل شباب الثورة، لم أصب من قبل، ولكنهم كلهم قد أصيبوا خاصة يوم موقعة الجمل. لم أكن أبدا في أول الصفوف، لأنني طالما شككت في هوية من يستدرجنا إلى القتال، كانوا يظنونني جبانا، ولكنني كنت فعلا أخاف من هوية من يريدون أن يجعلوننا في اشتباك دائم، وكنت دائما أتفق مع كابو في تخوفي من الإسلاميين، ليس أنور، ولكن الآخرين.

مرت الأيام وجاءت العديد من المظاهرات التي اضطررنا فيها إلى حماية الميدان، كان بدر علي عكس أخيه يري أهمية تكوين جبهة شبابية غير معروفة لحماية الميدان. فلنسمها حراس الميدان، قالها وأكد على أنه بالفعل لديه العديد من الأصدقاء والمعارف من المنطقة وغيرها

الذين سيشتركون في هذه الجبهة، بل وسيكون معهم أسلحة صغيرة للدفاع عن النفس وعن الميدان. لم يكن أحد منا متحمسا للفكرة، ليس فقط بسبب السلاح، بل لأن لكل واحد مشاغله، وأنا مشاغلي كانت أن أنتهي من عامي الأخير في الجامعة للتفرغ لمستقبلي الذي ستكون جوهره قمر.

في أحدي تلك المظاهرات كانت حينما كلمني عطية لاهثا وكأنه يجري:

- زياد أنت فين؟

وبدأ يقول كلاما لا معني له بالنسبة لي خاصة وأنني كنت أذاكر وقتها لامتحان في البرمجيات وكان من الكوابيس بالنسبة لي، ولكن ما فهمته إنه كان في مسيرة لأهالي شهداء تكرمهم جمعية لا أتذكر اسمها ولكنه كان إسلاميا كالصفا والمروة، أو شيء من هذا القبيل، وأنه كان يصور المسيرة من أولها حتي وصلت إلي مسرح ماسبيرو، أتذكر استغرابي الشديد لأننا كنا في منتصف الأسبوع ولم أفهم لماذا قد يكون المهندس أحمد عطية الذي يعمل في كبري شركات الاتصالات في مسيرة لأهالي الشهداء من منطقة شعبية؟ ظل يصرخ فيّ قائلا إنهم متجهين إلي التحرير للاعتصام لأنهم قد تم التعرض لهم أمام المسرح من بعض البلطجية، ثم تدخلت الشرطة لتضربهم جميعا بعد منع أهالي الشهداء من الدخول إلي حفل التكريم، ما استغربته أكثر هو بحثه المستميت عن هيثم:

– يا زياد أنا بكلمه مش بيرد، ولا هو ولا بدر، انزل روحلهم وقول لهم يكلموا كل الحركات والاحزاب يدعوا الناس للنزول إلى التحرير، إحنا لازم نعلمهم الأدب، يعني إيه يضربوا أهالي الشهدا، ده إيه الفجر ده ... بقول لك إيه، اقفل اقفل.. أنا لازم أصور وش العساكر.

محاولتي المستميتة في شرح إن هيثم في عمله وإن بدر بالقطع لايزال في الكلية لم تكن لتقنعه، والصراحة قررت أن أتجاهله لأنني لن أكلف خاطري لأمشي من بيتي حتى محمد محمود حيث يقطن هيثم فوق مكتب والده المحامي أبو العلا بدر الدين، ولن أضع نفسي في موقف أن أقف أمام والدتهم حتى أقول لها والنبي يا حاجة عايزين ولادك ينزلوا يقفوا قدام الداخلية!

كلمت كابو الذي كان في عمله هو الأخر لأحكي له عن الموقف، وإن كان يريد الانضمام لعطية في التحرير، ولكن كابو لم يجب هو الأخر وحينما فتحت الفيسبوك لأري إذا كان أونلاين أم لا، وجدت أن أخر بوستاته كانت الليلة السابقة يهاجم فيها الأحزاب الدينية خاصة بعد تأسيس حزب الحرية والعدالة وحزب النور، فهذا العلماني لن يسمح بتأسيس مثل تلك الأحزاب ذات اللحى، وبالرغم من ذلك لم يكن أونلاين. لم أتحرك من غرفتي، حيث رفضت الخروج منها أولا لانشغالي في المذاكرة لتلك المادة اللعينة التي رسبت فيها في أخر سنة لي لتؤجل تخرجي مرة أخري، وثانيا وهو الأهم أن والدي كان قد استيقظ.

والدي، أبويا، هو رجل يعشق النكد، على عكس كل البيوت، فعادة

تكون الأم هي النكدية الشكاية البكاية، ولكنه كان والدي، الأستاذ عبد الحميد، الموظف السابق في هيئة النقل العام، الذي لم تتهاون كرامته في التقدم بطلب معاش مبكر لأن أحد الموظفين الذين يصغره في السن قد أهانه ولم يقف أيا من المديرين بجانبه. الأمر الذي حوله إلى الشاكي الباكي ليلا ونهارا على هذه اللقطة في حياته التي سجن فيها عقله ولم يغادر هذا المنزل أو السجن إلا في حالات الضرورة القصوى. تحول والدي إلى رجل أصلع ذو كرش، ليس بالكبير، يمشي بالفانلة في الحر، لا يغادر غرفة المعيشة إلا للضرورة القصوى. تلك الغرفة المتهالكة هي الأخرى، كبقية شقتنا، يغطيها قماش به ورد ألوانه كثيرة، وتتطاير ستائرها البيضاء نظرا لأن والدي كان يترك الشباك مفتوحا، وحقيقة كانت غرفة المعيشة هي من أهوي الغرف في شقتنا.

مع تسويته للمعاش كان أخواي الأكبر مني في السن بعشر وسبع سنوات يريدون الزواج من حبيبتيهما، فقررا رمي شباكهم على أموال المعاش، الذي لم يفكر الأستاذ عبد الحميد حينها في ابنه الأصغر تعيس الحظ: زياد عبد الحميد!

هذا وقد وعده أخي الاوسط الدكتور هاني بأنه مع وصوله للأراضي الاماراتية المباركة سيقوم بتحويل مبلغا ماليا ليرد له ما قد استعاره منه - ولكن أستاذ عبد الحميد كان من السذاجة بأن يصدق مثل هذه الاكاذيب، فكان كلما رآني في المنزل يبدأ معي ما أسميه بالنشيد الوطني لمنزل عبد الحميد العلايلي:

- أنت اللي سقطت السنة اللي فاتت.. اللي قدك بقي مهندس وسافر زي أخوك هاني، أنت اللي ولا بتفهم وعامل إنك فاهم الدنيا.

ومع نهاية النشيد تدخل الموسيقي التصويرية لنحيب الحاجة الوالدة - التي لم تحج بعد- على ألا يتعرض لي وإنه يكفي ما تعطيه الدنيا لي من حظ تعس.

أما أخي الأخر تامر، فهو الأكبر، موظف في محافظة المنيا، لا أتذكر ولا أهتم على أي درجة هو الآن، إلا إنه كان قد أحب فتاة من أصول قناوية، وانتقل للعيش بجانب زوجته وأهلها، نادرا ما يزورنا بالرغم من إنه في نفس البلد. لا أعرف كم ولدا لديه الآن من كثرتهم، كانوا أربعة، ٣ أولاد وبنت في أخر مرة سألت فيها عنهم.

مع استيقاظ والدي الذي يقضي يومه يشاهد التليفزيون ثم يتصفح الفيسبوك، ومع تعليقاته العظيمة في الصفحات الفيسبوكية مهاجما الشباب على ألفاظهم الخارجة وانعدام تربيتهم، يتنافى تماما مع سلوكياته الشخصية في منزله، فهو لا يتكلم معي أو مع أمي الحاجة ناهد إلا كلمات قليلة أغلبها همهمة لا نسمعها ونكاد نجزم أنها سباب على أي شيء ولو صغيرا. من هوايات والدي هي تصليح الأدوات الكهربائية، حتى لو لم تكن معطلة، يهوي فك الراديو وربطه، يعشق الاستماع لأغاني الست أم كلثوم بصوت عالي يدخل غرفتي بالرغم من إنني أستمع دائما لموسيقي الروك الصاخبة التي تنقلني لعالم مواز حيث أشعر فيه بأنني خارج منزل عبد الحميد العلايلي.

أشعر بالشفقة دوما على والدتي، الحاجة ناهد، ليست كبيرة في السن، تزوجت وهي في الخامسة عشر من سنها، طيبة القلب، بصحة جيدة إلا إنها في الآونة الأخيرة تعاني من آلام العامود الفقري، فتحتاج لراحة تامة أحيانا. كانت منذ صغري تحاول جاهدة ألا تدخل في نقاش مع والدي، خاصة بعد زواج أخويّ، لأنه أصبح على الحميد المجيد، لا يملك سوي المعاش، وحتى شقتنا فهي إيجار قديم. كانت أمي قد بدأت تغني أغنية " أما تتجوز عيش معانا" وحينما أرفض الفكرة تذكر " محوشالك قرشين على جنب وربنا يكرم ساعتها".

أتذكر أول رمضان بعد الثورة، حينما وقفت متفرجا من شرفتي علي بعض الشباب يجرون في المنطقة أثناء فض الاعتصام، لم أرد الانضمام لأنني قد رأيت العديد ممن ليسوا من المعتصمين يتسببون في مشاكسات مع قوات الأمن أدت فيما بعد للقبض عليهم، ناهيك عن إن درجة الحرارة في أوائل أغسطس تكاد تصل إلى الخمسين، فمع أول يوم صيام نصهر كما تنصهر السمن علي صينية كنافة الحاجة ناهد.

لم أر من البلكونة سوي شبان يجرون إلى الشوارع الجانبية المتفرعة من ميدان الفلكي حيث كانت عمارتي على الناصية، كان من بينهم أنور، واستغربت جدا لأن أنور لم يكن يعتصم نظرا لأنه وقتها كان يرانا ضد الاستقرار بينما هو كان مشاركا في جمعة قندهار، تلك الجمعة الإسلامية. استوقفني رؤيته خاصة أنه كان يحمل كاميرا يحاول تخبئتها في حقيبة ظهره التي يحملها دائما، واستغربت لأنني تذكرت إن عطية

كان يستعير تلك الكاميرا من أنور أحيانا الرغم من أن وظيفة عطية تجعله يستطيع شراء مليون كاميرا أفضل من كاميرا أنور، ولكنني كنت في نفس الوقت أتحدث إلي قمر في المحمول، كانت تحكي لي عن مقابلتها التي أجرتها للحصول علي عمل جديد في شركة عالمية متخصصة في إنتاج سلع استهلاكية، كانت متحمسة ولكنها متخوفة من بعد مسافتها عن منزلها، فكانت قمر بالرغم من نشاطها الزائد تكره طول المسافات وخاصة إنها شركة كبري في إنتاج أرقي أنواع الشمبوهات ومساحيق الغسيل، شركة عالمية لها مصانع في السادس من أكتوبر والعاشر من رمضان، الأمر الذي كان يصيب قمر بالذعر كلما فكرت في أن حياتها ستكون في الطريق . لم أفهم سبب تخوفها الحقيقي إلا لاحقا، حينما أدركت أن قمر كانت خائفة لأن مرتبها يكاد يكون أضعافا مضاعفة لما يمكن حتى أن أتخيله. شعرت بالفرحة لفرحتها، ولكنني كنت قد شعرت بوخزة في قلبي لم أفهمها إلا بعد عدة أشهر، تلك الوخزة كانت بالقطع غيرة منها وعليها، خاصة وأنني في نفس التوقيت، كنت قد رسبت في تلك المادة اللعينة واضطررت لأن أذاكرها في عز الصيف.

لم تكن لتبدأ عملها إلا مع بداية أكتوبر، الأمر الذي جعلنا نقضي شهري أغسطس وسبتمبر محاولين اللقاء والكلام بقدر يكفي ويزيد عن غيابها في ساعات العمل الطويلة والوقت الذي ستقضيه على الطريق ذهابا وإيابا، ولكن مع استمرار رمضان في أغسطس، كنا نحاول على قدر الإمكان اللقاء بعد الإفطار كلما سنحت الفرصة. كانت قمر من عشاق رمضان والأجواء الرمضانية وعادة ما تطلب مني لقاءها في

الحسين، كانت تعشق التمشية في شارع المعز، ولتفهمها إنني طالب لا أملك من المال سوي مصروف الأستاذ عبد الحميد، كانت دائما تقول:

- إحنا نتمشي ونشرب أي حاجة من الكشك.

لم تطلب أبدا سوي ذلك، ولكنها كانت تحاول الخروج في بعض الوقت من منطقة عابدين، وذلك لأننا كنا دائما نصطدم أثناء مشينا بأحد معارفي أو أصدقائي، والصراحة تقتضي أن أعترف بأنني كنت أغير عليها غيرة عمياء، فكانت ملابسها دائما أنيقة، مهما كانت محتشمة، دائما تحمل شنطة يد كبيرة، كنت قد طلبت مرة معرفة ما بداخلها من فضولي، وبالقطع كأي شنطة حريمي تجد فيها كل ما تشتهيه الأنفس من مكياج وعطور وكل أنواع المناديل، الخ.

ثم جاء العيد ويليه شهر سبتمبر، واقترب موعد عيد ميلادها، كنت خائفا بشدة من أول عيد ميلاد لها في علاقتنا، فكيف لي أن أشتري لها هدية؟ الحاجة ناهد لم تكن تعرف بعد عن علاقتي بها. لم أكن أملك الكثير لأقدمه لها، هي كانت متفهمة بشكل مبالغ فيه وحتى إن أردنا أن نهادي بعضنا، كنا نتبادل هدايا رمزية. ولكن كيف لي أن أقدم هدية رمزية في عيد ميلادها الذي ستعمل بعده في شركة كبيرة ستقابل فيه كل من هو غني، ناضج، يمتلك سيارة، خريج جامعات أمريكية وألمانية. أما أنا فحي الله طالب في كلية هندسة القاهرة.

أخذت أفكر أغلب الشهر حتى قابلت كابو وملك في أحدي الأيام بعدما كلمني كابو للقائهم في قهوة من قهاوي البورصة، كانت ملك

زميلة لنا في الكلية هي الأخرى، ولكنها تخرجت مع كابو وظللت أنا في سنتي الأخيرة التي لا تنتهي. كانت ملك فتاة مرحة ترتدي الحجاب مع ظهور واضح لخصلات من شعرها المصبوغ بالأصفر، خفيفة الظل، تدعي الثورية لكنها ليست في ثقافة أي أحد مننا، كانت تعمل في مكتب هندسي صغير في رمسيس بجانب منزلها وتمشي في مواعيدها الرسمية كأي موظف حكومة، فهي ليست دؤوبة على العمل على الإطلاق، ولكنها تعمل كي تكون ذات استقلالية عن منزلها المكون من أربعة أخوات بنات. كان كابو يخرج معها كثيرا لأنه أعز أصدقائها، كانت تحكي له عن خلافاتها مع حبيب القلب زميلنا السابق إسلام، كان كابو دائما يصفه ب "العيل السوّ اللي إنتي مصاحباه"، فكان ندلا معنا أيام الكلية، أناني بطبيعته، ولكن تلك الساذجة كانت تحبه حبا غريبا وتهديه الدباديب. وقد عرفت منهم أنهم كانوا ينزلون المليونيات السابقة مع الألتراس، وكانوا كلهم يتساءلون عن سبب غيابي خاصة أنني كنت أرفض الحديث عن رسوبي. جلست معهم نشرب الشيشة، ثم باغتنا هيثم يليه بدر:

– من زمان متلميناش اللمة الحلوة دي، إيه يا عم.. من لقي القمر نسي الأشكال الضالة اللي زينا ولا إيه!

تعصبت من كلمته، لم أحب أبدا أن يتكلم أحد عن قمر هكذا، ثم لاحظت أن بدر كان يعرج قليلا قبل أن يجلس وسألته عما أصابه.

– مفيش يا عم، كنت بجري يوم السفارة الاسرائيلي ناحية سفارة

السعودية، وواد كدة ابن ... سدي ودنك يا ملك!

– لا مش سداها.. إيه يعني اشتم عادي.

– أنتي تلاقيكي اتعلمتي الشتايم من العيل السوّ اللي أنتي مصاحباه.

قالها كابو ضاحكا، بينما ظهرت علامات الاستياء علي ملك، بينما ابتسمت ابتسامة خفيفة أنا وهيثم، فباغتنا بدر بصوت مرتفع:

– المهم.. أخدت لي خرطوش في رجلي من ورا ... بس عادي مسيرنا نردها لهم!

– اقعدوا أنتم دخلونا في حوارات بتاعتكم بقي وإشي اسرائيل وإشي فلسطين نسيب الثورة ونفضي لمعاليك يا بدر باشا! ولا أقولك يا كابو بدر!

قالها هيثم غامزا لكابو، فضحك كابو قائلا:

– لا يا بدر، أنا بس اللي الكابو هنا ... أنت اترقيت في الألتراس ولا إيه؟

فضحك بدر ضحكة لم نفهمها ثم قال:

– والله أنتم عيال رايقة مش فاهمين اللي بيجري! قسما برب العزة اللي بينا دي حرب مش هتخلص ... بس هنردهالهم!

ثم جاء تليفون لهيثم فجعله يقف ويمشي قليلا، فإذ ببدر يخرج من جيبه سيجارة ملفوفة ويغمز لكابو قائلا:

- مين الكابو فينا يا عم بقي؟ ولا مش عايز؟

فقفزت ملك من مكانها:

- لا يا جدعان مش قدامي الكلام ده، أنا ماشية!

فكرت في ذهني أن أسأل ملك عن الهدية التي يجب أن أشتريها لقمر، فهي الأنثى الوحيدة في حياتنا - أو هكذا تعتقد هي- فتحدثت معها وظلت تقترح اقتراحات من تفاهتها أدركت الفرق بينها وبين قمر، فقمر ليست من الفتيات التي تهتمين بالدباديب، وبالرغم من إنها تعشق المكياج والبرفان إلا أنني لا أستطيع أبدا أن أشتري لها شيئا منهم ليس بماركة شهيرة وإلا اعتقدت أنني فقير وجاهل. أخذت أفكر في كلامها حتى وصلت إلي شقتي وأول ما رأتني أمي قالت لي:

- تعالي ورايا.

أخذتني أمي إلي غرفتها لتحكي لي في السر عن زيارة أخي هاني بعد يومين، وأرادت أن تتأكد أنني لن أسبب أية مشاكل معه حينما يزورنا، خاصة بعد خلافنا في زيارته الأخيرة حينما كان يدافع عن مبارك، فأخي فلول حتي النخاع، بالنسبة لي هو من المضللين، الطامعين، فهو من أكثر المستفيدين في العصر المبارك، فعلا لأنه سافر و ترك مصر بحثا عن المال، العقلية المثالية للمنتفعين. كانت أمي تكاد تجن حينما أهاجم أخويّ بالرغم من دفاعها عني كلما فتح أبي مجال مقارنة بيني وبينهما، وبالرغم من أنني أخر العنقود، إلا أنني لم أكن حبيب قلب أبويا كما يطلق البعض على من هو آخر العنقود. وبينما هي تعطيني درسا في

الأخلاق فكرت جليا في الموافقة على عرضها بشرط مالي - أي رشوة- فقررت الاستفادة من الموقف صراحة، خاصة وأنني تذكرت أثناء عدم تركيزي معها وهي تتحدث عن أخي إن هيثم كان يقول إن هناك حفلا في ساقية الصاوي، وفكرت إن هذه قد تكون الهدية المناسبة لقمر، فهديتها إذا كانت حفلا غنائيا أو موسيقيا وهدية صغيرة فلن تلتفت كثيرا لحقيقة أنني لم أشتر لها هدية باهظة الثمن.

كنت دائم الاستماع لفرقة موسيقية تعزف موسيقي الجاز ذات الطابع الشرقي، وتأكدت من أن أصل إلى مقر ساقية الصاوي قبل قمر لأشتري هديتها من المعرض بالداخل، فاشتريت لها إكسسوارات ولففتها، ووقفت كالطالب في طابور العشاق أنتظر معشوقتي، لتهل على رائحة عطرها قبل أن تدخل هي. كم كانت جميلة ووجها ساطع كالبدر في تمامه، بيضاء ذات عيون عسلية تقتلني، بالرغم من إنها كانت تقول أن عينيّ الخضرواتين كعيني الحاجة ناهد أجمل من عينيها، مجنونة هي الأخرى، طالبة في طابور العشاق تعميها مرآة الحب بحبي أنا، أمسكت يدها لندخل بعدما ألبستها الإكسسوارات التي كانت سعيدة بها جدا لدرجة أنها من سعادتها همست في أذني همسة لن أنساها، أصابت قلبي و جسدي برعشة أغلقت عينيّ بعدها لأشتم رائحة عطرها تفيقني من تخيلات شفتيها تلمس شفتيّ، فقالت :

- فتح عينك ... تأكل ملبن! يلا يا زياد ندخل.

لم يكن ذلك هو التخيل الوحيد تلك الليلة، فبعد كلمتها التي ظلت

ترن في أذني:

- نفسي أبوسك وأحضنك..

سرحت مع أنغام الكمان متخيلا اليوم التي ستكون فيه قمر بين ذراعيّ، أحضنها وأمتلكها، بينما أمسكت هي يدي وهي تتمايل مع الموسيقي وتهز كتفيها في حركات لم تثر جسدي، بل أثارت أيضا فكري. أخذت تحرك شفتيها دون صوت لتهمس لي من وقت لأخر: "بحبك".

انتهي الحفل وأثناء ترجلنا للخارج بعد الحفل، قابلنا بدر:

- إيه يا عم الحبيب مش تقول إنك جي؟ أهلا قمر، آه صحيح ... كل سنة وأنتي طيبة، ده زياد فلقنا بعيد ميلادك يا ستي لما كلنا حفظنا ... أتاريك مقولتش إنك جي!

شعرت بأنني أريد أن أستخرج خنجرا أو مطواة قرن غزال لأقتله على إحراجي أمامها، ولكن كعادتها لم تشعر بالحرج، بل ضحكت وردت عليه:

- وهو أنت لو عارف أنه عيد ميلادي، مش تجيب لي هدية؟ وبعدين بتسأله ليه أصلا يقابلك لو هو معايا.. ما أنتم كل يوم معاه، جت عليا!

ضحك بدر من إحراجها له، ولكنه كان يفهم أنها تحاول أن تقلل من حدة الموقف واستكملت:

- أنت صحيح اتصابت يوم السفارة، زياد قال لي، سلامتك، أنت عارف يومها أنا كنت حاسة أن حد بيحاول يجركم من التحرير للسفارة

وكنت حاسة أنها مصيدة يا بدر... متخليش الألتراس يدخل في حرب مش حربه..

تقلبت معالم وجه بدر مع كلامها وكأنه كان فكر جديا فيما تقول، ثم انتفض من هيثم الذي فاجأه بوضع يده على كتفه من خلفه ولم يره ولكننا كنا نراه يقترب، فابتسم لقمر وقال:

- كل سنة ومعاليكي بخير! نورتي الزمالك!

- شكرا يا هيثم، عاش من شافك

- مشغول يا ستي، أنتي عارفة بقي محاكم ومظاهرات وحركات، مبروك الشغل الجديد، استعدي بقي للشقا..

- أنت بتخوفني يعني، ما أنت عارف أنا كنت بشتغل قبل كدة وعارفة.

- آه صحيح ما أنتي قدي وبقالك كام سنة شغالة وفاهمة الدنيا، الدور والباقي على الحلوين اللي واقفين هنا أخرهم يتخنقوا من الدكتور علشان ملغاش فصل من المقرر.

أحمر وجه قمر خجلا من كلامه وساد الصمت، ولم أكن أسمع سوي غليان دمي في عروقي من كلماته، فهو لم يحرجني أنا وأخاه فقط، بل وذكّرنا كلنا بأن قمر تكبرني في السن.

تدارك بدر الموقف، ونظر لأخيه يلكزه في ذراعه وقال:

- مش يلا بينا ولا إيه ... إحنا الإثنين بنعك الدنيا بس، كل سنة وأنتي طيبة يا قمر، وعلي الله تكون الفرقة عجبتك، ومبروك الشغل الجديد..

- شكرا..

قالتها ولم تفتح فمها كثيرا سوي لوداعي وهي تركب التاكسي بعدما أوقفته لها وقلت له:

- المعادي!

الفصل الثاني
الثورة مستمرة...!!

بدأت قمر العمل مع مطلع أكتوبر، ومر أول أسبوع سخيفا، فهي قد بدأت تنشغل عني، وكنت أنا أذاكر وأقابل الشلة كل يوم ليلا إما للعب الكرة أو للجلوس في مقاهي البورصة التي كانت قد اخترقت من رجال الأمن والمخبرين بكل أنواعهم. كان هيثم من كثرة خبرته مع والده ومع حضوره اجتماعات الحركات والوقفات على سلالم النقابات وزياراته العديدة للأقسام أما شاهدا أو متهما يشم رائحة المخبر، بل ويحدد هويته وانتماءه لأي قسم أو جهة من نظرة واحدة. كانت كل فترة تحدث اضطرابات على المقاهي عندما يختلف شخصان على وجهة نظر سياسية، وتجد كل القهوة تتدخل لفض الخلاف السياسي والتراشق بالألفاظ حتى كدنا جميعا نتقن لغة المثقفين.. أيها البرجوازي المتعفن، أنت فلول ياض، أنت سلفي من بتوع أمن الدولة، بس ياض يا إخوان، أو بأن يكتشف أحدهم أن أخر أمنجي مندس بيننا وما هو إلا بمخبر.

كان هيثم دائم الخلاف مع أنور، الذي ظل يؤكد علي أن السلفيين ليسوا من صناعة أمن الدولة كما كنا نعتقد، بل وكان يحاضرنا عن حازم أبو اسماعيل وكم كان يحترمه كلما حضر درسا من دروسه في الأسد ابن فرات ، بل وكان يراه زعيما ويحاول أقناعنا به، فيحتد عليه كابو ، الذي

يتراشق الحوار دائما بسب الاسلاميين بما فيهم الاخوان، وبالرغم من أن شلتنا لم يكن بها إخوانيا إلا إن عطية كان دائم الدفاع عنهم بشكل غير مباشر، فساعات يؤكد علي إنهم يعقدون الصفقات مع المجلس العسكري ، بل وإنهم كانوا يركبون الثورة، لكنه دائما ما يلتمس لهم العذر بإنهم كانوا الصفوف الأولي في موقعة الجمل. وكان دائما يحكي تلك القصة التي لم يتوقف عن سردها أبدا حينما كان يقف معهم فوق المباني من مدخل عبد المنعم رياض. ثم يقاطعه جورج، متحججا بإنهم من راكبي الثورة وبإنهم يوافقون السلفيين على تكفير المسيحيين، بل وكانوا سببا خفيا في حرق الكنائس بحثا عن أختهم كاميليا أو أختهم وفاء. كان جورج قليلا ما ينضم إلينا، ولكنني كنت أعزه جدا بشكل شخصي، كان يدرس الطب وكان في الامتياز، قصيرا يلبس نظارة قعر كوباية لأنه كان دائما من الأوائل في دفعتنا "دحاح يعني"، وكنا قد تعرفنا عليه في المدرسة، هو باختصار صديق جدع، أو كنت كما أضحك بها وأقول:

- بأمانة يا جورج، أنا بحبك حبي لجورج اسحاق.

وكان السبب بالقطع هو أنور، فأنور كان دائم التهكم على جورج، وكان كثيرا ما يدخل معه في جدل ديني لإثبات صحة الإسلام علي حساب المسيحية، وكانت أكبر معركة بينهما حينما وصفه أنور بأنه نصراني وقت غزوة الصناديق في استفتاء ٢٠١١. أتذكر كم السباب الذي قاله كابو لأنور، بل وتسبب وقتها في شبه قطيعة بيننا وبين أنور

لأننا وقفنا في صف جورج، حتى عطية المقرب لأنور منا جميعا.

ذلك اليوم في أكتوبر، يوما لن ينسي في ذاكرة المصريين، فكان التاسع من أكتوبر، جاءنا جورج مترجلا مهموما، ونظر إلينا نظرة عتاب:

- أنتم مش هتيجوا المسيرة؟ أنتم إيه معندكوش دم؟ ولا شيخ أنور لحس أمخاخكم بأننا نصارى وعندنا أسود وسلاح؟

فابتسمنا ابتسامة خجل لأننا نتفهم سبب غضبه، كانت كنيسة الماريناب قد أحرقت، ومن قبلها أطفيح، وكنا قد شرحنا له مسبقا بأننا نفهم ماذا تحاول الثورة المضادة فعله لكي تعكر المسار الثوري، وكان من أدبه يقول:

- مش كل ما أجي أقول لكم إن الإسلاميين بيكرهونا، وإن مش كل حاجة في الدنيا هي الثورة المضادة اللي أنتم ماسكين فيها دي متصدقونيش! أنتم شوية محششين مفيش منكم فايدة.

قام هيثم يجري وراءه ولم يتبعه بدر الذي ظل يجلس معي ومع كابو، أما عطية فقد جاء ليرمي السلام قبل ظهور جورج الغاضب، ولكننا لم نفهم ما سبب ارتدائه لملابس مهلهلة وقبعة وشنطة على ظهره، كان دائما يحمل كاميرا لتصوير كل شئ خاصة بعدما أشتري واحدة صغيرة من علي أمازون بدلا من استعارته لكاميرات الأخرين. سحب كابو نفس من السيجارة ثم قال:

- الواد عطية ده وراه مصيبة جديدة أكيد.

اضطررت أن أرجع إلى منزلي، وأخذت في المذاكرة ولم أهتم بما حدث ولم أسمع شيئا إلا عندما كلمتني قمر علي التليفون:

- أياك تكون هناك؟ أنت فين؟ أنت في حتة هادية؟ أنت فين يا زياد طمني؟ كلمت جورج؟

تعجبت كثيرا لاهتمامها بجورج، لم تقابله سوي مرات قليلة، ولكنها سردت لي ما حدث، ففتحت تويتر لأري الأحداث وأتابعها، وقررت أن أكلم جورج وهيثم فورا، بعد وعود مستميتة لقمر بأنني لن أغادر المنزل، لأول مرة أشعر بأن قمر كانت فعلا متأثرة ، مذعورة علي ، وكانت تردد:

- اللي هينزل الأهالي هيموتوه، بلاش نروح فطيس! أبوس إيدك متنزلش.

- هرسوهم يا زياد.... العيال اتفرمت.. ولاد الكلب.. ولاد الكلب.

قالها هيثم في هستيريا عندما رد علي حيث إن جورج لم يجب، وعلى كلامه جورج توجه مع أخرين إلي المستشفى القبطي مع المصابين، وأكد لي أنه بخير ولكنه سألني سؤلا غريبا:

- تعرف الحيوان اللي إسمه عطية راح فين؟ يوم ما نعوزوه ما نلقيهوش ... فص ملح وداب!

مرت أيام حزينة بعد تلك الليلة، فهيثم كان في المسيرة المتحركة من

شبرا مع جورج و أخرين من الحركة ، ثم فاجأهم بلطجية عند كوبري شبرا، وفجأة بدأ ضرب المشاركين في المسيرة، وبالرغم من الضرب أصروا علي التوجه إلي مبني ماسبيرو، ظل هيثم يحدثنا عن سلمية الأقباط وعن أنهم فعلا لم يكونوا يحملون أسلحة، وأخذ يحلف أنهم فعلا أبرياء من تلك التهم التي تداولتها قنوات التليفزيون، واللوم كل اللوم علي البلطجية الذين كنا نعتقد أنهم تابعين للثورة المضادة، ولكن حتي هيثم كان يشكك في هويتهم الأمر الذي جعله دائما يتساءل أين عطية من أول الاحداث. وكان دفاع عطية فيما بعد أنه كان في عمله ثم دخل إلي مبني ماسبيرو من مدخل عبد المنعم رياض، وكان قد صور بضعا من مقاطع الفيديو، ولكنها لم تثبت أي شيئا عن هوية هؤلاء البلطجية، ثم أخذ يرينا مقطع فيديو حيث أخذ أحد الملتحين يضرب أحد الاقباط المسيحيين هو وأخرين، وكان عطية يلوم التليفزيون المصري علي كل ما جري. كنا على يقين تام بأن هؤلاء يخدمون الثورة المضادة، وأنه كان من مصلحة الجميع فض الاعتصام بأي ثمن.

أما جورج، ذلك المسكين فقد ظل صامتا لأسابيع طويلة، يهذي كلما حاول أحدنا إيقافه في الشارع للسلام عليه أو في محاولة استدراجه لمقابلتنا في المقهى. لم يتكلم مع أحد سوي كابو. ففي مرة قابله كابو وأخذ يتكلم معه كثيرا عما رآه من فزع وصراخ ورصاص، وكم الشعور بالحزن بأن مصر لا تعامله كمواطن له حقوق طبيعية. كان مستاءا من أننا لا زلنا نتكلم مع أنور، فهو قد أصبح عدوه لأنه لم يدافع عنه، لم يسأل عليه، حكي لي كابو كم الحزن الظاهر علي جورج:

– تصدق ده المسيحي الوحيد اللي أعرفه اللي مكنش عايز يهاجر، كان بيحب مصر، بس أشك أنه ناوي يقعد فيها بعد كده، الواد دكتور، خليه يسافر يعيش حياته ويفكه من موضوع الاضطهاد اللي هم شايفينه في البلد دي، بلد عاملة نفسها بتفهم في الدين وهم شوية متخلفين.

كانت تلك المرة من المرات القليلة التي كنت أنفي فيها لنفسي بأن كابو ملحد، فقد كان يدافع عن الدين من هؤلاء الحمقى الذين يظنون أنهم ممثلي الدين. أما فيما يخص كابو نفسه، فقد فاجأني بأنه دخل في عراك بالأيدي مع إسلام، لأن ملك قد قررت أن تكشف لكابو سبب خلافها الدائم مع إسلام، ذلك السبب الذي لم أفهمه أبدا، ولكنه بالقطع شيء أثار حفيظة كابو، ذلك السلمي الذي يؤمن بالسلام ويعشق بوذا وكونفوشيوس وغاندي وكل ما هو يدعو لهدوء الأعصاب. منذ وقتها لاحظت تقاربا شديدا بين كابو وملك، لكنني لم أتابعه عن كثب، حيث كنت بالفعل في أشد الحاجة لكل لحظة إما للمذاكرة أو للتقرب من قمر.

كانت قمر دائما مشغولة في العمل، فوقت عملها كان حتى السابعة مساء، نادرا ما كانت تأخذ استراحة، وكانت دائما في عجلة من أمرها كلما تحدثنا وهي في العمل. كنت أغار عليها لدرجة أنني كنت أختلق المشكلات معها كلما سمعت صوت شاب بجوارها في المكتب، ولكنها كانت دائما التلكك بأنها مشغولة جدا لدرجة أنها لا تجد أي وقت للتقرب من أي شخص. فاجأتني يوما بمكالمة في الساعة الثامنة مساء،

كنت نائما بعد وجبة الغداء المتينة من يدي الحاجة ناهد:

– أنت نايم؟ لا اصحي.. انزل حالا.. امشي لحد كوبري قصر النيل، علشان أنا واقفة في نصه!

تلك المجنونة لم تأخذ أتوبيس المعادي، ولكنها قررت أن تنزل بأتوبيس يعبر من الزمالك، لأنها أرادت أن تراني. هي بالقطع مدللتي، جريت لها لاكتشف أنها تحمل هدية، وتقف في منتصف الكوبري، فأخذت أعسفها على جنانها و كم استهوانها بالتحرش الجنسي الذي قد تتعرض له، وماذا كان يمكن أن يحدث إذا لم أكن بمنزلي حينما فاجأتني هكذا، ثم أخذتني الصدمة، فقد أشترت لي هدية بدون مناسبة، هدية لم تكن بالرمزية، أشترت قميصا من أشهر الماركات، وكوفية تليق به.

– ما هو أنا قلت الدنيا ابتدت تبرد، وبعدين أصلا أنا عايزة أحمسك علشان تذاكر بقي، وبعدين هو مش بذمتك رومانسي أننا نقف في وسط الكوبري، زي العشاق، اشمعني هما يقفوا وأنا لا..

إجابتي كانت غير مضحكة بالمرة:

– لأنك من المعادي، وبتوع المعادي مش بيحبوا على الكورنيش.

ولكنها ضحكت لتكسر حدة الموقف:

– يا إبني، ما بتوع المعادي عندهم كورنيش برضه. هو أنت ليه على طول محسسني أني إنجي بنت الباشا! أنا نفسي أعمل حاجات رومانسية مش عايزة أقعد في كافيهات والناس كلها تسمعنا، ولو على المعاكسة،

ما هو أنا أكيد بتعاكس في كل شارع بمشي فيه، ولا منزلش من بيتنا بقي علشان يريحك.

ابتسمت وكنت دائما أقول يا ليتني أستطيع أن أحتفظ بك في منزلي ولا يراك غيري، ولكني إن قلت هذا الكلام لقمر لكانت هاجمتني متهمة إياي بالتخلف، وكانت لتقفز تلك الفتاة النسوية بداخلها لتدافع عن جنس المرأة وتهاجم جنس الرجال.

مر أكتوبر، ثم استيقظت مفزوعا في العصاري، فكنا قد قررنا عدم النزول إلى مليونية حازم ابو إسماعيل التي تحولت فيما بعد إلى معركة مشهورة وهي محمد محمود، فما نحن بمعترضين على وثيقة السلمي بنفس طريقة السلفيين والإخوان المسلمين. وكما قالها كابو من قبل، لن نشارك أبدا في جمعة قندهارية الميول. استيقظت من نومي مفزوعا على أصوات ضرب نار أو كالعادة غاز مسيل عنيف، يرد عليه بالشماريخ، فالحرب قد تطورت لتصبح دائرة بسبب ثأر بائت، ليس بين السلفيين والشرطة، بل أصبح الأمر واضحا جليا، أنه ثأر سيستمر بين الألتراس والشرطة. تعقدت الأمور كثيرا بعدما انسحب حازم ابو إسماعيل تاركا خلفه رجاله الذين أرادوا الاعتصام، ولكنه هرب، ألا إن أنور بالقطع كان هناك، فأنور قد أصبح ملتحيا بشكل واضح لم يعد ليخفي ميوله الإسلامية التوجه. وفي ثانية واحدة اضطررنا جميعا للنزول، فحماسة بدر وهيثم لم تكن لتهدأ خاصة أن شارع بيتهم أصبح فجأة محرما عليهم. كان بدر ثائرا كالثور الهائج ولم يكن ليهدئ أبدا، مما جعلنا جميعا

متحمسين للمواجهات، حتي كابو نزل بالرغم من اعتراضه الشديد علي الاختلاط بالإسلاميين، ولكننا كنا فجأة ندافع عن منطقتنا التي أصبحت محرمة علينا جميعا، فكابو يسكن علي خطوات من حسن الأكبر، و أنا في ميدان الفلكي، وكان جورج يسكن في يوسف الجندي ولكنه بالقطع لم ينزل في اليوم الأول، ولكنه أنضم إلينا في الصباح التالي.

رأينا ما رأيناه تلك الليلة، ضرب غاز مسيل أصابنا كلنا بالاختناق. لم نكن نري سوي نارا تتجه تجاهنا أو يضربها أحد تجاه الشرطة، شمروخا كان هذا أم خرطوشا لا ندري، ولكن كان هناك صوت الدوي يلي الآخر. تشبثنا ببعضنا ورددنا أغاني الألتراس، يقودنا بدر وصديقه المقرب ياسين، ثم أصبحنا جميعا محاطين بأصدقاء بدر من ألتراس أهلاوي وزملكاوي، وكان معنا أنور يردد الشعارات ثم بعلو الصوت: الله أكبر.

ظلت المعركة دائرة، غاز مسيل كثيف يرد عليه بالشماريخ أو خرطوش من مسدسات صغيرة الحجم محلية الصنع، ولكن الدخان كان كثيفا، وكنا نتقدم أحيانا مهللين بالشتائم والأغاني الحماسية، فيكثف الجنود الغاز، ليجري من يجري ويقع من يقع، صرخنا، جرينا، ظللنا محاطين بالدخان، يجري معنا كل شباب المنطقة، وغيرهم ممن نزلوا بعد بدء المعركة نظرا للاستغاثات والتغريدات التي كان يغردها هيثم وآخرين من أصدقائه من مختلف الحركات، فمنهم من كان من ٦ أبريل و منهم من الاشتراكيين الثوريين، وآخرين من شباب من أجل الحرية

والعدالة. كان هم هيثم الأوحد هو نقل الأحداث، أما أنور فكان همه أن يحفزنا بأن نجري ونتقدم مرددين الله أكبر بدلا من الشتائم، لأنه رأي أنها تهدئ من رد فعل الجنود. أما كابو فكان صامتا مثلي، وبالرغم من كبر حجمه، إلا أنه كان يجري كالريشة بين الدخان ليلقف قنابل الغاز ويردها على الجنود.

بينما كنا في خضم المعركة، جاءنا عطية متأخرا، حاملا كاميرته المحترفة كعادته والشنطة على ظهره، وكان يرتدي قناعا مضادا للغاز، ليصور الأحداث المحتدمة، كنت دائما أستغربه، لماذا تصور بعد الهنا بسنة؟ لم أتيقن السبب إلا بعد عدة سنوات- ولكن وقتها كان عطية يقف دائما خلفنا، لم أره يتقدم سوي مرات قليلة ليصور عن كثب وجوه الجنود كلما تحين له الفرصة. كنت أنا وكابو نصرخ من حين للآخر بهتافات تدعو إلى التهدئة، فبدر وأصدقائه كانوا غاضبين، فمنذ شهرين كانوا في معركة السفارة الاسرائيلية مع الألتراس ضد الداخلية، فكان دمهم مازال ثائرا. كان بدر قد أصيب في رجله، وكان قد حكي لنا فيما بعد عن صديقه الذي تسلق المبني، هذا الصديق الذي لم يكرم لأن الذي كرمه الإعلام وتبناه صفوت حجازي لم يكن بالمتسلق الحقيقي. كان بدر وأنور على خلاف مع عطية حينها لأنهم كانوا مختلفين على هوية المتسلق، و اتهما عطية بأنه لم يذهب منذ بداية الأحداث وأنه صور فقط ما حدث أمام السفارة السعودية فيما بعد، وفجأة زاد الدخان بشدة بعدما سمعنا أصوات شباب كثير يصرخون بعدما أعلنوا سقوط قتلي وإصابة أخرين ومنهم عطية.

كان عطية يقفز كالنعامة بين الشباب، ليصور كل شيء، لم يحمل طوبة، لم يحمل شمروخا، ولكننا لاحظنا أنه يعرف العديد من الشباب من مجموعات مختلفة، فمن حين لأخر نري أفواجا تأتي من التحرير لتدعمنا، أو من شارع القصر العيني، شباب أخوان، شباب ذوي ذقون، شباب بأذيال حصان، فتيات محجبات بالكارينا، فتيات من الإخوان المسلمين، نساء، رجال.. أفواج ظلت تتوافد حتى منتصف الليل. جررنا أنفسنا أنا وكابو، بعد خلاف شديد مع بدر ليأتي إلى منزلي بدلا من بيتهم الذي لن يستطيعوا الوصول إليه هو وهيثم. ولكن هيثم كان قد تبخر، لم نره، اختفي تماما ولم نعرف أين ذهب، ثم فجأة ونحن نسير، سمعنا صوت دوي خرطوش تلاه صوت صراخ شديد، ووجدنا كل الشباب يمشون عكسنا في اتجاه محمد محمود ثانيا، لم يجروا هاربين من الدخان، ولكنهم كانوا يجرون تجاهه، التففنا لنجد عشرات المصابين، صراخ الشباب الذين قد أصيبوا ، وأخرين كانوا يصرخون طالبين النجدة، يحملون المصابين علي أكتافهم ، وصعقنا لأننا رأينا أن أغلب الإصابات كانت في الأعين، وكانت صعقتنا القوية حينما رأينا أن أحد المصابين هو عطية، الذي كان يصرخ قائلا كلمة واحدة:

- الكاميرا ... الكاميرا!

جرينا به إلى مستشفى القصر العيني، رأينا إصابات لا حصر لها، لم تكن فقط إصابات أعين، ولكن في الرجل، في الظهر، في العنق، إصابات جعلت المستشفى كاملة العدد، لا تستطيع استقبال أي مصابين جدد.

ولكن أحد الاطباء قد وقف سريعا لينظر إلي عطية ثم قال لنا:

- اطمنوا، صاحبكم ده محظوظ، نظارة النظر هي اللي اخدت الخرطوش، هو بس عينه اتصابت من الزجاج، اطلعوا على عيادة ناحية المنيل فيه دكتور عيون هناك نواحي الروضة. مضينا الليل بطوله مع عطية، ولم نستطع الاتصال بأي من الأخرين حيث أن كل التليفونات كانت خارج نطاق الخدمة.

كانت قمر في اليوم الذي تلاه قد قررت النزول إلى الميدان لأنها لم تسطع أن تذهب إلى العمل في هذا اليوم. حاولت منعها، لكنها أصرت خاصة وأن أخاها وأصدقاءه قد ذهبوا من الصباح، وأغلب صديقاتها من الجامعة كانوا يشاركون في لجان التفتيش في مداخل النساء. اتفقنا أن نتقابل عند مجمع التحرير، كانت هذه هي المرة الأولي التي وقفت فيها مع قمر في المظاهرات، لم نختلس النظرات وهي تقف مع أخرين، ولكنها كانت معي، بل وأمسكت يدها قي قلب التحرير. كانت دائما تقول:

- المظاهرات لازم توقف بعد المغرب، مينفعش يسيبوا فرصة للهجوم عليهم بالليل لأنه من الصعب اثبات اللي بيحصل بالليل بالتصوير.

وكنت دائما اضحك قائلا:

- أنتي من أنصار ثورة ثورة حتى العصر؟ هو أنتي فيكي عروق إخوانية؟

كانت تغضب غضبا جما، لأنها كانت تكرههم وكنت دائما أستفزها. قابلنا كابو وملك وجورج، ولكننا لم نر هيثم وبدر. كل ما أعرفه أن بدر وأصدقائه من ألتراس أهلاوي قضوا الليل بين المستشفيات نظرا لسقوط العديد منهم بإصابات في القدم أو العين، ومنهم ياسين، صديق بدر المقرب في الكلية والألتراس ومن أهالي عابدين أيضا من شارع الشيخ ريحان الذي كانت إصابته في يده اليسرى، تاركين بضعا من ألتراس زملكاوي وشباب المنطقة يكملون المعركة طوال الليل.

كان كابو يحكي لنا كيف أن الأستاذ أبو العلا والد هيثم وبدر قد حاول الخروج من المنزل، لكنه لم يستطع حيث إن عمارتهم كانت في المنطقة الفاصلة بين قوات الشرطة والمتظاهرين. أخذت قمر تناقش كابو في حماقة الوقوع في خية الاستدراج لمواجهات مع الشرطة، خاصة أن المتظاهرين يمكنهم الرجوع إلى الميدان دون الدخول إلى الشارع، فمن رأيها أن هناك محاولات لافتعال اشتباكات إما كمحاولة لتأجيل الانتخابات البرلمانية أو كما حلل والدها الموقف سياسيا، بأن هذه الاشتباكات هي بالقطع دعاية مجانية للأحزاب المستعدة لخوض الانتخابات البرلمانية والتي تضمن كراسيها وأصواتها، مستغلين الصراع المستمر مع قوان الأمن والكراهية المستمرة للمجلس العسكري. طبعا رأيها لم يعجب كابو الذي كان دائما ما يراها:

– لطيفة بس عاملة فيها أنها بتفهم أكثر مننا.. أكمنها من المعادي وأبوها أستاذ سياسة.

ظلت قمر تحاول أن تشرح نظريتها دون قبول من كابو، وكان جورج يستمع لها بنهم، ولكنه لم يناقشها، فهو دائم الهدوء، أما ملك، فكانت تقف بجانب كابو تجول بعينيها لتري المتظاهرين والفنانين الذين كانوا يرسمون على حوائط الجامعة الأمريكية. لن أكذب وأقول إنني أمنت بما قالته، فأنا كنت أتفق مع كابو في أن الثورة المضادة من الفلول لم ترد للثورة أن تستمر، ولكني بالطبع لن أتفوه بكلمة من هذا أمام قمر، ليس خوفا منها، ولكن لأنني كنت أؤمن بأنها يمكن أن تكون علي حق، ويمكن فعلا أن كلامها سيصدق يوما ما، ولكن عقولنا لا تستوعبه الآن.

مشيت قمر بعد المغرب، لم تكن قد أظلمت بعد. كانت تمسك يدي وكأنها تشعر بأنها قد لا تمسكها مرة أخري، ونبهتني عدة مرات من الدخول إلي محمد محمود. وكأن قلبها كان علي حق، بالرغم من أنني لم أدخل محمد محمود يومها لأنني كنت بالفعل مرهقا من اليوم السابق، إلا أنها حينما اتصلت على هاتفي بعد ثلاث ساعات رد عليها كابو محاولا الكذب عليها، ولكن مع إصرارها، قال لها الحقيقة:

- زياد أغمي عليه، ضربوا غاز في المترو، متخافيش، هو كويس بس مش قادر يمشي من الدوخة، إحنا رايحين على قهاوي البورصة، أول ما يقدر يتكلم هخليه يطمنك بنفسه.

لم أشعر بقدميّ، سقطت وسقط من حولي العديدون، كلنا كنا كالمشلولين، نجر أنفسنا زاحفين، حملني كابو وجرى بي إلى مقهى

البورصة بعدما سمعني أصرخ باسمه باحثا عليه وأنا على الأرض. كنا نحاول أن نرتب مرور سيارات الإسعاف في منتصف ميدان التحرير، ثم قررت أن أذهب للتبرع بالدم، وحينما توجهت تجاه مسجد عمر مكرم، لاحظت أن هناك دخان لم أفهم مصدره حتي سقطت علي الأرض، لم أكن أعرف أن كابو كان ورائي يحاول إيقافي، ولهذا استطاع أن ينقذني بعدما أغمي علي.

بالرغم من كل ذلك، انتخبنا مجلس الشعب. أتذكر كيف قامت قمر بدور كبير في الرقابة في اللجان بعدما ألحت على والدها أن يجعلها تنضم لمنظمة من تلك التي تستطيع أن تراقب اللجان الانتخابية. وبالرغم من أنها لم تستشرني في ذلك القرار، ألا أنني لم أكن لأعرف كيف أعترض بعدما وافق والدها على ذلك. كنت خائف من حدوث أي احتكاكات معها في اللجان الانتخابية، الأمر الذي حدث بعد ذلك، ولكنها كانت قد حكت لي كيفية وقوفها في اللجان، وكيفية ردودها على مختلقي المشاكل، بل وفي مراقبتها الشديدة لكل ما يدور في اللجنة التي كانت تتولاها.

دائما ما كانت تهوي التنظيم، تعشق أن تنظم كل شيء، حتى علاقتنا. كانت فعلا ترسم خطط طويلة المدي. ولما انتهيت من امتحان الإعادة. قدمت لي كعادتها مفاجأة من مفاجأتها احتفالا بتخرجي، فقد أهدتني بساعة ماركة عالمية. وبالرغم من فرحتنا إلا أننا لم نخرج للاحتفال نظرا للظروف، إذ أن بدر كان قد أصيب في أحداث مجلس الوزراء بعد

اعتصام هيثم وحركته مع أخرين اعتراضا على تعيين كمال الجنزوري رئيسا للوزراء. لم يضرب بالرصاص كحلمه، ولكنه أصيب بكسر بعدما أن سحل أثناء القبض عليه، كان قد ضرب بالهراوات لأنه كان يلعب الكرة. لم يحك لنا أبدا ما حدث يومها، إلا أن هيثم أكد لي أنه ضرب ضربا مبرحا. أما هيثم فقد تم القبض عليه هو الأخر، ولكن بسبب قيام أصدقائه بحملة على تويتر لإخراجه، ولأنه لم يشارك في أحداث العنف بشهادة الشهود، إذ كان يغرد بما يحدث، فقد خرج بسهولة، خاصة وأن الاستاذ أبو العلا قد تفرغ تماما لإخراج ابنه بأي وسيلة. والحقيقة أن بدر لم يكن مشاركا في الاعتصام، ولكنه كان من الذين يلعبون الكرة مع شباب الألتراس الآخرين، والذي كان سببا من أسباب بدء الاشتباك.

كعادتي، نزلت مع كابو لنبحث عن هيثم مع بدايات الضرب، ورأينا التراشق المستمر للحجارة والمولوتوف والشماريخ من الجانبين، لكن الصراحة لم نرد الاشتباك، بل كنا كرجال الإسعاف، وكنا نساعد في تهريب الفتيات المشاركات من الشوارع الجانبية، فلن يفهم أحد شوارع عابدين سوي أهلها. ونحن في طريقنا من باب اللوق الي التحرير، رأينا شلة من الشباب الملثم يرتدون حقائب على ظهورهم، كانوا لا يزيدون عن الخمسة، واعتقدنا أنهم كانوا يحملون أقنعة مضادة للغاز المسيل، ولكننا رأيناهم مرة أخري في مدخل محمد محمود يقفون مع عطية، فمشينا إليهم. كنت أنا وكابو في غاية الفضول لنعرف من هؤلاء، فلما اقتربنا، قال أحدهم لكابو:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هو أنت شفت الدكتور عبد السلام؟

فأستغرب كابو، واستوقفه عطية قائلا:

- لا يا عبد الرحمن، مش هو ده.. ده كابو!

- اعذرني، أنا افتكرتك تبع الدكتور عبد السلام، ربنا يوفقكم يا شباب، بعد إذنكم، السلام عليكم..

غضب كابو وتجهم لأن لحيته التي تعلو وجهه لا علاقة لها بالدين، وهؤلاء لم يكونوا من أهالي المنطقة، فوجه غضبه تجاه عطية:

- مين دول؟ وإيه الشنط اللي كلكم شايلنها دي؟ وإيه الحلقة اللي أنت حالقها دي؟ بقيت شبه العساكر يخربيتك يا عطية على المناظر اللي تعرفها.. علي اللي يعرفك أصلا.

توتر عطية قليلا ثم قال:

- دول أصحابي بس هما دول اللي هيساعدونا في اللي احنا فيه ده، وبعدين هبقى أحكيلك على الحلقة دي بعدين ...أنت شوفت اللي حصل لسهام؟

كانت سهام جارة كابو في حسن الأكبر، وكنا نراها كثيرا في مقاهي البورصة، كانت دائما ما تساعد المعتصمين وتطبخ لهم وتحضر لهم مساعدات من جمعيات خيرية، استطرد عطية:

– سهام اتسحلت هي وكريم أخوها وهو بيحميها، ده غير الثانية اللي اتسحلت، أنا صورت حاجات كثير، أنا هحاول أروح الاقي نت علشان أنزلهم على الفيسبوك و تويتر ... حد فيكم شاف هيثم؟

هززنا رأسنا بالنفي، فنظر الي كابو قائلا:

– بت مين اللي اتسحلت ثاني دي؟ يا إبني ما احنا كنا واقفين، هما لحقوا يسحلوا كم واحدة ثانية؟ أنا تعبت عليا النعمة!

لم يكمل كلماته، فقد سمعنا أصوات رصاص وخرطوش عالية جدا، جرينا كالوحوش لنجد دماء كثيرة، وشباب يحملون رجلا، ثم شابا، عرفنا فيما بعد أن هذا الرجل كان الشيخ عماد عفت. وقفنا كالأصنام، نسمع الصراخ والبكاء، لم يكن بكاء نساء، بل نحيب رجال وشباب. لن أنكر أن عينيّ قد دمعت، وأنني لن أنسي ذلك المشهد طوال حياتي، ولكن لم نقف طويلا حتى سمعنا صراخ من أول الشارع، فأخذنا نجري تجاهه، لأجد ياسين يقف حاملا علما أبيض ويقول لي:

– زياد.. مش راضيين يعملوا هدنة، الناس بتقول إن المستشفى الميداني اتضرب، وإحنا بنحاول نهدي الضرب، الغاز جامد وأنا تعبت.... شفت هيثم؟

رددت على تليفوت قمر وأنا في سريري

– أنت كويس؟ يا زياد بقالي أربع ساعات بكلمك... أنت كويس؟ انطق بقي!

لم أقل لها أنني كنت أبكي، الدم المتناثر جعلني كالطفل لا أريد من الدنيا سوي حضن ارتمي فيه لأبكي، وكان صوتها فقط لا يكفي لتهدئتي، ظلت تتكلم بصوت خافت طوال الليل لتهدئني، جرعة كبيرة من صوتها كانت كافية لتجعلني أنام، لكنها لم تستطع أن تمنع الكوابيس التي راودتني لأسابيع ديسمبر الأخيرة.

ما زاد الحزن، هو أن بدر قد أصبح كئيبا بعد إصابته، كان قد اختلف بشدة مع أنور وعطية، وأخذ يسبهما ويلومهما على كل شيء. كان يري أن أتباع حازم أبو اسماعيل هم السبب الرئيسي في أحداث محمد محمود، صحيح أنها أصبحت أسطورة ثورية ودعاية مجانية لشارع منزله، لكن بدر كان قد قرر عدم الثقة في الإسلاميين مرة أخري، أما عن خلافه مع عطية ، فكان بسبب أن عطية قد فقد كاميرته أثناء الأحداث في محمد محمود، واكتشفنا فيما بعد أن قوات الأمن قد ألقت القبض علي بعض أصدقاء بدر لأنهم قد ظهروا في كاميرا وجدتها قوات الأمن في المنطقة وكان من هؤلاء الشباب من وجه لهم قضية حرق المجمع العلمي لاحقا بالرغم من أن كاميرا عطية قد فقدت أثناء أحداث محمد محمود. فأخذ بدر يلوم عطية علي كل شئ لم يغفر له أنه لم يصور أحداث السفارة الاسرائيلية، كان دائما ما يهاجمه كلما رآه، ولكن قد أصبح صعب الطباع من بعدها.

كل ذلك أدي إلى أننا نزلنا مسيرة ٢٥ يناير ٢٠١٢ سويا، ولكن دون عطية وأنور. لم أهتم كثيرا لغيابهما حيث إنني كنت أتوقه أن يكون

أنور في ميدان التحرير ليحتفل مع الإخوان المسلمين وأصدقائه الذين يدعون للاستقرار استكمالا لخارطة الطريق التي يتزعمها البرلمان الإسلامي التوجه، وكنت متأكدا أن عطية لن يظهر إلا مع معركة عنيفة لم تبدأ بعد.

فرحتي كانت بأنني أسير ممسكا يد قمر في مسيرة مهيبة خرجت من جامعة القاهرة، وكأن يومها كان أقوي أيام حبنا، مشينا ٦ ساعات، نردد شعارات ثورية، عشقت يومها شعار: حرية! مع التصفيق، فهو بالقطع كان شعوري، بالحرية مع حبي في قلب مظاهرات يتكلم عنها العالم، نحن من ملأنا ميدان التحرير وكوبري قصر النيل. كان كابو يرتدي ماسك فانديتا على رأسه، ولكنه لم يضعه على وجهه لأن الجميع كان يحذرنا، فكان الإخوان قد حذروا في جريدتهم وفي البرامج التليفزيونية من "قناع بانديتا " والفوضويين. ولكنني لم أهتم كثيرا بشرائه على عكس كابو الذي صمم على الحصول على نسخة أصلية من أمريكا، فقد أرسل الي أحد اصدقائه ليشتريه له. أذكر عندما ارتدته قمر وأكدت لها أنها أجمل ثورجية في العالم. أذكر كم كانت فرحتنا بالقناع، ذلك القناع الذي تسبب في مهازل فيما بعد، فوقتها لمعت عين بدر وكأنه قد اكتشف الذرة، ولكننا لم نفهم معني تلك النظرة إلا لاحقا. ولكنني اتفقت مع هذه الثورية بأن أولادنا سيكونون مثلنا " أكثر جوز ثوريين في العالم" - أو هكذا ظننا - واتفقنا على ان نسمي الولد "ثائر" - بالمعنى الثوري للكلمة - أما ابنتنا فهي بالقطع "حرية".

مشينا من الجامعة وانضمت إلينا مسيرات أخرى من الجيزة والمهندسين، ووزعت علينا ماسكات على شكل الشهداء، فأخذت قمر ماسك الشيخ عماد عفت وظلت تمسكه في يدها طوال اليوم. كان التعب قد حل بنا بالقرب من مدخل ميدان التحرير من ناحية كوبري قصر النيل، هناك قابلنا عطية بكاميرته المعتادة، وأخذ يمشي مع هيثم وكابو أمامنا، ثم ملت عليهم للحظات لأطلب منه طلبا كنت أتمناه، ألا وهو أن يصور قمر دون علمها صورة ثورية وهي تحمل ماسك الشيخ عماد عفت - رحمه الله. ومع وصولنا إلى قصر النيل كان الطريق مسدودا، وتوجهنا إلي عبد المنعم رياض، ومنها إلى مقهى أسوان عند البورصة، كنا كلنا متفقين أن أقدامنا لن تطأ التحرير طالما نسمع أناشيد الإخوان المسلمين الفرحين بالفوز في الانتخابات، ويدعون للاستقرار على حساب الثورة التي لم يقدموا لها سوي النذالة. كان الميدان مكتظا بالعديد ممن لم يفهموا المعنى الحقيقي لما نقوم به نحن من أجل الثورة. جلسنا على المقهى وكانت قمر في حالة من التوتر لأن المغرب كان قد أذن، نظرت إليّ خلسة ونحن نجلس بين الشباب لتفهمني أنها يجب أن تذهب، وقفت واستأذنت الشباب لأذهب معها، فهب جورج من مكانه ليمشي معنا إلى أول الشارع.

كنا قد اتفقنا أن نذهب يوم ٢٨ يناير إلى التحرير مع مسيرة مصطفي محمود، ولكنني استيقظت متأخرا، ووجدت عدة مكالمات ورسائل من قمر تخبرني أنها ستضطر أن تتحرك مع صديقتها سارة مع المسيرة حتى تقابلني. قفزت من السرير، لم أفطر بالرغم من إلحاح الحاجة ناهد،

وجريت إلى محطة المترو. قابلتها مع سارة عند شارع التحرير، أثناء سلامي عليها لمحنا تمثالا كبيرا يحمله شباب أقوياء البنية، كان التمثال يجسد إنسانا يرتدي بدلة عسكرية، وبدأت شعارات كلها معادية للعسكر، ثم وجدنا أشخاصا يوزعون البانرات والشعارات التي تدعو إلى سقوط الحكم، وأخرى كانت لا للمحاكمات العسكرية. وتقدمت المسيرة تجاه الأوبرا، وجدت صوتا يناديني، التفت لأجده عطية يرتدي كابا عسكريا، كان يحمل شنطته، وكان متحمسا بطريقة مريبة، فهو لم يكن أبدا في الصفوف الأولى، ولكنه كان يمشي بخفه شديدة، ويلبس حول عنقه قناع مضاد للغاز المسيل، وكأنه يستعد للحرب. وقفنا أمام الأوبرا حيث التقت مسيرتنا مع مسيرة أخرى قررت التوجه إلى مبنى ماسبيرو حيث كانت هناك مظاهرات واعتصامات، وأخذنا نشير إلى مبنى ماسبيرو مرددين: "الكدابين أهم".

فاجأتني قمر بعدها بيومين بحالة من الحزن، حيث إنها فقدت رجلا كان كالرمز لها، عمها الدكتور حسن، كانت تحبه حبا جما، موته قد غيرها، جعلها ذابلة، تائهة فكريا، وكانت تلك الفترة من أصعب الفترات في التعامل معها، حاولت أن أهون عليها بأن أعرض عليها الخروج مع كابو وملك، لكنها أنها رفضت وظلت على حالها لا سيما أن وقتها كانت هناك مؤشرات بأنني قد التحق بالخدمة العسكرية، الأمر الذي يدمر كل خططها لمستقبلنا. وعلى عكس حالنا، بدأت حينها تظهر بوادر العلاقة بين كابو وملك، فكان كابو قد حكي لي أن ملك كانت تصعب عليه لأنها فتاة طيبة قد جعلها حظها العثر أن تتعثر في

هذا الحقير، وتدريجيا بدأ يخرج معها لكنه لم يتفوه أمامي أبدا بأنه يحبها، ولكنه كان دائما يقول:

- دي ملك يا عم، فيه فرق بيننا وبينك أنت وقمر.

أما قمر، فكانت قد أخذت يومين اجازة من العمل حزنا على عمها، لم تخرج ولم تكلمني في التليفون، أو ترد على رسائلي، كانت تلك الفترة هي الفترة الأساسية في علاقة قمر مع والدها، فقد تقربت إليه قمر بشدة، وبدأت تحكي له عن العديد من الأشياء، لم تذكر لي أنها كانت قد حكت له عنا، لكنها كانت تحاول التقرب منه بعد خوفها الشديد من فقدان شخص عزيز أخر، أصيبت بفوبيا من الموت. وما جعل حالتها أسوأ كانت بدايات فبراير لما وقعت أحداث بورسعيد. لم تكلمني في التليفون لعدة أيام، ولكن أول كلمة قالتها لي في مكالمتها:

- قول لي أن بدر عايش، إياك تقول لي غير كدة يا زياد ... والله يا زياد مش قادرة أسمع أن حد مات ثاني!! قول لي يا زياد!

لم أعرف حينها ماذا حدث لبدر، كنت قلقا عليه أكثر من هيثم الذي كان يحضر اجتماعا في الحركة ولم يكن يشاهد المباراة، أما أنا، فلم أكن أشاهد المباراة لأنني وببساطة زملكاوي. أخذت أكلم هيثم، وبدر وكابو، ولكن لم يرد على أحد. توجهت إلى الشارع على استحياء تجاه عمارة هيثم، وقبل ان أصعد إلى شقته سمعت صراخا ونحيبا، لم تحملني رجلي، وجلست على الرصيف أبكي بكاءا حارا، حتى وجدت هيثم ينادي علي:

- أنت بتعيط ليه يا أهبل... بدر زي القرد المسلسل، بدر ده يموتنا كلنا وهو يعيش.

لم أصدقه، فسألته، هل كلمته؟ لم يرد سحبني إلى داخل العمارة، ووقفنا في المدخل ليجعلني أقسم بأنني لن أبكي أمام والدته حتى نطمئن علي بدر، فهو لم يعرف هو الآخر، ولكنه كان على يقين بأن بدر لا يموت. صعدنا لنجد والدتهم طنط عايدة في حالة هستيرية، أما الأستاذ أبو العلا فكان يقرأ القرآن، ولم ينطق بكلمة.

جلسنا سويا نشاهد التليفزيون على قناة الأهلي، وأخذ هيثم يكلم عدة أشخاص، ولكنه لم يصل إلى شيء. كل دقيقة كان الجرس ليسألنا أحد من الجيران إن كنا قد عرفنا أي جديد، وتحولت الشقة الي قاعة مناسبات، نجلس في صمت مميت نسمع الصراخ في التليفزيون، ثم فجأة رن موبايل هيثم:

- بدر، أنت عايش؟ أنت كويس يا حبيبي؟ ياسين؟ ايه!!!

ثم أخذ في البكاء الشديد، ورمي الموبايل إلي، لم أقدر على الكلام، لا سيما أن كل من في المنزل كانوا ينظرون إلى وكأنني الوحيد القادر على ترجمة الأحداث. قال لي بدر:

- ياسين مات مخنوق، ياسين مات يا هيثم، تعالي خدني يا هيثم... ربنا يأخدهم ... الحقني يا هيثم..

سألته عن مكانه، فقال إنه في الطريق إلى القاهرة في القطار الذي

يحمل الجثث. أغلقت الهاتف معلنا عن سلامة بدر، ووفاة ياسين. لم ألحظ أن أم ياسين كانت بين الحضور، فدوى الصراخ والنحيب، وأخذ الأستاذ أبو العلا يقرأ القرآن بصوت أعلى مما جعلنا كلنا نبكي في صمت. ساعدت هيثم على الوقوف، فكان ياسين كالأخ الأصغر له هو الآخر، وجلسنا كلنا في حالة من الحزن الشديد.

كان ذلك شهر فبراير، هذا ما أتذكره منه. حزن، يأس، سواد، قهر، لم ينته إلا بعد كوارث متتالية، حالة من الحداد العام، لم نجتمع سويا، لم نذهب كثيرا إلى المقهى، فلم يكن أحدا في حالة ذهنية تجعلنا نستطيع الكلام كثيرا. حتى جورج كان في حالة من الاكتئاب بعد وفاة البابا شنودة.

فاجأني كابو بأنه قد قرر أن يؤجر شقة صغيرة بالقرب من قصر عابدين، فشقتهم لم تعد تتحمل عددهم بعد طلاق أخته الكبرى وعودتها هي وأبنائها إلى المنزل. كان كابو هو العائل لأسرته، لذا كان يعمل في شركات الكول سنتر منذ الجامعة، مرتبه كان يكفي أن يؤجر شقة صغيرة جدا، ولكنها بالقطع كانت حل عظيم لأزمتهم المنزلية. وتحولت شقة كابو الي مخبأنا الجديد، بدلا من المقاهي، كل ثانية يدق الباب لنجد هيثم، جورج، أو حتى بدر، فبالرغم من صمته واكتئابه الشديد إلا أننا كنا نراه من حين لأخر حتى نستمتع سويا بلحظات قليلة لندخن الحشيش، لم يتعد الأمر سيجارتين من حين لآخر نظرا لسوء الأحوال الاقتصادية. مر علينا أغلب مارس على ذلك الوضع، لم

يتخلل مارس سوي لحظات قليلة من الابتسامات الخفيفة كلما قررت ملك المرور علينا، فحتى هي كانت تعتبر شقة عابدين ملاذا للفرار من الغابة بالخارج. تحولت حوارتنا من الموت، للدين، للإلحاد، للكرة، للمكياج، للحب. تكلمنا في كل شيء، كانت شقة عابدين بكل تأكيد مخبأ من لا مأوى له.

ثم ذهبت إلى الهايكستب، كلمتني قمر ليلتها لتخفف من مخاوفي، ظنا منها بأنني لن ألتحق بالجيش حيث إن أبي فوق سن المعاش، وأن أخويّ مسافران، ولكن بعد يوم مر كالسنين، كلمت قمر باكيا أشرح لها بأنني لائق عسكريا، بل وأنني لائق كضابط، أي خدمة عسكرية لمدة ثلاثة سنوات، بكائها في التليفون جعل من كلامها شيئا لا أفهمه، لم أفهم كلمة مما قالت، حزنها كان أبلغ من حزني، فأنا كنت في حالة نكران للواقع، كنت أضحك ثم أسكت لأمنع دموعي. فما هو مستقبلي؟ أنا بالفعل متأخر عن كل زملائي والآن مطلوب مني أن أضيع ثلاثة أعوام من عمري لأكمل حياتي ويصرف عليّ عبد الحميد بيه، ماذا أقول له؟ ماذا أقول لقمر؟ أن تنتظرني ثلاث سنوات حتى أبدأ في تكوين مستقبلي؟ هل أجعلها تنتظر وهي بالفعل تكبرني؟ ماذا بي أن أفعل سوى أن أنتحر؟ انتظرت شهرين أن أسمع ضحكة من قمر المكتئبة، فإذا بي أكون سببا جديدا لبكائها واكتئابها؟ مشيت كثيرا بعد وصولي إلي رمسيس عائدا من الهايكستب، لم أجد في نفسي القدرة على استيعاب أي شيء، وجدت قدميّ تقودني إلى شقة عابدين، وقفت تحتها أنظر إلى السماء، ماذا يمكن أن يحدث لي أسوأ من ذلك؟ أنا بالقطع فاشل كما

يقول عبد الحميد، فاشل، ولكن لائق عسكريا! ثم صدمني هيثم أثناء نزوله، أخذته المفاجأة هو الأخر، لكنه أخذ يربت على كتفي ويؤكد لي أنه سيحاول أن يري إذا كان هناك أحد يستطيع مساعدتنا، فبالرغم من أنه يكره التجنيد والجيش ألا أنه سيحاول بأقصى ما يملك من مصادر وأصدقاء أن يصل إلى حل.

- يخربيت فقرك.. يا ابني أنت عيل فقر من يومك! أنا مش فاهم أنت الحاج عبحميد كان خلفك ليه أصلا...

قالها كابو وهو ينفث دخان الحشيش بكثافة في وجهي، كان يبدو كالغول بلحيته السوداء وأسنانه الصفراء بين سحب الدخان التي عبأت المكان، كان هيثم وبدر هناك قبل أن أصل إليهم، لم أهتم بأن ملك كانت هناك لكنها انصرفت في ريبة أول ما رأتني، لم أصدق أن كابو كان يضحك وأنا في قمة تعاستي، بل أنه أبدى استيائه فقط لأنني سألته ماذا أفعل مع قمر.. لم يدم كثيرا ضحكه بعدها:

- ما تسيبها ... بص.. هي البت قمر واحنا عارفين أنك بتموت فيها.. بس يا ابن الحلال ما تولع قمر، أنت أصلا فيك اللي مكفيك، أنت رايح لعرين الأسد برجلك! أنت بتفكر في قمر ازاي؟ ومش بتفكر في أنك هتتنفخ على الثورة اللي انت عملتها؟

أثارني كلامه فقفزت أسب له وتركته وتوجهت إلى منزلي، لم أسمع صوت أمي وهي تناديني، ولكنني سمعت فيما بعد صوت صراخ أبي لأفتح الباب لاعنا اليوم الذي ولدت فيه لأنه كان يكره أن أقفل الباب

بالمفتاح، سألني ماذا أنا فاعل في حالة تجنيدي كضابط، وأخذ يعدد مزايا تجنيدي كضابط عن أن كوني عسكري في الخدمة، لكنني من غضبي لعنت البلد، لعنت كل شئ ، حظي و حياتي ، لعنت أنني الفاشل، المفلس في تلك العائلة، بأنني لا ظهر لي ولا سند في هذه الدنيا، لعنت كل شئ لدرجة أني سألته لماذا أنجبني؟ بكائي مع صراخي جعلوني أبدو كطفل صغير، وبعد أن استجمعت شيئا من نفسي قلت لأمي أنني لا أهتم بما سيحدث، على الأقل في الجيش سأعيش كرجل بدلا من كوني فاشلا في هذه الدنيا. مع خروج والدي، وجدت أمي تجلس على السرير وهي ترتبه وتقول:

- اسمها ايه؟

لم استغرب أنها كانت تعرف، فبالقطع هي تشعر بي، فهي الوحيدة التي اعتبرها مدللتي الحقيقة، فحتى قمر لم تدللني مثلها، كانت أمي قد سألتني مسبقا عن القميص والساعة وكانت تسكت حينما لا أقول من اعطاني إياهم، حكيت لها عن قمر، فسكتت برهة ثم قالت:

- بس دي أكبر منك؟ أنت متأكد أنها هتستناك؟ هي أكيد لو بتحبك هتستناك... أنت عندك شك؟

لم أكن أشك أبدا في قمر، ولكن ضميري كان يؤنبني. خرجت أمي بعد أن هدأت لتعد لي العشاء، التفت لأجد رسالة من قمر علي فيسبوك، أرسلت لي ثلاث كلمات:

- لازم تقابل بابا!

الفصل الثالث
اليأس خيانة...!!

أعلنت اللجنة العليا للانتخابات استبعاد حازم أبو اسماعيل وخيرت الشاطر وعمر سليمان، فقامت قيامة أنور وأصدقائه، هلل كابو فرحا، أما هيثم فكان يؤكد أن هذه حركة مخابراتية من قبل عمر سليمان لاستبعاد الأخرين معه، أما أنا، فلم يفرق معي أي شيء سوي قرار استبعادي أنا شخصيا من الحياة في حال قررت اللجنة العليا لقمر بأن يتم استبعادها من حياتي. كان قلبي يخفق بشدة من الرعب أثناء توجهي للقاء والدها، جعلتني مجنونا مثلها، لا أفكر سوي في أنها لن تكون ملكا لأحد سواي، كيف؟ لا أعرف، ولكني لن أتركها بسهولة، حتى لو تطلب الأمر أن أقابل والدها الذي أصر على لقائي بعدما دخلت قمر في حالة اكتئاب حال علمها بدخولي إلي الجيش لمدة ثلاث سنوات.

كان لطيفا معي على عكس تخيلي، فخورا بنا، يرانا أبطالا لأننا شاركنا في الثورة. كان يشرح لي احترامه الشديد لأهالي منطقة عابدين لأنه قد رأي كيف كانوا يفتحون بيوتهم بكل ترحاب أيام الثورة الثمانية عشر. ولكنه أخذ يحذرني ويشرح لي نظرياته السياسية بحكم وظيفته أن محاولة استقطاب الشباب للعمل ضد الدولة من قبل جهات عديدة لا تعني فقط أن هذه الجهات هي جهات سيادية تعمل من أجل الثورة المضادة،

بل لأن ذلك استقطاب إسلامي التوجه، حربا خفية للعمل علي فتح مجالا واسعا أمام الإسلاميين للقفز على الأحزاب السياسية المهلهلة تماما مثلما ركبوا ثورة الشباب. كلامه عن السياسية معي جعلني أشعر بأنه ليس مستاءا من أنني أحب ابنته إطلاقا، لم يكن حادا معي، ولكنه أرسل رسائل خفية في حواره معي مثل:

"حالة قمر النفسية بعد موت عمها واللي حصل مع الألتراس ميخلنيش أبدا أقف قدام رغبتها.. "

"احنا بنحاول نشوف إيه اللي ممكن نعمله علشان نقلل مدة خدمتك عن ثلاث سنين... ولو مش كدة يبقي نشوف أنك تبقي في منطقة قريبة علشان لو عايز تشتغل بعد الظهر.. "

"أنا مقدرش أوعدك، بس أنا فعلا هسأل لو فيه حد من زمايلي يعرف حد... أهم حاجة أنك تخلص مدتك علي خير وإياك أن تتكلم في السياسة هناك.."

كل رسائله كانت تعني أنه لا يفكر سوي في سعادة ابنته الوحيدة المدللة، وإن كانت قمر ليست بالمدللة في رأيي، فهي ذات رأي محدد، مثقفة، يعتمد عليها، ثورية، كاتبة رائعة، متفوقة في عملها حيث كانت قد ترقت بعد ستة أشهر فقط، إذ أنها كانت في منصب جيد حتى قبل تعيينها في تلك الشركة. شعرت لوهلة أنني أعرف ابنته أكثر منه، فهي تحبني وهي تدرك مخاطر حب شاب يصغرها في السن متأخر دراسيا، أو هكذا كنت أحسب، هي تريد أن تحارب الوجود لتقف بجانبي أو

كما كانت تقول:

- احنا نعمل زي ما كانوا بيقولوا في فيلم الأيدي الناعمة، احنا بيتنا هيبقي طوبة ذهب وطوبة فضة من العلم والعمل.

ابتسمت وأنا أنظر لوالدها، فهي تشبهه في بعض الاشياء كعيناه، حركة يده، ابتسامته الخفيفة، إلا أن شعره كان فاتح اللون على عكس تخيلي.

مع انتهاء لقائي مع الدكتور علم الدين، علمت جيدا لماذا أحب قمر، فهي بنت عائلة رائعة الخلق، حتى أخوها طارق الطالب في السنة الثانية في كلية العلوم السياسية مثل والده، كان ثوريا، ولكنه كان متفوقا دراسيا. هدأت تماما ولم يعد همي سوي أن أجد واسطة لتخرجني من تلك المصيبة، أو تقلل من وطأتها، فبالطبع إذا تم تجنيدي كعسكري لمدة سنة واحدة هو أهون كثيرا من ثلاث سنوات كضابط احتياط. قضيت أغلب أيامي بعد ذلك في شقة كابو صباحا استمع للأغاني وألعب على الكمبيوتر حتى وصول كابو من عمله لنأكل سويا حتى يتوافد علينا الشباب. في بعض الأحيان كان بدر يأتي بعد محاضراته ليلعب معي أو نتحدث عن أخر الأخبار، ولكن بدر صار رجلا مختلفا، ذو عقلية مختلفة، كان يحب الكرة، ولكنه كان يسألني دوما عن أخر الألعاب الاستراتيجية، وعن رأيي في فيلم فانديتا، كان يلح على كابو أن يسأل صديقه ليشتري له عدة ماسكات أصلية، لم أفهم أبدا سبب اهتمامه إلا لاحقا.

في أحد الأيام رن هاتفي، كان اتصالا من قمر، لكنها لم ترد، وكأن موبايلها قد أتصل بي بالخطأ وهو في حقيبتها. سمعتها تتحدث مع شاب في العمل، أخذت أنادي عليها لكنها لم تسمعني، وكنت على وشك إغلاق الخط، إلا أن فضولي جعلني أركز في الاستماع للحوار، كانا يتكلمان عن شخص أخر يجداه مضحكا في الاجتماعات ثم سمعتها تقول:

– أنت مجتش معانا ليه أخر مرة رحنا الزمالك؟ ما هو علي كان هناك وسالي جت بردوا؟

لم أستمع لبقية الحوار. أغلقت الهاتف ورميته ليخبط في الحائط، لم تقل لي أبدا أنها تخرج مع شباب، ومن هذا الذي كانت تكلمه. قمت من مكاني وأعدت الاتصال بها، واجهتها، لم تكذب وقالت:

– ما أنت عارف أني بخرج مع الناس بتوع الشغل... بنات ولا ولاد تفرق في إيه؟ أنا مش بعمل حاجة غلط.. أنا كده كده بحبك أنت، فبطّل بقي غيرة ملهاش معني!

كانت تلك المرة هي المرة الأولى التي أحتد فيها صوتها عليّ، بالطبع هذه المرة لم أقبل ردها، فمن حقي أن أغير عليها، خاصة وأنني سأكون في الجيش وأبتعد عنها لفترات طويلة، وقد يتقرب إليها أي من هؤلاء الذين يعملون معها وساعتها سيكون الدكتور علم الدين سعيدا بأن تتزوج ابنته شابا من هؤلاء الذين يخرجون في الزمالك، وليس في عابدين. ومع إحساسي بالضيق الشديد، وجدت تليفونا من هيثم، كان

يتكلم بسرعة غريبة:

- بقولك إيه؟ قول لي إيه حوارات جيشك ورقمك وكلامك ده... معايا واحد صحفي يعرف حد ممكن يتوسطلك... قول يا إبني إنجز بقي!

خفق قلبي سريعا وقلت له كل معلوماتي، فقفل معي مؤكدا أنه سيحاول أن يحصل على نتيجة في أقرب وقت، وبالفعل لم يمض سوي يومين حتى جاءنا الخبر اليقين... عسكري زياد عبد الحميد العلايلي. لم أكن قلقا سوي من الفترة الأولي حيث أخافني منها الكثيرون من أصدقاء الجامعة، ولكن الجميع أكدوا لي بأنها ستكون قصيرة المدة لأن الموقف بعد الثورة قد تغير شيئا ما. ثم أكد لي هيثم بعدها بأن هذا الشخص سيحاول أن يكون تجنيدي في منطقة قريبة بمواعيد معقولة. كان قد تبقى من الزمن أسبوع على الموعد المحتوم، فقررت قمر أن نخرج معا بشكل مكثف حتى أشبع من حبها بما يكفيني طوال مدة مركز التدريب. لم أهتم بالمصاريف لأن الحاجة ناهد كانت قد قررت أن تفك الكيس وتعطيني القليل من المال لأفرّج عن نفسي قبل تسليم نفسي. خرجت مرتين مع قمر بعد عملها. ذهبنا إلى مطاعم على النيل، ولكنها أصرت أنها ستأخذ إجازة يوما كاملا قبل دخولي الي الجيش بيومين دون علم أحد وأننا سنقضيه نتنزه في القاهرة كحفل وداع لي. ساورتني نفسي، فتلك الفتاة هي كالهواء بالنسبة لي، استنشق عطرها ليتسرب إلى شرايين قلبي مباشرة دون توقف، فكلمتها في صباح ذلك

اليوم وطلبت منها مقابلتي أمام قصر عابدين، تماما مثل لقاءنا الأول، وهناك وجدتها تمشي تجاهي تلبس كعبها العالي مرة أخري ضاحكة، ثم قالت لي والشمس تنعكس على عينيها:

– أنا جايبة باليرينا والله معايا في الشنطة علشان أنا معرفتش ألبس إيه ولا احنا أصلا هنعمل إيه.

ثم ضحكت وهزت كتفها بخفة قائلة:

– وبعدين ما أنا بلبس كعب علشان أبقي طولك... أنت صحيح مش طويل قوي، بس بحب أبقي طولك.

لم أفكر كثيرا فهمست في أذنها بشيء لم أصدق أني قلته، ولم أصدق أنها طاوعتني وهزت رأسها بالموافقة، مشيت وحدي تجاه القصر، حتى وصلت إلى مدخل العمارة حيث شقة كابو، لم أكن أعرف من هناك، ولكنني لم أتردد في أدخل إلى المدخل، حيث تبعتني وحدها حتى لا يرانا أحد ندخل سويا، وأول ما دخلت مدخل العمارة وأغلقت باب العمارة، لم أفكر كثيرا ودفعتها إلى الحائط لأقبلها قبلة دامت عدة دقائق، لم أتوقف إلا حينما سمعنا صوت شخصا ينزل علي السلم، فجرينا خارج العمارة متجهين ثانيا إلي القصر. كانت تضحك تنظر إليّ نظرة فيها نوع من السعادة لأننا فعلنا شيئا مجنونا تماما، ثم نظرت إليّ وقالت:

– ويا تري كم واحدة بقي طلعت شقة سي كابو؟ أنا مطلعش شقة إلا لو شقة سي زياد ... صح يا سي زياد؟

فهمت قصدها، ولم ألمها، بل ضحكت قائلا:

– طيب يلا بينا يا اللي مجناني، تعالي نروح الهرم، إلبسي بس البالرينا وفكك من الكعب ده.

لا أستطيع أن اشرح كم المعاناة في مركز التدريب، وكم كانت تلك الذكري في مدخل عمارة عابدين هي الشئ الوحيد هناك. كان الجو حارا صباحا، وفي غاية البرودة ليلا، طوابير في عز النهار، تنظيف الغرف القذرة كل يوم، تلميع البيادات، أكل يصعب بلعه، شعور أغلب ذوي المؤهلات العليا بالإهانة الحقيقة لأننا لم نعامل هكذا من قبل، فحتي قسوة الحاج الوالد الاستاذ عبد الحميد كانت كالدلع والغزل الرقيق بجانب تلك المعاملة الجافة.

أصابني المرض، ضربة شمس يا فندم، طرحتني الفراش يومين أهلوس هلاوس سمعية وبصرية ، كانت بطلتها قمر، قال لي أسامة زميل الكفاح في مركز التدريب، خريج كلية تجارة عين شمس، أنني كنت أناجي القمر ليلا ونهارا حتي أنهم تخيلوا أنني أنادي علي القمر لأنني مصاص دماء أعشق الليل، لم أقل من هي قمر، ولم أنطق إلا باسمها في الهلاوس، أما هلاوسي فكانت تدور حول ملمس شفتيها في مدخل عمارة كابو.

مرت الأيام الاولي كالسنين، ومع أول زيارة جاءت الحاجة ناهد وحدها مع كابو وجورج، وما إن رأتني حتى عرفت بمرضي من أول وهلة، ثم قالت لي في صوت خافت:

- البت قمر فلقاني من الصبح مكالمات عايزة تسمع صوتك، طمنها يا إبني وخلصني من وجع القلب.

خطفت الموبايل من يدها لأتصل بها، كان قلبي يخفق بشدة، فرؤية أمي وسماع صوت قمر كانا كافيين لإعادة الحياة اليّ ولو قليلا.

- وحشتني يا ابن اللذين ... ها بقي.. عملوا فيك إيه؟

ضحكت بشدة، كنت أعرف أنها ستقول شيئا لتضحكني، ولكنني همست:

- أنا بحبك أوي كدة إزاي؟ فهميني أنت عملت لي عمل وإلا إيه؟

- أنا سحرتلك، أنت عارف أنا كنت هموت من الزعل؟ أسبوعين مسمعش صوتك... ليه هو احنا كفرة يا سعادة البيه؟

- آه كفرة، بس أنا بعشقك يا بت أنت! أنا تعبان قوي يا قمر..

سكتت وسمعتها تكتم دموعها، ثم ضحكت وقالت:

- لا يا حبيبي، أنت قدها وقدود، جدك الله يرحمه هو اللي بني الهرم! إحنا الفراعنة جامدين قوي.. وأنت عارفني أنا بعشقك يا فرعوني الصغير!

مهما حاولت لتخفف عني، كان قلبي يتقطع كلما شعرت بأن الوقت يجري وبأنني لم اطمئن على بقية الشباب من كابو، اضطررت أن أنهي مكالمتي معها بعد أن وعدتها أنني سأطمئنها عليّ ولو من خلال أمي،

وأيضا لأنها كانت في طريقها للعمل وتحدثني من أتوبيس العمل، ولم أحب أن يسمع حوارها زملاء الطريق. قمت أحتضن كابو بشدة، كنت كالقزم بجانب عملاق بعدما فقدت وزنا في الأسبوعين الأخيرين، شعر كابو من حضني كم معاناتي، فأخذ يمزح ليضحكني بأنني أصبحت أشبه بكار لأن الشمس قد لفحت بشرتي، أما أمي فضحكت وقالت له:

- فشر أنا إبني زي القمر حتى وهو حالق زلبطة وشبه النسناس.

ثلاثين يوما مروا، من قلة النوم، من طوابير صباحية بالست ساعات، إلى ضرب نار، وتنظيف مستمر، وخدمة ليلية. ومرت الزيارات بين نكات كابو وبدر وهيثم، ومكالمات قمر، وساندويتشات الحاجة ناهد، ومرة واحدة زيارة من الاستاذ عبد الحميد ومكالمة من هاني وأخري من تامر، كنت واثقا أنها بعد إلحاح مستميت من أمي على أبنائها للسؤال عن أخيهم المرمي في الخدمة العسكرية وكأنه سجين يتبرأون منه.

واسطة هيثم استطاعت أن تنقل تجنيدي إلى منطقة قريبة من المعادي الجديدة، كنت أخرج إجازة يومين كل أسبوع، أصبح بإمكاني استخدام الموبايل وإن كان قليلا. افتقدت صديقي أسامة، ولكن ظل معي شريف زميلي في مركز التدريب حيث تم توزيعه في نفس الوحدة معي. كان شريف خريج حقوق القاهرة، ومع الوقت اكتشفت أنه يعرف الاستاذ أبو العلا بدرالدين وكان يحترمني بشدة لمعرفته أنني أعرفه، فسمعة أبو هيثم كانت تسبقه دائما.

كان الخلاف الرئاسي قد بدأ، وكانت الجولة الأولى للانتخابات، لم

يحق لي التصويت لكنني اكتشفت أن كابو كان يميل للتصويت لحمدين صباحي، أما عطية فكان يحاول إقناعنا بعبدالمنعم أبو الفتوح حيث كان يشارك في الحملة الرئاسية له. أما جورج فلم يتردد قط في اختياره لعمرو موسي... أما قمر فكانت محتارة كبقية الشعب، لا تثق في أي منهم. الأمر المستغرب أن أنور قد تحول من دعم حازم ابو اسماعيل إلي دعم محمد مرسي مرشح الإخوان، جاء ذلك بعد حضوره اعتصام العباسية والأحداث التي تبعته. أما الاخوين بدرالدين وهيثم فلم يترددا في دعم حمدين صباحي. ظلت قمر حائرة حتى قررت أن تنتخب حمدين صباحي هي الأخرى، وكانت تحاول أن تبث الدعاية له على الفيسبوك.

بعد ظهور نتيجة الانتخابات، اختلف الوضع، كنت وقتها في الوحدة، ولم أكن أستطع الكلام في التليفون، ثم في آخر الليل استطعت أن أفتح الموبايل خلسة لأجد رسالة من هيثم يقول لي أنه يريد أن يتأكد إذا ما كانت الوحدات العسكرية تقوم بإقناع المجندين بانتخاب أحمد شفيق كما كان يتردد. لم أجبه لأنني لم أرد الدخول في مشاكل ببث أية أخبار حتى ولو كانت بالنفي، وقمت بمسح الرسالة على الفور. ثم حاولت ارسال رسالة إلي قمر التي لم ترد عليّ في نفس الوقت كعادتها، كان الوقت متأخرا، وكان دوري في نوباتشية الليل، فوقفت بسلاحي حتى مطلع الفجر. وأخيرا ردت قمر برسالة قصيرة تقول إنها كانت نائمة وأنها تشتاق إليّ.

جاءت اجازتي، وكانت قبل جولة الإعادة للانتخابات الرئاسية

بأربعة أيام. كنت قد أرسلت إلى قمر لأراها بعد عملها، لكنها قالت لي أنها تستطيع أن تقابلني بعد ساعة واحدة في عابدين، استغربت، ولكنني فهمت أنها كانت في اجازة. وقفت أنتظرها ناحية جروبي كما كانت تأمل، ولكن وأنا في طريقي رأيتها تمشي مع هيثم متجهين إلى جروبي، وقفت في ذهول، لم يرانني، هل أذهب إليهم أم أراقبهما يسيران سويا؟ ماذا تفعل؟ لماذا تمشي معه؟ لماذا لم تبلغني؟ ثم وقفا أمام جروبي قليلا ثم سلم عليها هيثم ورحل. وفجأة وجدتها تتصل بي:

- أنت فين يا ابني؟ أنا وصلت؟ هاتسيبني اتعاكس ولا إيه؟

مشيت إليها وهي تتكلم، ولما رأتني ضحكت وأغلقت الخط:

- أنت مجنون؟ أنت وحشتني قوي!

مدت يدها إليّ، لكن رد فعلي كان واضحا بأنني لست سعيدا بالمرة مستغربا لماذا أخذت اجازة من عملها؟ ولماذا لم تبلغني؟ لم تتردد على الاطلاق وردت بكل ثقة:

- ما هو أكيد أنا مش هاأسكت على أن الشعب ينتخب حد من الفلول؟ لازم نقنعهم يعصروا ليمون!

- أنتي نزلت مظاهرات من ورايا؟ أنتي مجنونة؟ بتنزلي مع مين؟

- مع كل الناس.. وطارق... أنا قابلت هيثم وبدر وعطية في كام مظاهرة..

- في كام مظاهرة!! أنتي ازاي متقوليليش؟ هو أنا مت؟ انتي بتكدبي

عليا يا قمر؟

- أنا مش بكدب... أنا مش ها أقلقك عليا وأنت في الجيش.

سكت، لم يعجبني أنها لم تذكر لي أنها قد كانت مع هيثم من ثوان قليلة. لم يكن سكوتي لتقبلي الوضع، بل ببساطة لأنني لم أرد إفساد اجازتي. دخلنا جروبي لنشرب مشروبا باردا، فالشمس كانت ساطعة والجو حارا، ثم أخذت تحكي عن العمل وعن مشاكلها مع أحد زملائها، ظللت ساكتا لأن كل القصص كانت حول رجال، حول شباب، ولم تتطرق إلى مقابلتها لهيثم، لم تنطق باسمه. سألتني عن أخباري وعن سبب سكوتي، لم يكن لدي الكثير لأقوله، كنت قد سئمت من شكاواي المكررة لها من العميد فلان والعقيد علان، عن سهري في الليل، وطوابير النهار. وأنا أتكلم مسكت يدي برقة وقالت:

- أنت اسمريت قوي، بقيت شبه بكار.

لم أضحك، بل هاجمتها وقلت:

- أنت كلمت كابو قريب؟

استغربت وقالت:

- لا!!

ثم سكتت، فسألتها:

- أمّال إيه حكاية بكار اللي كلكم طالعين فيها دي؟

مرت الأيام، وأنتخب الجميع محمد مرسي عدا جورج والاستاذ عبد الحميد، أما كابو فقد أعلن مقاطعته للانتخابات، وعرفت منه أن عطية وأنور أثروا علي هيثم وبدر، وأن حركة هيثم كانت قد تعاملت مع عطية وأصدقائه عبد الرحمن وأخرين وقاموا بنشر دعوات لعصر الليمون، أما بدر فكان يترأس مسيرات الألتراس الصغيرة ليدعو الي عدم انتخاب رموز الفلول. وكانوا كلهم في عجب للغياب التام لشباب الإخوان المسلمين من المسيرات الصغيرة التي كانت تُسب وتُلعن من الشعب في الشوارع، لرفض العديدون انتخاب أية رموز اسلامية. حتى أن هيثم كان قد أصيب في رأسه من حجارة رمت عليهم في مسيرة في مصر الجديدة. كان كابو قد حكي لي أن عطية كان ينزل بشكل مستمر إلى مظاهرات ميدان العباسية متنكرا، ولكننا لم نفهم لماذا يذهب إلى العباسية بشكل مستمر؟

تابعت الأحداث عن بعد، لم أتدخل ولم أعلق سوي في الاجازة، حينما كنا نتقابل في المقهى أو في شقة كابو، وفي أخر اجازة في يوليو ، كنت قد قلت لهم جميعا بما فيهم قمر أنني قد يتم نقلي إلي وحدة جديدة لأن هناك حاجة للجنود في أماكن أخرى ، فضحك هيثم وقال:

– هايرجعوك الثكنات في سيناء ولا إيه يا ولا يا زياد؟ ها تحارب اليهود زي ما كان نفسك طول عمرك؟

ثم جاء رمضان، كان مشقة صيامه تجعل من المسلم يشك في إيمانه أحيانا، ففي هذا الجو الحار، البعد عن لمة العائلة، القلق المبالغ فيه عن

ماذا تفعل قمر في غيابي جعلت الأيام تمر بقسوة شديدة، لم يهون من وطأتها إلا وجود شريف معي. كان كوميديانا من الدرجة الاولي، كانت نكاته سببا في توبيخه كثيرا من العميد قائد الوحدة، ولكنها كانت دائما مضحكة مما تجعله يفلت من العقاب.

كنا نفطر يوما في تلك الوحدة الجديدة التي في مدينة نصر لما أفزعنا صوت صافرة، ثم دعوتنا للطابور عل الفور، أخبرونا عن حدوث مذبحة في رفح، أخذت الاذاعة الداخلية تذيع القرآن، وأقيمت صلاة الغائب، ثم دخلنا جميعا إلى العنابر في صمت كئيب. حتى شريف، كان قلقا بشدة لأن أحد اصدقائه كان قد تم تجنيده قبلنا وكان يقضي خدمته في سيناء، حاولت طوال الليل أن أجعل فكرة أن يكون صديقه أحد الضحايا تزول من عقله، فبدأت أن أحكي له عن قمر، كان شريف على عكس كل أصدقائي يراها فتاة عادية جدا، وأن حبي لها مؤقت سيزول مع الوقت، لم أفهم أن كان رد فعله هذا هو قلق علي صديقه أم كانت هي الحقيقة التي لم أرد الاعتراف بها لنفسي. كانت مخاوفي تساورني، متشككا فيها، أصبحت غيورا لدرجة قد تكون انعكست على وصفي لها أمام شريف، فظننت أن حكمه عليها كان بسبب طريقة حديثي عنها، والتي قد تكون قاسية نظرا لتخوفي من تركها لي.

تمت إقالة طنطاوي وعنان، وبدأت العملية نسر. كنا جميعا في قلق من أنه قد يتم اختيارنا للذهاب إلى سيناء، ولكنني لم أقل يوما الا أن الشيء الوحيد الذي أحببته في الجيش وفي مصر عامة هو أنني قد أحببت

فكرة الحرب، فكرة حمل السلاح والدفاع عن مصر. فقدت اهتمامي بالسياسة الداخلية تماما وما وصلت إليه الاحداث خارج الوحدة، لم أهتم ببوستات أصدقائي وقمر المعارضة للنظام على الفيسبوك، لم أعد أهتم بمن هو الرئيس، أو بما يحدث من جماعته، لم أعد أهتم بالكلام عن أخونة مفاصل الدولة أو غيرها، ففي الوحدة لم يكن يفتح أحد ولو حتى حوارا جانبيا عن السياسة. لم نتجادل كثيرا، سوى أنا وشريف حينما كنا نتجادل في تحليلات قصص الحب، فكان يحكي لي عن مغامراته منذ الإعدادية مع الفتيات، وكيف أن كل الفتيات ما هن إلا نسخ مكررة من بعضهن.

جاء عيد ميلاد قمر الثاني، ولكنني لم أكن اجازة ولم أستطع أن أكون معها في عيد ميلادها، التي كانت قد أخبرتني بأنها ستنظم خروجة مع أصدقائها التي اشترطت أن تكون مكونة من فتيات فقط. كنا قد اختلفنا سويا اختلافا وصل الي نشوب معركة حقيقية بيننا لأنني أرفض خروجها مع شباب من العمل أو الكلية. فاجأتني:

– أمّال هتقول ايه لما أقول لك أني مسافرة أمريكا أسبوعين تبع الشغل مع رجل وولد ثاني من الشغل؟ ولا إيه؟ مش هترضي أني أسافر؟

صمت، فكيف لي أن أقول رأيي وهي تتهكم عليّ بالفعل، تسافر أسبوعين إلى سان فرانسيسكو بدوني، مع شباب يعملون معها في الشركة العالمية!! مهما تكلمت لم تكن لتفهم أنها كانت تجرحني وتشعرني بقلة الحيلة، بل وبالعجز كلما فتحت فمي. كانت خيبة أملها فيّ تتزايد، فما أنا

سوي فاشل غيور، معدوم الثقة في النفس. لم أكن أفهم إذا كان ذلك رأيها فيّ، أم أن هذا هو رأيي في نفسي؟ لم أرد أن أكون عبئا علي عيد ميلادها، فكتمت غضبي، ولذت بالصمت، ماذا كان عليّ أن أفعل غير ذلك؟

احتفلت قمر بعيد ميلادها في أحد الكافيهات الباهظة الثمن، مع عدة فتيات، ولم يحضر شاب واحد، هكذا قالت، وهكذا ما أتضح لي من صورها على الفيسبوك. كانت جميلة في عيد ميلادها وكانت مبتسمة ابتسامة كانت بالنسبة لي بداية لتعودها على أن تعيش بدوني. يمكنها أن تتأقلم مع صديقاتها ممن هم في مستواها الاجتماعي، مع شباب ممن يعملون في كبري الشركات، يتحدثون اللغات الأجنبية بطلاقة، إن لم يكونوا يحملون جنسيات أخري. ولكن مع اجازتي، وقبل سفرها بأربعة أيام، صممت على أن أثبت لها أنني بإمكاني الاحتفال بعيد ميلادها حتى ولو بطريقتي، حتى لو كنت مفلسا لا أملك مليما واحدا. توسلت إلى الحاجة ناهد بأن تعطيني مما كانت تركنه على جنب، فكيف لي ألا أظهر لها قبل سفرها الي الولايات المتحدة أنني قادر علي إسعادها أكثر من صديقاتها ومن حفل عيد ميلادها الذي أقيم لها في الشركة ومن الساعة ذات ماركة شهيرة التي أهدوها إياها. فاتصلت بها وطلبت منها مقابلتي عند قصر عابدين.

مع وصولها، اكتشفت أن حفل الفن ميدان كان مقاما. ابتسمت وجرت علي بالرغم من الجموع الكثيرة في الميدان، فعيناها قد لمحتاني

من بعيد. لم أفهم يوما كيف كانت تراني وسط الزحام دون سواي؟ وكعادتها جاءت بحذائها ذي الكعب العالي، وعطرها الذي وصل إلي أنفي بالرغم من عرق الملايين من الحضور في الحفل.

- دي أحلي حاجة في الدنيا! الفن ميدان؟ الالتراس والشماريخ.. وأنا وأنت!

كانت تعرف كيف تخطف قلبي، فتلمع عيناي، وأنسي أي شيء كان قد أثار اعصابي من قبل.

- بحبك حب رهيب غريب لا يوصف..

ابتسمت، وقلت لها أنها محتالة من الدرجة الاولي، فهي تحرف كلمات أغنية للكينج كي تستفزني، كانت تقصد: صبرت صبر غريب رهيب لا يحتمل. طبعا لم ترد ذكر كلمة صبر أمامي، فكلانا يصبر على الآخر، صبرا رهيبا غريبا لا يحتمل. أمسكت يديها وأعطيتها شنطة هدايا صغيرة، لمعت عيناها أكثر، وكأنها طفلة تقفز من سعادتها. أخرجت هديتي لها، سلسلة بها دلاية بأسمها "قمر". نظرتها كانت تكفي لتقول لي أنها أحبتها، ولكنها اكتفت بحمرة وجنتيها وكلمة:

- شكرا جدا بجد!

لا يمكن سماع صوتها بسهولة وسط تلك الجموع، كانت ترفض أن ترفع صوتها وكانت تكتفي بنظرات تشعل قلبي، تجعلني أتنهد لأنفث دخان سيجارتي ممزوجا بحرارة العشق. جلسنا على الحشائش أقصي

يسار المسرح. وكنت قد أحضرت سجادة صغيرة لمعرفتي بأنها ستصمم على أن تجلس على الأرض، وحاجة ساقعة تشربها. كانت تلك قمة سعادتها. وفجأة جاء بدر:

- إيه يا عم.. إزيك يا قمر؟ مش عايزين تيجوا قدام مع الألتراس، ممكن أدخلكم؟

هززت رأسي بالرفض، وغمزت له كي يفهم أنني أرفض وجوده ببساطة، فألقي السلام ومشي. ثم رن تليفوني، كان كابو، فكنت قد اتفقت معه للقائنا هو وملك. سألني أين نجلس وإذا ما كنا قد رأينا هيثم؟ عندما سمعت اسمه، انتابتني حالة من الغضب وصرخت في كابو رافضا أن يأتي، ثم وجهته لمكاننا. لم تسمع قمر المكالمة، ولكنها كانت تعرف بأنهم سيلحقون بنا. ملت عليها وسألتها إن كانت تحتاج إلى شيء. فهزت رأسها نفيا، ثم اقتربت مني وقالت:

- هو الريحة دي إيه؟ حشيش؟

سكت لأنها فعلا كانت رائحة حشيش، ولكني لم أنتبه إلى أنها ستلاحظها. فقررت الوقوف وكانت مصرة على تغيير المكان، فوقفت وحملت السجادة وطلبت منها ألا نبتعد حتى يصل كابو. كانت مستاءة ممن كانوا حولنا.

- يعني إيه حشيش؟ ويعني إيه البنات بتسلم على الولاد ويبوسوا بعض في وسط الميدان؟ فاهم قصدي؟ ما طبيعي يتقال علينا فرافير، ومنتخدش جد؟ وطبيعي قوي أن الاخوان يقولوا علينا كفرة والشعب

يقولوا علينا شوية صيع.

فاجأتني أنها تتكلم في السياسة، ولكن توقف تفكيري فجأة عند سؤال سألته لها، ألا تقبلين الشباب من جامعتك أو العمل؟ أو حتى حينما تسافرين؟ تحول وجهها إلى وجه غاضب، وتحول كلامها الي لغة شديدة اللهجة:

- أنت ازاي بتفكر كدة؟ ما أنت شوفتني مع كل الناس؟ وشوفت طريقتي؟ ولا أنت قصدك إيه؟ ويعني إيه أبوس الناس لما أسافر؟ أنت قصدك إيه؟ مش هتبطل تلقيح كلام بقي يا زياد بجد؟ كلامك بقي كل شوية جارح أكثر من اليوم اللي قبله.

لم تكمل حديثها الغاضب، فقد كان كابو وملك يقتربان منا، فصمتت وعيناها مليئتان بدموع المحبوسة. فهمت قصدها، كانت تلمح إلى قبلتنا وبأنني أعايرها بها. سلمنا عليهما وبدأنا نبحث عن مكان آخر، وفكرت أن أتصل ببدر لنقف مع الألتراس، ولكننا وجدنا مكانا قريبا إلى يمين المنصة. جلسنا وظلت صامتة غاضبة. حاولت أن أجر شكلها في الاستراحة، ولكنها لم تستجب. ثم وجدت عيناها تنظران إلى كابو وملك اللذان قد بدآ في المغازلة الصريحة، فلم تصمد قمر طويلا، وقفزت من مكانها، فهمت، ولكني كنت قد مللت شروطها. أردت فعلا أن تنسجم وتركز معي بدلا من تركيزها في أي شيء آخر. فمشينا قليلا بعيدا عن المنصة كي نتكلم، وإذا بي أهب فيها كالرياح العاصفة لألومها على كل شيء، فهي لا تفكر فيّ، ولا في أحاسيسي، ولا في أنني

نادرا ما أستطيع الخروج، وأنها تجعل من اجازتي عذابا، وتجعلني أشعر بالغيرة في بعدي وأنا في الوحدة. وقفت ألقنها درسا في أنها لا تهتم بي، لا تهتم سوي بالثورة، والبوستات الثورية، وعملها، والسفر، لا تهتم بي أنا. وحتى قبلتنا، لا تهتم بها، لأنها تهتم فقط بشكلها وسمعتها أمامي لأنني قبلتها. سيلا من الكلام لم يتوقف، وقفت كالجبل لا تنظر إليّ، والدموع تملأ عينيها. ولما توقفت عن الكلام، التفتت إلي وقالت:

- أنا ماشية... أشوف وشك علي خير.

تجاهلها لكل ما قلته جعلني أقف في دهشة وأنا لا أستوعب أنها انصرفت. لم تحترم حتى وجودي وأنني ملزم بتوصيلها. لم تهتم، لم تفهم سبب غضبي، لم تفهم غيرتي. سافرت، وليلة سفرها أرسلت إليّ رسالة بعد تجاهل تام لرسائلي الغاضبة لها:

"أنا فعلا مش عايزة اتخانق، لما أرجع نبقي نتكلم علشان أنت شكل الجيش غيرك. لا إله الا الله"...

حاولت الاتصال بها، أرسلت رسائل عديدة على الفيسبوك، كانت ردودها قصيرة تؤكد أنها بخير، وفي نفس اللحظة امتلأ حسابها بصورها في سان فرانسيسكو. كانت صورة البروفايل في قمة الجمال، كان وجهها كالقمر المضيء وهي تقف على حافة جبل لتمثل بأنها تقع أمام كوبري سان فرانسيسكو الشهير. وبالرغم من ردودها القصيرة، كنت على الأقل اطمئن منها أنها بخير. ولكنني بلغت قمة غضبي في ذات ليلة، كنت اجازة لليلة واحدة، اتقلب في سريري من كثرة التفكير

فيها وفيما يمكن أن تكون تفعله في أمريكا مع الشباب، الغيرة كانت قاتلة، وكأنها تحولت إلى حشرات تمشي في عروقي تجعل من السرير أرضا مليئة بالحشرات، أو كما كنت أقول لها " صراصير في دماغي". أخذت الموبايل واتصلت، مرة، مرتين، عشرة، ولما ردت صرخت فيها:

- أنت إيه؟ مبتحسيش؟

- أنا عيانة يا زياد.. أكلت أكل هندي امبارح وصاحية برجع وبطني جعاني..

- أنت مش بتقولي ليه طيب؟

- زياد، ارحمني يا زياد، بجد أنا مش قادرة أتخانق، أنا سخنة وعيانة وبموت..

- قمر، أنت بطلت تحبيني؟

- بس يا زياد بقي

- حلوة أمريكا؟ حلوة حياتك من غيري؟

- بقول لك عيانة!

- فات عشرة أيام، وده بس اللي بتقوليه؟ مش قادرة تكلميني علشان فرق التوقيت؟ مش عارفة تسهري علشاني؟ مش عارفة تكلميني تحكيلي كل يوم بتعملي إيه؟ للدرجة دي خايفة لأحسدك؟ هو أنت إزاي كدة؟ إزاي فجأة أخدت بالك إني منفعكيش؟ إني زبالة اوي

قدام صحابك بتوع الزمالك والمعادي؟ إزاي بتحبي واحد معاهوش فلوس تكفيه يسافر معاك أمريكا علشان ياخد باله منك وأنت مسافرة؟ إزاي أصلا تسافري من غيري؟

– انت محشش يا زياد؟

– محشش؟

– أصل الصراصير زادت في مخك قوي، وأنا أتعب من أني أتكلم في حاجات زي دي دلوقتي، فاضل يومين وراجعة.. شيل كل ده لحد ما ارجع.

– صراصير في مخي؟ هو ده اللي انتي شايفاه؟ بقول لك إيه يا بنت الحلال؟؟ أنا ها أريحك خالص من الصراصير.. مش هكلمك ثاني يا قمر، أنا فقدت الأمل في أنك تحسي بيا..

– فقدت الأمل؟

– ده بس اللي سمعتيه من كلامي؟

– أنا هقفل يا زياد علشان أنا لازم أروح الحمام، وممكن تهدي بقي لحد ما ارجع؟ لازم بجد أجري على الحمام.. سلام..

تماما كما وضع مرسي نهاية لعهده بأولي بشائره بمحاولته إقالة النائب العام في أكتوبر، رجعت قمر لتكون بداية النهاية، مقابلتنا كانت لابد أن تكون ذات طبيعة خاصة، كان يجب علينا التواجد في مكان حيث يمكننا الصراخ دون أن يسمعنا أحد. حاولت عرض فكرة أن نتقابل في

شقة عابدين ألا أنها رفضت رفضا باتا، بالرغم من أنها كانت من أجل أن نكون على راحتنا في المواجهة للوصول إلى حل مصير علاقتنا التي صارت مهددة. أصرت على المقابلة في حديقة الأزهر، على أمل أن نكون في منطقة فسيحة يمكننا أن نواجه بعضنا. وقفنا ورفضت الجلوس في إحدى الحدائق المطلة على القلعة. بدأت كعادتي في الهجوم على ارتدائها الكعب بالرغم من معرفتها بأننا بالقطع سنمشي بداخل الحديقة، لكنها لم تهتم أيضا كعادتها. ظننت بأنها ستفاجئني باعتذار مصحوب برشوة أمريكية الصنع كي تهدئ من الأمور، لكن لصدمتي، كانت هي من تنتظر مني الاعتذار. خلافنا كان ممزوجا بالصراخ، لم تصدق كلمة مما قلته لها، وأخذت تعترض على أني تحدثت معها بتلك الطريقة بالرغم من مرضها، وبأنها كانت وحيدة في الغربة، أخذت تصب غضبها علي أنني هددت بتركها وهي مسافرة. وأن علاقتنا كانت لتنتهي لمجرد صراصير في مخي، الكلمة التي أصرت على ترديدها مما أثار غضبي، فأنا بالرغم من دقة الوصف، ألا أنها لم تفهم كلمة مما قلت عن سبب تواجد تلك الصراصير.

- أنت غيران من أي حد؟ أنت ليه مش واخد بالك أني اخترتك أنت، ومش مهتمة بحد غيرك؟ ليه مش عايز تفهم أن شغلي في شركة كبيرة هو لمصلحتنا؟ ياما حاولت أفهمك أني لازم أثبت نفسي في الشركة دي علشان أحوش فلوس علشانا... علشان أضمن أنك تقدم فيها بعد الجيش، ليه شايف أني أنانية مع أني مش بفكر غير فينا؟ ده أنا بروح كل يوم مشوار محدش يستحمله، لو أنا دلوعة وفرفورة زي

ما أنت شايف كنت سيبت الشغل من زمان، كنت قلت ملوش لازمة الشحططة، لازم يعني أقول لك الكلام ده علشان تفهمه؟ ماينفعش كنت تفهمه لوحدك بدل ما أقوله ويضايقك؟

– كويس أنك عارفة أنه يضايق! أنت بتفكري تشغليني، وتأكليني، وتصرفي عليّ. يا ستي هو أنا طلبت ده منك؟ طيب قسما برب العزة، أقسم بالله العظيم لو دي آخر شركة في الدنيا ما ها اشتغل فيها عندا فيك، أنت بتفكري لي ولاغية شخصيتي؟ أنا الرجل؟ أنا اللي المفروض أفكر في حياتنا.

– وفكرت؟

كانت الشمس ساطعة، والصمت رهيب، كلمة واحدة جعلت روحي تخرج من جسدي لتحلق فترانا واقفين ننظر لبعضنا بحذر. لمعت عيناها في فضول لمعرفة إجابتي، ثم أومأت برأسها لأنها تعرف الإجابة مسبقا: لم أفكر.

– عارف أنا مهتمة بالثورة ليه؟ عارف أنا شاغلة نفسي بقضايا الثورة لحد دلوقتي ليه؟ عارف أنا ليه مخنوقة من أنهم سابوا المتهمين في موقعة الجمل يخرجوا براءة؟ عارف أنا ليه متابعة مؤتمر الزند والقضاة ضد مرسي؟ عارف أنا ليه مهتمة بالثورة أكثر منك زي ما بتقول؟ لأن ببساطة حبنا هو الثورة، لازم يفضل مستمر... لازم أفضل أحاول، لازم أفضل متحمسة علشان أكمل، علشان ثورتنا تنجح، لازم ننزل نكرم الشهداء، لازم نحاكم اللي قتلوهم، لازم نفضل واقفين لكل

رئيس زي الشوكة في الزور، عمرنا ما هنرجع للوراء. لازم نفضل نحاول، لازم ننزل محمد محمود نفكرهم باللي حصل، لازم نجيب حق جيكا، لازم! لازم ثورتنا تستمر ... لازم ما نيأسش... علشان زي ما بنقول: اليأس خيانة. وأنت صراصيرك يائسة... وأنا زهقت يا زياد... أنا زهقت! أنا مستنياك ومستحملة ظروفك، وبحبك، وبفكر في إيه ممكن نعمله علشان حبنا يكمل.. علشان تقف قدام أبوك عبد الحميد وتقول له أنا بحب قمر وعايز اتجوزها. ولا صحيح ... أنت فقدت الأمل؟

لأول مرة في حياتي، طلبت من المقدم أحمد الطيب ألا أنزل الاجازة وأن أستبدلها بأيام أخري، مر نوفمبر عليّ وأنا في حالة من التفكير، تسرح الصراصير على سريري كل ليلة، تسرح إلى عقلي بعد أن أطلقتها قمر في ذهني حرة طليقة، بل وبدأت تسرح في قلبي. هل تحبني؟ هل تراني رجلا؟ هل تشفق عليّ؟ هل يمكنني أن أرجع كما كنت؟ زياد المرح؟ زياد خفيف الظل؟ حبها يتحول ليلا إلى صراصير تأكلني، حبها كالتجنيد، هدفه الانتماء للوطن وحبه، ولكنه قاس، قاتل لحبك، لشخصك. كنت أنظر في المرآة لأجد شخصا لا أعرفه، شخصا مقززا في نظري، أسمر اللون، أصلع، نحيل الجسد، يبدو فقيرا، لا نور له ولا شعاع. ليس بجمالها، ليس بأناقتها، ليس بنجاحها، ليس بصراحتها، ليس بفكرها. حتى غيرتي عليها من هيثم ومن غيره كانت لأنني أعرف جيدا بأنها تستحق شخصا أكثر ثقافة، أكثر نضوجا مني. كلامنا كان قصيرا، أغلبه سؤالا واحدا: في ماذا أفكر؟ هل فكرت في خطة؟ بأنها

ستتوقف عن التفكير لنا إذا ما قدمت لها أي مؤشر بأنني لم أيأس، لكنها لم تعرف في ماذا أفكر، فكل تساؤلي كان: أأتركها؟ ستقول على ندلا كما كنت أخشى في بداية علاقتنا. قالت لي سنقفز سويا من الجبل لنقع في الحب سويا، ستمسك أيادينا بعضها، ولن نترك بعض أبدا. قفزت، ويا ليتني لم أقفز.

ثم بدأت حالة من الهستيريا تصيب كل من قمر وملك وكابو والحاجة ناهد، كلهم يسألونني ماذا أصابني؟ لماذا لا أنزل إجازات؟ كلهم يرسلون رسائل ومكالمات تهاجمني لأنني لا أرد بسهولة، شعرت بإلحاح شديد لم أفهمه في بدايته، حتى قررت يوما زيارة شقة عابدين.

وجدت كل الشلة هناك ألا الشيخ أنور. كلهم كانوا قد بدأوا الليلة مبكرا، كلهم فوق السحاب، يضحكون ضحكات تسمعها من خارج الشقة. اشتهيت الضحك مثلهم، وكنت أرغب بشدة في قتل الصراصير أو على الأقل تخديرها ولو لليلة واحدة بعد انقطاع طويل. جلست وعرفت أنهم كانوا يضحكون على حكايات بدر وهو يحكي عن خرافات اعتقاده بأنه سيكون فانديتا، حامي حمى الميدان. أخذ يهذي كثيرا عن هيئة الدفاع عن الميدان، حراس الميدان، وكيف أنه قد دخل في جدل مع أحدي المنشقين عن الإخوان في خلاف أدي إلى أنه ضربه. كان يسرد أعمالا بطولية لما يقم بها مع من يكتشفون أنه مخبر، أو أخواني. أوقفه هيثم ليذكره بأنه سيتم القبض عليه قريبا، وأن نهايته ستكون علي يد الطرف الثالث. فأخذ عطية يوضح بأنه لا وجود للطرف الثالث.

– بس يا جدعان بقي، أم السياسة، مفيش مغامرات غرامية؟ مقاطع بلوتوث؟

نظروا إلى وكأنني قد جننت، وحاول عطية أن يكسر حدة الموقف:

– وهو احنا لو فيه مغامرات كنا قعدنا مع أشكالكم؟

فضحكوا جميعا حتى وقع جورج من على المخدة التي كان يجلس عليها وقال:

– أنا البت فيفيان فكستلي علشان بتقول لي أنت تخين ... ألا هو أنا تخين؟

وقف بدر ضاحكا يقول:

– والنبي البت فيفيان دي مفقعة ما فيها حاجة... وبعدين دي تحمد الرب أنك بصتلها أصلا.. دي حتى شبه أم أيمن.. ده أنت قمر يا جورج؟ يا حلو أنت يا مكلبظ..

تعالت الضحكات ليقطعها كابو قائلا:

– أنا بقي البت ملك مش عايزاني أقابل أبوها، قال إيه بتقول لي أبويا ها يرفضك.. فتتقدم ليه لما ممكن نستني على النكد، والله باعتالي علي واتس اب تقول لي.. استني لما أوريك..

وقام من مكانه مقتربا مني، ثم جلس بجواري ليعطيني الموبايل كي أقرأ الرسالة:

"بابا لو عرف أن مرتبك بتصرفه على أمك واخواتك ومعندكش شقة غير بتاعة عابدين.. هيتف عليك وهو مرتاح".

أخذت أضحك على كم الرومانسية بينهما، ثم ضغطت على زر الخروج، وفجأة لمحت عيناي صورة قمر واسمها، رسالة من قمر علي واتس اب كابو!!! حاولت تناسي أنني رأيتها، لكني لم أستطع. هجمت على كابو لأشده من قميصه وانهلت عليه بالشتائم والسباب لأنه يتكلم مع قمر، قفز هيثم وعطية ليخلصاه من يدي..

– استهدي بالله يا زياد، أنت فاهم غلط

قالها هيثم وهو يدفعني تجاه الحائط ليهدئني، فوقف كابو قائلا:

– وهو أنا أبص ليه لست قمر دي؟ هي اللي بتكلمني..

– أنت بتستهبل يا كابو؟ أنت بتعك الدنيا؟

قالها هيثم دفاعا عن قمر وملتفتا إلى كابو في غضب شديد، فرد كابو:

– آه يا عم، ما هي اللي زقاني أنا والبت ملك وقرفانا رسايل نقنع معاليك ونهديك علشان تقابلها، وتقابل أبوها..

– كابو.. بس.. أنت بتعك ... يا زياد هي عايزاك تفكر في مستقبلكم وعايزانا نقنعك.

– شفت يا سي زياد، آهي بتكلمنا كلنا أهه مش أنا بس والله!

وقفت في حيرة من أمري، في صمت عميق لم يقطعه سوي صوت

جورج:

- طيب والمسيح الحي ما كلمتني..

وقال بدر :

- بشرف أبو تريكة ما كلمتني أنا كمان..

وقال عطية:

- مش عارف احلف بمين.. بس وحياتك ما كلمتني خالص..

وقفت أحدق في ستارة مليئة بالورد كانت متدلية بجانب المكان الذي يقف فيه كابو، سارحا بخيالي فيما قد تحمله الرسائل دون علمي، فمشيت إليه وأشرت له كي يناولني الموبايل. فكر للحظات، لم يوقفه سوي يدي تخطف الموبايل من يده.

"كلمته النهاردة؟ يا كابو بقالي أسبوع بقنعه يقابلني.. ده أنا حتى كلمت أمه مش راضية تكلمه وخايف منه"

"أنت كلمته النهاردة؟"

"والله حاولت يا قمر مش بيرد، وبعدين أنت عارفة زياد عنيد، مش هاييجي غير بعد شوية لما يهدي"

"يا كابو لازم يقابل بابا، أنا حكيت له على كل خناقتنا وهو عايز يقابله.. يا كابو، أنت بتطنشني؟ أنا محتاجة أنك تتدخل.. أنت الوحيد اللي ممكن تقنعه"

"بصي يا قمر، أنا عندي مشكلة مع ملك"

"فيه إيه؟"

"أبوها رافض جوازنا، مش زيك.. أبوك موافق زي ما قلت.. وأنه حتى زي ما بتقولي موافق على شقة إيجار وكلام كدة.. الصراحة أنا شايف أنها ماتستاهلشي أني أقعد أذل نفسي قدام أبوها، البت طيبة بس أنت عارفاها هبلة، بأحس أنها مش من مستوايا الفكري، دماغها فاضية"

"خلاص لو مش بتحبها سيبها، ده رأيي الصراحة"

"أنت شايفة كدة؟! وأنت شايفة أنك وزياد زي بعض؟ ولا أنت بس بتقولي كلام وتعملي غيره"

"أنا وزياد حوار ثاني، أنا لازم أتجوز زياد.. أنا خلاص مابقتش أقدر أعيش من غيره. والله أنا كل يوم بالليل بأقعد أفكر أني كل ما أكبر في السن، هو هايسبني".

رميت الموبايل ولم أكمل الرسائل، وفي صمت تام من الجميع، رميته بعيدا حتى خرجت البطارية من مكانها لتسقط بجانب كابو الذي وقف في ذهول شديد محاولا تبرير موقفه:

- أنا قلت لك، البت دي مش من توبنا يا زياد، هي أكبر منك ولما لقت واحد يحبها، مسكت فيه. هي حلوة وغنية وأبوها مسهلها عليك آه، بس مش مرتاح لها!

صرخ هيثم مهللا:

- إتلم يا كابو.

فوقفت بجانب كابو مهاجما هيثم متسائلا لماذا يدافع عنها؟ تري ماذا قالت له هو الأخر؟ ماذا قالت له عن أسرار علاقتنا؟ منذ متي يتقابلان دون علمي؟ واجهته، لم يجب، لم ينطق كلمة، وقف كالجبل، ولم يخجل حتى، ثم جر بدر خارجا من الشقة راميا السلام وهو يغلق الباب خلفه بعنف.

قررت أن أواجهها بما عرفت، ولكن كان ذلك يقتضي سرعة في الاداء. لكن بعد أن حددنا ميعاد اللقاء، اتصلت قائلة بأن أمها لن تسمح لها بالخروج نظرا لأن هناك ضربا قد بدأ في الاتحادية، لم أهتم بأي شيء يمت للسياسية بصلة، واجهتها:

- بتكلمي أصحابي من ورايا؟ بقي أنتي عايزة تتجوزيني علشان كل يوم بتكبري؟

- كابو ده عيل، أنا قلت له ما يقولكش أني كلمته..

- وقلت برضه لهيثم وملك وحتى أمي؟ ده أنا أمي محاولتش تفتح بقها علشان عارفة أني طالع عيني، أمي شايفة أني مش بكلم حد وقافل على نفسي.

- ويا تري فكرت في أي حاجة؟ وصلت لحاجة؟

- أبوك عايز يقابلني ليه؟

– علشان هو قال إنك أكيد مكتئب بسبب الجيش وخناقاتنا دي لازم تهدي..

– وأنت كمان بتحكي له إيه؟ أنتي عايزة مني إيه؟ أقابل أبوكي كمان؟ أنا حبيتك وأديتك كل حاجة.. أعمل لك إيه ثاني علشان تعرفي أني فعلا حبيتك وعمري ما ضحكت عليك.. بس فعلا اللي أنتي بتطلبيه ده مستحيل... عايزاني أخطط لمستقبلي بعد الجيش وهاتجوزك إزاي!! لا وبتزودي الطين بلة، وتقول لي أقابل أبوك كمان؟ مش كفاية الدنيا كلها ضدي.. يبقي أنت والدنيا عليّ؟

– أنا والدنيا عليك!! وكل حاجة إيه اللي أنت عملتها.. ده أنت أول ما شميت نفسك ونطقت دلوقت قلبت عليّ وبتطلع القطط الفاطسة علشان تسيبني.. ويعني إيه حبيتني؟ هو أنت بطلت تحبني؟ إسمها بحبك! مش حبيتك!!!

فجأة لم أسمع كلمة مما تقول، وكأن قلبي قد توقف عن حبها فعلا. بالنسبة لي فكرة أنها تحولت إلى فتاة تسعي فقط لإتمام صفقة زواجنا مثلما أنهى الإخوان صفقة التوافق مع شباب الثورة، كانت تلك هي نهاية الثورة.. النهاية لقصة حبنا.. بالنسبة لي ماتت الثورة ومات حبي لقمر. أصبح واضحا جليا لي بأن حياتي وشخصيتي كانوا على المحك، فقد أضاعهم تجنيدي في الجيش الذي ارتميت فيه، كما ارتمت هي على أمي وأصدقائي لتقنعهم بفشلي وبضرورة اتخاذ خطوات في علاقتنا، خطوات كانت تعرف أنها من رابع المستحيلات.

أغلقت التليفون لأفكر: هل مكالمة تليفون قصيرة كافية لتقضي على حبنا، كافية لإنهاء حكم مرسي، كانت النهاية وشيكة تماما، فكما كانت تقول قصة حبنا هي قصة الثورة، أول مرة أدرك ما كانت تعنيه، ففي تلك الليلة فض شباب الإخوان اعتصام الإتحادية، جبنة نستو يا معفنين، الحسيني أبو ضيف، كريستي، وقف شباب الإخوان يبلغون الشرطة بالليزر الأخضر عن أماكن النشطاء، بوستات أخذت تنشرها على الفيسبوك بعد مكالمتنا وكأنها لم تأخذ لحظات حتى لتحزن علي ما وصلت إليه علاقتنا. لم يتركني السرير لأنام، ففكرة أن قمر تفضحني أمام أصدقائي، أمام كابو وملك وهيثم، لتحكي لهم عن كم التساهل الذي يقدمه لي أبوها والذي لم أغتنمه.

صارت كل الأحداث واضحة وضوح الشمس، تمردت قمر حينما شعرت بأنني مقصر. طالما حاولت إقناعها بأنني لست مقصرا، لكنني أشعر بالفشل، فمستقبلي مرهون بإنهاء خدمتي العسكرية. كيف لها أن تتوقع مني البدء في تكوين بيت الزوجية، أو حتى أن أفكر في أي شيء. كلمة "فكرت" تلك التي كانت ترددها عندا فيّ لتثبت أنها كانت العقل المدبر في علاقتنا، وكأنني لم أكن سوي منفذ لخطط الست الهانم. سيدة القصر، لأصبح أنا تابعا لها، لا تراني كرجل، أكيد كانت تعليقاتها على صوري بالبدلة العسكرية التي كنت أرسلها لها لتراني بأنني املأ البدلة برجولتي، ما هي ألا مجرد سخرية من عدم شعورها ولو للحظات بأنني أفكر في خطة زواجنا بجدية مثلها.

بعد أسبوع قابلت بالصدفة عطية وأنا في طريقي للوحدة، ركب معي المترو وأخذ يهذي في محاولة منه لتجنب الحديث عن تلك الليلة في شقة عابدين، فقد أثبت أن حمادة صابر الذي سحل وتم تعريته في الإتحادية ما هو إلا ممن كانوا يتظاهرون في ميدان العباسية من المؤيدين لعمر سليمان سابقا والمجلس العسكري لاحقا وتوفيق عكاشة حاليا. وكعادته أخذ يسرد ما صوره عبر مرحلة ما بعد الثورة من شغب في محمد محمود وأحداث العباسية، لم يمل عطية من التحدث وكأنه الوحيد الذي يفهم الحقيقة التي نجهلها نحن. طبعا لم يأخذ أي موقف عند مهاجمة هيثم وبدر والآخرين له، أخذ يسألني أسئلة متفرقة وسط الحوار عن كيفية معاناتي مع الضباط في الوحدة، كان لديه فضول رهيب، بل وكان يفكر جديا في التخفي كعسكري ويدخل الوحدة ويتكلم عن العساكر وكأنهم سذج سيدخلونه دون التأكد من هويته، لم يحترم مشاعري وأنني من أولئك العساكر، ولم يفكر إلى أي حد يمكن أن يكون كلامه جارحا، لأنه لم يرد أن يسمع أن معاناتي في الوحدة كانت معاناة نفسية بسبب مستقبلي الذي تعطل أو من ظروفي مع قمر، ولكنها لم تكن معاناة تعذيبية أو غيرها كما يخيل لنفسه. بالنسبة لي عطية كان يحيك نظريات وهمية في عقله ليشيطن القوات المسلحة والجيش وكأنهم ألد أعدائه، الأمر الذي لم يكن ذا أهمية لأستمع إلى كل ذلك الكلام وأنا في هذه الحالة.

"بابا عايز يشوفك، كلمني"

استيقظت على تلك الرسالة. كانت هناك رسالة أخري من هيثم يدعوني فيها للنزول يوم ٢٥ يناير ضد حكم مرسي. هيثم فعلا أحمق ليظن أنني قد أعرض نفسي للخطر بأن أشارك في مظاهرات أثناء فترة خدمتي، فمهما بلغت درجة كراهيتي للإخوان فأنني بالقطع لن أضحي بمستقبلي. ثم جاءت المكالمة التي لن أنساها، تلك المكالمة التي كانت النهاية الحقيقية، قفزت من السرير حينما قالتها:

– بابا عايز يتكلم معاك يوم الجمعة علشان هو عايز يهديك..

قالتها بهدوء مريب، الأمر الذي جعل الدماء تغلي في عروقي لا سيما أنني لم أبدأ يومي بعد لم اشرب سيجارة فتح الريق فرددت:

– يعني إيه يوم الجمعة؟ أنتي مصممة تحطيني في موقف بايخ ليه؟ وبعدين الجمعة ده مش يوم ٢٥ يناير؟ وأنتي هتيجي معاه ولا لأ؟ لأ طبعا ما أنتي أكيد هتنزلي المظاهرات.. هو أنا أصلا أفرق معاكي؟

أدركت ساعتها أنه قد جاوز الظالمون المدى، وعلى عكس ما توقعته من انفجارها، وجدتها بكل بساطة تقول:

– خلاص ماتقابلوش، ما هو صحيح مايفرقش معاه وعلشان كده عايز يقابلك ويطمنك؟ أنت مش عايز تفهم ليه أني حتى أبويا أقنعته علشانك؟ ويا تري أنت عرفت حتى تكلم أبوك عني؟ عارف يا زياد، على الأقل نزولي المظاهرات له فايدة، على الأقل ساعتها بحس أن مصر محتاجة لي ومقدرة أني رغم كل اللي بأمر به أني بحبها! لو مش عايز تقابله عنك ما قابلته!

بالقطع هدوءها هذه المرة كان وكأنها قد وصلت إلى خط النهاية، ولأول مرة أشعر بأنني أخطأت فيها لأنني بشكل أو بآخر رددت لها اهانتها لي، لأنني فعلا أفرق معاها وإلا لما كانوا يريدونني أن أقابله، ولأنني أحترم والدها بشدة، قلت لها أنني سأكلمه لأنسق معه لقائنا.

بعد صلاة الجمعة، وقف هيثم مهللا: "الإثنين ملهومش امان، ..."، فأحدث ضجة في أروقة المسجد، فلم يرد المصلين أي من تلك الشعارات، ثم تمتم البعض بأن تلك الشعارات ليست مهمة الآن، ونادوا بوجوب تغيير الشعارات. نظر إليّ هيثم وسط الجموع نظرة غريبة لم أفهمها سوي بعد سنوات، كنت قد قلت له قبل الصلاة، - بعد أن لم يدع أمامي فرصة لتجنبه - أنني لن أذهب معه للمظاهرات، وبالرغم من أنني لست مستاءا منه هو فقط، ألا أنني حاولت أن أكون لطيفا لأنه على الأقل أصر على مصالحتي بعد ذلك الموقف في شقة عابدين. وكعادتي قبل ذلك الموقف، لم أواجهه برفضي الدخول في موجة ثورية جديدة أرفضها بالرغم من أنني ضد الإخوان وما يفعلونه، وبالرغم من ذلك أخبرته أنني لا أستطيع الذهاب لأنني في لقاء مصيري مع والد قمر. جررت رجليّ كمن لا روح له، يجب على أن أذهب للقائه في المعادي أسرع وقت، فالمترو سيكون مزدحما وأنا في الحقيقة ليس في جيبي ما يمكنني من الذهاب في تاكسي. جريت لألحق المترو وكأنه أخر أمل لي، كان هذا اللقاء ككتلة الجبل علي قلبي، شيء يسحق كرامتي، كيف لي أن أواجه هذا الرجل الذي طالما احترمته لأقول له ما كنت خائفا أن أقوله، جعلني حبي وغبائي أن أنسي ما وعدت به قمر مسبقا..

ألا أكون ندلا!

كل ما كنت أفكر فيه كان أنها هي من دفعتني إلى هذا الطريق، ومهما يقول ومهما أفعل، سأظهر كالندل الذي لم يقدر الفرص الذهبية من قمر أو أبوها.. كانت أمي تعرف بلقائي وقالت إنها ستدعي لي في صلاة الظهر، فدعاء يوم الجمعة لا يرد.. أو هكذا ظننت.. ولكنني عرفت يومها أنها لم تدع لي بأن تكون قمر من قسمتي ونصيبي، بل دعت بأن يكتب الله لي الخير ويصرفني عما هو شر لي ولم يكن مكتوبا لي.

- إذا كنت بتحبها بجد، كنت هتصوم علشان تخرجها، كنت هتشتري وردة واحدة وتضحك عليها بيها، هو أنت مش عارف قمر ولا إيه؟ مش أنا أبوها والمفروض ما أقولكش كدة.. بس قمر بتحبك! وأنا مقدرش أقف قدام سعادتها، أنت عارف إني مش بضغط عليك، بس فعلا أنتم علاقتكم اتدهورت الفترة اللي فاتت علشان مابقتش تشوفها كثير وهي مضغوط عليها في الشغل ومستحملاه علشانك.. أنت عارف قمر هاتفضل طول عمرها تعافر لو عايزة حاجة.. وهي عايزاك!

كان هذا الجزء اللطيف من الحوار، الجزء الذي شعرت فيه بأنه فعلا في صفي، ليهدأني كما قالت، ولكنه فجأة قرر أن يلعب دور الأب:

- أنت لازم تبتدي تفكر، جيشك هايخلص في أبريل، وقبل أبريل لازم على الأقل تكون مهدت لوالدك إنك في شهر يونيو لازم على الأقل تلبسوا دبل.. والدك لازم يعرف، ولازم نعرف ظروفك إيه؟ وخططك

إيه للوظيفة؟ ممكن مثلا الفترة دي تاخد كورس علشان تتخصص في المجال اللي قلت عليه بس لازم تحط خطة، ولو عايز تسرع أي خطوة في علاقتكم لازم تخطط تسافر برة سنة أو حاجة تكوّن نفسك.. أنت معاك وقت.. بس لازم نحط كل شئ في مكانه الصح! ولا إيه!

تلك هي الكلمات التي ظلت في ذهني من كلام والد قمر، الأستاذ الجامعي الذي لا يطمح في الكثير، وإن كان ما يطلبه مازال كثير جدا عليّ! خرجت من لقاءنا أشعر وكأن روحي تحلق فوق جسدي الهزيل، تصببت عرقا بالرغم من أن درجة الحرارة كانت معتدلة ذلك اليوم، لم أهتم لرنات موبايلي الذي أخذ يرن دون توقف حتى صلاة العصر، سمعت الآذان وأنا على مشارف كورنيش المعادي، وقفت أحملق في ارتفاعات العمارات علي الكورنيش، كم هي طويلة وعالية وكم حقير وصغير أنا بجانبها. شعرت وكأنها تطبق على أنفاسي، وكأنها تدهسني كالحشرة؟ ولكنني لم أكن سوي شاب قد حطمته حبيبته، فأنا حطام بني أدم أو حشرة، وهي كبيرة، عالية، ضخمة، جامدة، قوية كالجبال في ذهني.

سمعت طرقا على الباب، لم أفتح، ساعة أخرى، وطرق آخر، لم أفتح، لم أسمع أي شيء، لم أشعر بأي شيء، لا أعرف إذا كان ذلك من فعل الصدمة أو هو مفعول سيجارة الحشيش التي حولتني إلى زومبي، من مات، ولكنه مازال واعيا، مازالت روحي تحلق فوق جسدي المخدر، أسمع الطرق وصوت أمي تبكي خلف الباب. لم تيأس، لم تتراجع

عن الطرق على استحياء وهدوء حتى لا يسمعها الوحش الكاسر في الغرفة المجاورة. أتخيله كشيطان أو تنين ينفث نيران تصلني حرارتها في غرفتي. أخيرا قررت أن أفتح لها بعد مرور يوم كاملا، دون نوم، دون شراب، دون أكل أو حياة. لم أخرج من الغرفة، فلم أرد في الدنيا سوي حضن أمي، لا أعرف كم من الوقت ظللت أبكي في حضنها، ماذا قلت، بالقطع كلام والد قمر ممزوجا بسيمفونية من نواح خاص بميلة بخت أمي وبختي، سب ولعن في الظروف وفي رد فعل أبي.

لم تكن أمي موجودة حينما قررت مواجهته، لم أسمع كثيرا مما قال لأن صوتي كان يعلو صوت المظاهرات في المنطقة. تذكرت وأنا أحكي لأمي ما حدث مع أبي أنني سمعت أثناء دخولي إلى مدخل العمارة بأن مسيرة شبرا تم ضربها وهي على مطالع منطقة وسط البلد، وكنت أعرف من فيسبوك أن قمر فيها، ربما زاد هذا من حدة صوتي مع أبي حينما واجهته بأنني قد قررت التقدم لقمر بمجرد خروجي من الجيش، وبأن عليه أن يقف معي لشراء الدبل، كم اللعنات والسباب، كم التحقير من الشأن والاتهام بالفشل، كم المهانة والشتائم لي ولأمي التي اتهمت بالتقصير في تربيتي وتعليمي الاخلاق، كيف لك أن تربط فتاة كأختك معك لمدة عامين؟ كيف تسمح لنفسك بمقابلة أبوها كاليتيم دون أبوك؟ لعنات لعنات، سباب سباب، سمعت صوت أمي باكية، قلت لها وبكائي يغلب بكاءها أنني كلمت والد قمر أول ما دخلت إلى الغرفة بعد معركتي مع والدي، وأنهيت الأمر:

– كلمته، قلت له كل شيء قسمة ونصيب، أصل أبوبا عبد الحميد العلايلي باشا مش راضي يناسب معاليكم. أبويا اللي راح صرف كل مليم على أخوتي ونسي أنه عنده عيل ثالث، أن عنده عيل فاشل عايد سنة ومتجند علشان يخدم البلد دي. قلت له، بنتك يا سعادة البيه أعلي مني، بنتك عارفة هي عايزة إيه، عارفة طريقها، بنتك راكبة قطر توربيني وأنا لسه بتعلم الزحف، مش ده كلامك ياما؟ مش ده اللي قلتيه لها لما كانت بتقنعك تهديني. قمر قالت لي كل حاجة، قالت لي أنها كلمتك تترجاكي تساعدينا، ساعدتينا بإيه؟ أنك فكيتي من كيسك قرشين أجيب لها بهم بونبوني على رأي شفيق؟ فلوسك ياما ماتجبش غير بونبوني، فلوسك ما تطلعنيش للقمر، القمر العالي فوق. قلت له يقول لها لأني عمري ما ها أعرف أقف قدامها، عمري ما ها أعرف أقول لها.. طلعتيني ندل... طلعتيني عيل ولا با أفهم.. عارفة ياما، قمر دي زي ما الكينج ما قال: أنا طفل اتعلق بيكى فى نص السكه وتوهتيه.. بس أنا ما توهتش... أنا اتقتلت.......

اعتذرت لأمي التي كانت غارقة في دموعها وهي تجلس على سريري لأنني كسرت ما كسرته في طريقي من الغرفة المجاورة بعدما كسرت مرآة غرفتي. ثم جاء دورها لتعتذر إليّ، لم أفهم، ولكن صدمتي كانت لأنها قالت:

– أنا كلمت قمر أنا كمان... وقلت لها تسيبك في حالك! وزي ما قلت إن كل شئ قسمة ونصيب!

الفصل الرابع
وقد رحل ...!!

- أنا عارف دلوقتي أنتي زياد سابك ليه؟ أنت غبية؟؟ يعني إيه تثقي في الخطاب! يعني إيه واثقة أن تمرد هاتعرف تجيب رئيس؟ مش ده اللي اتفقنا عليه؟ أنتي أكيد غبية! تلاقيكي بتقولي كدة علشان الهانم سايبها لنا مخضرة!

هكذا وقفت أهلل في وجه قمر التي رأيتها بالصدفة أمام قصر الإتحادية عند الخيام حيث كان يعتصم شباب أغلب الحركات الثورية. كانت تنظر إلى عيني وكأنها على وشك أن تبكي، لكنها لم تبك. ثم اقتربت في ثبات غريب - طالما استغربت ردود أفعالها، ولطالما استغربت عقلها- لم أفهم يوما كيف كانت تمتزج بيننا نحن أبناء عابدين الشعبيين، بنت الحسب والنسب، كيف كانت في قمة أناقتها وهي تشترك معنا في كل المظاهرات، لكنها بالقطع كانت ترفض الاعتصام، كانت ممن يدعون في سذاجة لثورة ثورة حتي العصر، بالنسبة لي هي مجرد فرفورة.. وستظل! ولكن الطريقة التي نظرت بها إليّ لم تكن نظرة فرفورة مطلقا، اقتربت مني وظننت أنني لن أسمع صوتها وسط ضجيج هؤلاء ممن يحتفلون بالشماريخ والليزر، وصوت طائرات الهليكوبتر المحتفلة بنجاح الشعب في إنهاء خدمة مرسي، وإعلان فوز الشعب، ولكنني سمعتها:

– أياك تجيب سيرة ......

قاطعتها:

– أنا أسف، مش قصدي أجيب سيرة زياد!

نظرت لي برفعة حاجب غريبة والتواءه في فمها، قالت مستنكرة:

– زياد إيه!! أنا كنت بقول لك إياك تجيب سيرة سفري على لسانك، أنا مش مسافرة بمزاجي، أنت عارف! بس من الغباء شق الصف الوطني ثاني، الغباء هو أننا نكرر اللي حصل في الثورة! العالم دي بتجرك علشان تشق الصف ثاني لصالح الإخوان اللي أصلا ممكن أي لحظة يتحركوا ويبقوا عندك هنا ويدكوا الخيم دي على نفوخكم زي ما عملوا أيام مرسي. فوقوا بقي والنبي من السذاجة دي، وطبيعي قوي إن اللي يمسك الحكم دلوقتي رئيس المحكمة الدستورية ما هو مفيش مجلس شعب، وطبيعي بردوا نلغي الدستور، ولا ماكنتوش هتموتوا ويبقي الدستور أولا!!

بالرغم من أنها فرفورة، فهي الوحيدة القادرة على دخول جدل معي منذ أن رأيتها أول مرة في ميدان التحرير، في جمعة الغضب الثانية، جمعة الدستور أولا. كنا نحاول نثبت أننا قادرين على ملء ميدان التحرير بدون التيارات الإسلامية عندما كانوا وقتها يدعون بالإمارة للمشير في جمعة قندهار الشهيرة. فجأة توقف عقلي عن استيعاب أنه قد فات أكثر من عامين على ذلك اليوم، فاليوم واليوم فقط أمامنا فرصة تعديل المسار، وكأن عامين لم يحدثا، وكأن شباب منطقتي لم يموتوا، وكأننا

فعلا أمام فرصة ذهبية لإثبات صحة ما كنا ندافع عنه. لكن قلبي لم يكن مطمئنا، فالكثير من أهل عابدين معنا، ولكن نسبة كبيرة من شلة عابدين لم تكن.. أين زياد وكابو؟ أما أنور وعطية كانا في ميدان رابعة من يوم ٣٠ يونيو، أكيد أنهم يسنون أسنانهم الآن لأكل لحومنا أحياء.

فجأة، شريط ذكريات بدأ في مخي مع ذكرها كلمة الدستور أولا، فأول مرة رأيتها كانت في نظري فرفورة تماما مثل اليوم، لم تتغير. شاور عليها زياد كالأبله ليقول لي:

- هي دي ... شايفها؟

كانت تقف في ملابسها التي لا تمت للتظاهر بصلة. أعتبر نفسي اشتراكيا، أؤمن بالمساواة والعدالة الاجتماعية، أؤمن بحق المواطن في التعبير عن رأيه. أما رأيي فيها فكان أنها لا تنتمي لعالمنا. لا تفهم لماذا نقف في الشارع لنهتف عن قضية أهم من قصة إعجاب أبله كزياد بها. اسمها يليق بها، ولكنه قديم، وقد عرفت فيما بعد أنها سميت على اسم جدتها قمر. رائحة عطرها كانت مستفزة، كانت تضع كحلا لتحدد عيناها كسيدات الصعيد - وهن في رأيي أجمل سيدات العالم - لا أعرف لماذا ذكرني كحلها بهن؟ ولا أفهم لماذا أهدرت لحظات لأنظر إليها عندما سألني عنها زياد. قلت له بعصبية:

- بقول لك إيه يا زياد أنا ماليش في التسبيل بتاعك ده ... أنا كلمت الواد فادي والواد علاء ورايح ناحية المجمع، والصراحة مش فاضي لأفلامك دي.

فادي عباس؛ أمين عام اللجنة الاعلامية لحركة التغيير الشبابية – حركتنا – فأنا رافض للانضمام لأي حركة أو ائتلاف مما كانوا موجودين قبل الثورة أو حتى بعدها، فقد تم اختراقهم الأخوانجية والأمن. الجملة التي رددها علاء رئيس الحركة حتى آمنت بها وبدأنا حركتنا الصغيرة التي لم تكن تكفيني عن الأنشطة الأخرى، كحضور مؤتمرات وندوات الحركات والائتلافات الأخرى حتى أكون ملما بمجريات الأمور من حولنا. طبعا كل ذلك بجانب حضوري مع والدي تحقيقات وقضايا في المحاكم لجمع ما يمكنني من شكاوى مواطنين نستطيع من خلال اللجنة الإعلامية الوصول إلى المواطنين من خلالها.

كان فادي صديق علاء الصدوق، كانا من عين شمس، كانا خريجي قسم العلوم السياسية في كلية التجارة الخارجية بحلوان، أضاعا عمرهما في المترو من أقصي اليمين لأقصي اليسار، كان فادي كالتابع لظل علاء، إلا حينما يذهب علاء أو يسافر مع منظمات حقوق الإنسان لتمثيل الحركة في مؤتمرات دولية. لم يبال فادي بالسفر كثيرا لأنه كان ملتزما في عمله في مركز البحوث السياسية بجريدة الأهرام. أما علاء فقد ترك عمله وأخذ يحكي لنا أنه يعمل مع عائلته في نشاطهم التجاري حتى يتفرغ للحركة، أو هكذا ظننت حينما كنت ساذجا.

مشكلتي في جمعة الغضب الثانية أن تغريداتي ودعواتي للنزول إلى الميدان كانت مسألة مصيرية؛ أنا هيثم بدرالدين على أخر الزمن أنزل دعوات وأطبع بانرات والميدان مازال لم يكن كما أتوقعه. مشيت بين

الشباب للتوجه إلى مجمع التحرير، لم أقابل هناك سوي علاء، رئيس الحركة. الصراحة تقتضي الاعتراف أن عصبيتي وطريقة كلامي كانت دائما تزعجه، هو بارد، وفي نظري أضعف من أن يكون قائدا إذا صح تسميته بالقائد. أخذ يوبخني بشياكة عن عدم وصولي مسبقا للقاء أعضاء ٦ أبريل، والاشتراكيين الثوريين، والحزب الناصري، وغيرهم. مشكلتي أنني أصبحت بالصدفة الشديدة أكرههم جميعا، آه والله، مضيعة للوقت أن تقف لتقنع مليون ائتلاف وحركة على أن نكتب بيانا بمطالب المليونية، خاصة طبعا إن كل واحد حالف ما يتفق مع الثاني لاختلاف "ايديولوجياتهم". تحججت بلقاء شباب مشارك في المليونية وبأنني كنت أعرّفهم على الحركة، لم يصدقني، وأخذ يكلمني عن ضرورة احترامي لالتزامتي. ما لا يعرفه علاء أنني طالما اقتنعت بأن نهاية حياته ستكون على يدي، على عكس ما يتخيله وهو أنه سيموت شهيدا علي يد قوات الشرطة.

لن يفهم أحد أبدا شخصيتي، لم تتحملني في حياتي أية أنثى سوي فتاة تدعى إسراء. كنت قد أحببتها في الثانوية العامة، وكنت أقفز من على سور المدرسة للخروج معها، فألقاها أمام قصر عابدين ثم نتجه لكوبري قصر النيل حيث قصة حبنا العنيفة. حتى وصل لأبي أخبارا من الجيران عن مغامراتي العاطفية معها، فأخذ يوبخني لأنه يري فيّ شابا جريئا وكان دائما ما يأمل بأن أكون خليفته في الملاعب القانونية وفي الدفاع عن حقوق المصريين. علاقتي بأبي أصبحت أكثر متانة مع دخولي كلية حقوق، حملني مسئوليات تفوقني بكثير، وأهم تلك

المسئوليات، مسئولية القرد الصغير بدر. سماه أبي علي اسم جدي لأنه ولد في نفس العام الذي توفي فيه جدي. ولكن بدر يختلف عني بأنه في نظري أكثر جرأة مني، لا يخاف، أكثر عصبية، تعشقه البنات من صغره، لكنه لا يبالي لأن حبه الأوحد كان هو النادي الأهلي.

تركت علاء، لم أجب عليه، ومشيت. لم أكن أنتوي - على رأي مبارك- أن أدخل في جدل. ثم كلمت فادي وقلت له أن يقابلني أمام الجامعة الأمريكية، حتى نتأكد معا أن كل البانرات قد علقت، وأن المنشورات قد وزعت، صحيح أنها لم تكن كلها بإسم الحركة، ولكننا على الأقل قد شاركنا ماديا ومعنويا في كتابتها. وأنا واقف، رأيتها تمشي، كانت تتبع مجموعة من الشباب ومعها شابة أخري، نظرت إليّ وابتسمت ثم عبرت الشارع تجاهي:

- أنت هيثم، سمعت عنك كثير، كنت عايزة أتعرف عليك جدا.

رفعت حاجبيّ لان زياد كان قد أكل أذني بأنها دائما مع أخيها وأصدقائهم مما لا يجعله يستطيع الكلام معها. مدت يدها لتسلم عليّ، فمددت يدي أنا الأخر:

- أه يا ستي، أنا هيثم، عاملة إيه؟

- أنا كويسة، بس بيني وبينك مبسوطة قوي، عرفنا نملا الميدان.

- ميدان إيه ده اللي مملي، هو مش وحش، بس أنا مش مكفيني .

- أه، أنت منهم!!

– من مين؟

– من المتشائمين على طول؟

ابتسمت، ولكنني لم أرد. كانت تنظر إليّ بضحكة غريبة لم أفهمها، ورددت لأقلل من وطأة عصبيتي:

– أنا مش متشائم، ولا متفائل، أنا بس خايف أن الإخوان والسلفيين يصدقوا نفسهم. أنتي مش فاهمة دول عملوا إيه الأسبوع اللي فات؟ أنا نزلت علشان أكتب تقرير، كنت ها اتشل.

– سلامتك من الشلل، على العموم، أنا كنت عايزة أسألك سؤال علشان فضولي..

– أكيد، اتفضلي.

كنت أفكر عما ستسألني.. ماذا يحب زياد؟ أين يسكن زياد؟ أين أم زياد؟ أشياء تافهة تحبها الفتيات وأكرهها أنا. ولكن فجأة جاء شاب، يشبهها، ولكن في صيغة ذكورية، اعتقدت أنها ستجري من الخوف، ولكنها عرفته علي.

– ده هيثم، أما ده، فأخويا طارق يا سيدي بيدرس سياسة زي بابا، وكان نفسي أسألك لو نقدر نحضر أنا وهو جلسة من جلسات أي من الحركات أو الائتلافات علشان نفهم أكثر إيه خططكم؟

سلم طارق عليّ. كان متحمسا جدا لدرجة أن مخي لم يفهم لماذا كل هذا الفيلم العربي الهندي الإنتاج الذي يعيشه زياد. أعطيته ورقة

من المنشورات تحمل عنوان الحركة وارقام تليفوناتنا وصفحتنا على الفيسبوك للمتابعة. ومع غمزة من طارق لقمر، كانت إشارة لوجوب رحيلهما، ولكن قبل أن تمشي، اقتربت من أذني وقالت:

- أنت ماشوفتنيش، وماتكلمناش، طارق بس كان فعلا عايز يشوف حركة ممكن ينضم ليها.

ومشت بعد أن شعرت أنها قد وثقت في أنني لن أتفوه بكلمة لزياد، بالرغم من أننا لم نكن نتكلم في شيء غريب. ولما لم أجد فادي، كلمته في التليفون لأسمعه كلاما يقشعر له الأبدان، لأنه تأخر علي.

- هما عطلوا العمل بالدستور وهايعملوا تعديلات، مش دستور جديد... ويعني إيه وزير الدفاع يقول الخطاب؟

- هيثم، أنت بتتلكك؟ ما هو كل اللي نعرفهم وفي صفنا شاركوا في الخطاب؟ وبعدين مش الجيش هو اللي كان مدي مهلة ٤٨ ساعة علشان يأخذوا موقف؟ أنت والله بتتلكك.

جدلي مع قمر أمام الاتحادية تحول إلى أنني لا أريد أن أكمل خلافي معها، لأنني كنت أريد أن أري ممثلي بقية الحركات. لكن نظرتها لي أغضبتني، عصبتني، فلم أسكت:

- بصي يا قمر، أنتي عمرك ما هتفهمي. أنتي واحدة من الشعب، لا عضوة في حزب ولا عضوة في حركة، ولا اتقفشتي واتضربتي ولا اتبهدلتي، أنتي ببساطة تروحي تطرقعيلك شمروخين وتقفي تلعبي

بالليزر مع الهليكوبتر وسيبني في حالي.

– أنت فاكر أن أنا كدة هازعل وأعيط، أو امشي وأقول لك ده رأيك وأنا بحترمه.. بص حواليك... أنت هنا في الاتحادية، مش هناك في رابعة. أنت مضيت تمرد ومضّيت ييجي نص مليون واحد، أنت مش عايز تفهم ليه يا هيثم!!

– إمشي يا قمر من قدامي والنبي، إمشي لو سمحت.

– مش ماشية يا هيثم، طول ما أنت مش عايز تفهمني.

– وأنا عمري ما ها أفهمك، ولا أنت هتفهميني.

وفجأة قاطعنا شابا يقف إلى جوارنا بشمروخ يكاد يكون قد أصابنا بالطرش، نظرنا إلى السماء لنري الانفجار، ثم تلاقت أعيننا:

– أنتي مسافرة وأنا قاعد... أنتي ماشية وأنا قاعد... افهمي بقي.

– ثاني؟ ثاني مسافرة؟ أنا مسافرة سنة وراجعة.. ده ما يدكش حق تسحب مني حقي في أني أحاول أفهمك وتفهمني

– أفهمك ليه يا قمر؟

سكتت، ونظرتها كانت كافية لتسكتني. مشت دون أن تودعني، اختفت وسط جموع المحتفلين بخلع مرسي. التفت فلم أر أحدا أعرفه، شخصيات غريبة تقف تتكلم، وآخرين يتناقشون في أنهم لن يتركوا الاعتصام لأننا لن نكرر الخطأ القديم بتركنا للميدان. أخذت

أبحث عن بدر، لأجده يقف مع شباب الالتراس ناحية القصر، يغنون ويقفزون عاليا، ففرحة بدر كانت تفوق فرحتي بكثير. فقد تخلص أخيرا من معذبيه، أو هكذا اعتقد.

– أنت بتتكلم في إيه؟ يا عطية عليا الطلاق مش سامع؟ تكريم إيه؟ أنا زياد كلمني ومش فاهم؟ طلعتوا على ماسبيرو؟ طيب بص أنا في السكة، أقابلك عند عبد المنعم رياض؟

يااااه، تذكرت عطية، الذي كنت أصدقه ولم أشكك أبدا في رواياته، فعدم وجوده في الاتحادية معنا منذ ديسمبر كان بمثابة الصدمة بالنسبة لي. عطية، يااااه، كلمني من عامين يرجوني أن أنزل إلى ماسبيرو لأنقذه هو وكاميراته حينما ذهب لتصوير الخلاف بين الأمن وأهالي الشهداء أمام مسرح البالون، ثم توجهه للمعتصمين أمام ماسبيرو، لم يذهب لنجدته سواي. فبعد محاولة تقرب المتظاهرين إلى التحرير وضربهم بالغاز المسيل، كنت أنا أغرد وأكلم كل أصدقائي من الحركات للدعوة إلى النزول لإنقاذ أهالي الشهداء ومواجهة قوات الأمن. لم أفهم أبدا كيف عرف عن هذا التكريم، فلم يكن أحد على دراية به. كان دائما يهمهم بكلمات ويتكلم بسرعة تثير الأعصاب فأصرخ فيه كي يتكلم بصوت عالي أو ليخرس، وكان دائما ما يخرس.

لم تكن وقفتي معه في أحداث البالون بداية علاقتنا، بل كنت أشركه معي في حوارات ولقاءات وندوات، وكان دائما يصور فيديو لقاءات مع الشباب المنظم. لم يكن لي حياتي الشخصية لأتباهى بها أو أعتبره

صديقي، لكن من شلة عابدين، كان الأقرب إليّ بعد أخي بدر. خلافه مع بدر كان كثيرا، فكلما فتح بدر فمه بسباب كان عطية يغضب. كان خلوقا، هادئ الطباع، على عكسنا نحن آل بدرالدين. علاقتي بزياد وكابو كانت علاقة مرح، نتجمع لنلعب الكرة منذ طفولتنا، ثم نشرب السجائر في مراهقتنا، ونعاكس البنات في عابدين، حتى يأتي الشيخ أنور ليوبخنا جميعا.

يااه.. أنور، أشعر بأن قلبه قد توقف مع خطاب السيسي، فهو قد تحول إلى شاب إسلامي حتى النخاع، بل وكان يفكر جديا في السفر للجهاد في سوريا منذ عدة أشهر حينما كان يقنعني بالعدول عن تجميع توقيعات تمرد. لم أحبه كثيرا، لأنني صراحة أعرف سبب ميوله الدينية. فقد كان على علاقة بامرأة مطلقة وهو في الإعدادية والمرحلة الثانوية. أيام ثانوية عامة، بدأ يسمع شرائط دينية لعمرو خالد، وبدأ يحضر دروسا دينية في المساجد، وفاجأنا في الجامعة بإطلاق لحيته. كونه مهندسا جعله لقمة سائغة لكل الجماعات، شعوره بالرذيلة جعله كقطعة العجين يتشكل تشكيلا في أيدي الإسلاميين من كل التيارات. أتذكر والدته الحاجة ثناء، كانت قد طلبت مني ذات مرة أن أقنعه بتهذيب ذقنه حتى لا تسبب له مشاكل في الجامعة، خاصة وأن جامعة القاهرة كانت تكثر فيها عيون الداخلية. حاولت، ولكنه رفض، وكلما كررت المحاولة كان يبدأ بوعظي عن ضرورة بعدي عن أفكار الاشتراكية واليسار الكافر كما كان يسميها. مشكلتي مع أنور، أنه هو الآخر لم يفهمني، لم ولن يفهم أبدا أنني لن أبتعد أبدا عن قناعاتي بالمساواة والحرية.

حتى أنور، كنت قد أنقذته، وكأن ربنا خلقني لأكون منقذ شلة عابدين من مصائبهم المتتالية، إذا لم أكن أنا المصيبة شخصيا. صحيح فأنا أكبرهم سنا، ولكن مصائبي لم تكن أبدا بالقليلة. الشيخ أنور بعد ما قرر أن يعلن عن أنه من العناصر الفعالة في "حازمون" خاصة بعد استبعاد حازم أبو اسماعيل من انتخابات الرئاسة، قرر أن يعتصم مع أصدقائه "الحازمون" أمام وزارة الدفاع. بالطبع لم أهتم، ولم أبال لأنني ممن يعتقدون بأن والدته كانت قد حصلت على الجنسية الأمريكية، ولإدراكي الشديد بأنهم لن يحركوا قرارا من مكانه، وإلا كنا أفلحنا نحن في تحقيق أي مطلب من مطالبنا، فمن هم أصحاب حجة وطنية لا يرتبطون بشخص منافق تبرأ من رجاله عدة مرات آخرها تلك المرة التي نزل فيها شبابه للمطالبة بحقه. رأيي ليس مهما، ولكن حينما سمعت عن بدء هجوم البلطجية في اليوم التالي، وحرب الشوارع بينهم وبين مجهولين، بالطبع نزلت، ليس وحدي، بل ومعي بدر مع بقية أعضاء الحركة والحركات الأخرى. أما كابو فقد كان صاح فينا بعصبية حين سألناه إذا كان ناوي الانضمام إلينا:

- أنتم بتهزروا؟ صح؟ أنا أنزل علشان واحد كل شوية يدبسنا ويجري؟ ده أساسا أمه أمريكانية؟ هما بيستغلوا أننا هبل بقي وكل شوية نجري ورا الاشتباكات، وإحنا نموت وهما يعيشوا علشان الكرسي؟ افكس يا عم هيثم.. وفكك أنت نفسك...

ما لم يفهمه أنور، هو كيف انضمت حركتنا وحركات أخري كانوا

يتهموننا بالكفر والإلحاد إلى جوارهم. وحتى العيال بتوع الكرة – هكذا كان يصف بدر وأصدقائه – كانوا أجدع من بقية الجماعات الإسلامية التي لم تر أن هناك سببا للاعتصام، أقصد الإخوان طبعا. لم يفهم أنور كيف نفكر، كيف يمكن أن تكون خبرة عطية بمنطقة العباسية هي السبب الأساسي في نجاته من محاولة قتل بعد هجوم أحد الشباب علينا بالسيف.

من زحمة المحتفلين حول الاتحادية، ومن كثر الجدل بين الحركات عند الخيام أمام نادي هليوبليس، وجدت نفسي في حالة من الفضول، كيف يشعر عطية وأنور على الجبهة الأخرى، وكأننا في حرب بين جبهتين، هم رأوها حربا أكثر منا جميعا، لم نريدها حربا، ولكن بالقطع هم أرادوها لأنهم يسعون للجهاد ويطلبون الشهادة في سبيل الله. أخذتني قدماي تجاه صلاح سالم، كانت عيناي تقرأ الشعارات الثورية على الحوائط. كانت في نظري شعارات تافهة بالمقارنة بما كنا نرفعه في عز أيام الثورة. مشكلتي تكمن في أنني لا أري مرتادي الإتحادية ثوريين، ولن أراهم أبدا، وعلى رأي قمر" طيب، ما إحنا منهم دلوقتي، إحنا في الاتحادية". أنا في الإتحادية، لم أعد في التحرير، لم أعد كما كنت من عامين. أشعر بالضيق والحنق دائما، رؤيتي للمحتفلين أصابتني بأزمة في التنفس تذكرني بلحظات كدت أن أموت فيها مختنقا من الغاز المسيل للدموع.

– ممكن تبطلي عياط؟

- مش عارفة، أنت مش فاهم حاجة.

- فهميني يا قمر، ايه اللي يخليكي تعيطي من خبر زي ده!!

- مخنوقة يا هيثم، نفس خنقتي يوم ما أخدنا غاز في محمد محمود..

- أنت إيه فكرك بمحمد محمود؟ وبعدين هو أنت أخدت غاز!! ده أنت كنت بتمشي قبل المغرب يا حلوةّ..

- أنا عمري ما نسيت حاجة، وكانت ريحة الدخان جامدة حتى قبل المغرب على فكرة.

- الفرصة دي متتعوضش يا قمر، ناس شايفين أنك أشطر واحدة في الشركة وباعتينك سنة أمريكا... أنتي فقرية يا حبيبتي؟

- حبيبتك؟

- سيبتي كل كلامي ومسكتي في دي..

- هيثم، أنا وأنت عارفين أني مش حبيبتك..

- يمكن أنتي مش عارفة.. دي حاجة ترجعلك... على العموم، بتعيطي ليه؟ ومخنوقة ليه؟ فات خمس شهور؟ أنت بتستعبطي؟

- عمرك ما هتفهم أنا بعيط ليه..

تذكرت حواري مع قمر، أشعر بنفس خنقتها من شهر بعد عرض شركتها لها أن تسافر إلى فرع الشركة في أمريكا، فرصة يتمناها كل شاب وفتاة في مصر، الآن فهمت أنها لم تكن تبكي لأن زياد قد رحل، فبالطبع

أنا لا أشعر بالاختناق لأن مرسي قد رحل هو الأخر، بل لأن شيئا في قلبي لم يكن مطمئنا، شيئا في صدري كان خائفا من المجهول، شيئا في صدري كان حارقا. حتى قمر، لا تفهمه، وربما هي تفهمه، ولكنها لا تريد إظهار ذلك، أو يمكن كان بكاؤها لأن لا شيء في حياتنا يسير وفقا لرغبتنا؟

وقفت أمام صلاح سالم، ولم تسطع قدماي أن تعبراه، لن أنسي أبدا تفاصيل صغيرة نساها الجميع، فهم لم يعيشوا معي في عابدين، لم يروا تفاصيل لم تذكر في الجرائد والتليفزيون، وحتى تويتر، أشياء لم أستطع أن أغرد بها لأن لا أحد في الكون كان سيفهمني. ثم فجأة أخذ تليفوني يرن..

- عايز ايه يا سي زفت؟ أفرح؟ حاضر ... أهو هيييه!! كدة مبسوط؟ لا روح أنت، أنا ها أتمشي شوية وراجع البيت.

اغلقت التليفون مع بدر الذي أرادني أن أشاركه فرحته مع الشباب. كان كل تفكيري هو أن أعود إلي عابدين في أسرع وقت، ودون الاصطدام بالجموع الغفيرة المحتفلة في ميدان التحرير. كل ما كنت أتخيله هو يوم ٢٣ يوليو ٢٠١١ كم كنا قليلين، كم كنا أقلية تسعى لمطالب وتصر عليها بينما لم ينضم إلى مجموعتنا أحد. وكأنني أمشي عكس التيار، تذكرت حينما عزمت حركتنا بالتعاون مع الحركات الأخرى التحرك مع المعتصمين في ميدان التحرير إلى وزارة الدفاع بالعباسية في مسيرة سلمية. كنا نطالب كالعادة بمحاكمة قتلة الثوار، وبدء تسليم السلطة

من المجلس العسكري لجهة مدنية مع احتفالهم بذكرى ثورة ١٩٥٢. ومع دعوات النزول خرج بيان يتهم الحركات بكونها تخريبية، بل وأنها تدعو للخيانة. أتذكر كم الكراهية التي سنتها لنا أسنان أهالي العباسية لنا ممزوجين بجمع من المواطنين الشرفاء، بالرغم من هتافنا: يا أهالي العباسية، المسيرة دي سلمية.

فلاش باك أخذني من صلاح سالم إلي العباسية، دخان الغاز المسيل، شتائم متطايرة، طوب وزجاجات، وكرات نار ترمي علينا. مشكلتنا أن شخصا كعلاء قد يكون في هدوء وبرود الجبل ألا أنه دائما ما يحدثنا عن المعني الحقيقي لضبط النفس، وبأن محركي الثورات الحقيقيين يجب أن يتحلوا بالصبر مهما كرههم غيرهم. سبب من الأسباب القليلة التي كنت احترم علاء عليها، حركتنا كانت صغيرة الحجم، لكننا بالقطع لم نستطع أن نقنع غيرنا بعدم الاستدراج إلى مواجهات مع أهالي المنطقة، وآخرين مندسين بينهم لسحبنا إلى صراع. حاولت الرجوع إلى شارع رمسيس، لكن المسيرة كانت محاصرة بأسلاك شائكة، الجيش من أمامنا وبلطجية وأهالي من خلفنا، ومع أذان المغرب تجرأنا للرد على مهاجمينا، فكنت قد جريت إلى شارع جانبي بجانب محطة بنزين وهناك وجدت شبابا من جميع الفئات وقد قرروا الرد بالمولوتوف ووقفوا يعدون العدة. رفعت رأسي لأرى عطية قادما تجاهي..

– أنت كنت فين يا سي عطية من الأول، مش ناوي تبطل الحركة دي..

- أنا نزلت أول ما سمعت، أنا كنت راجع من الشغل والله، بقولك إيه امشي ورايا أنا عارف العباسية كويس..

-عطية، صورت حاجة؟

- ما لحقتش أجيب الكاميرا الصراحة، أصل عبد السلام كلمني حكالي وأنا في الطريق، جبت نفسي وجيت، كنت متأكد إنك هنا..

- الأهالي سمعوا البيان من هنا وقرروا يطلعوا علينا اللي معرفش يطلعوا منا مبارك..

ضحكت ونحن نجري، شوارع جانبية بداخل العباسية حتى وصلنا الي منطقة عبده باشا.

- أنت ما وقفتش معاهم ليه؟ مش دي الحركات؟

- أم دي حركات يا شيخ، ده العيال ما صدقت تضرب مولوتوف، وبيني وبينك أنا مش مقتنع قوي، بس طبعا لازم ننزل مدام بقية الحركات نزلت.

- تعالي نركب الأتوبيس ده، وننزل العتبة ومن هناك نطلع علي عابدين، حتى لو مشي.

ثاني، عطية يراودني، ثاني مخاوف أوقفتني، عفاريت تتنطط أمام عيني وكأن بدر وشلته كانوا يتدربون في عقلي. لا يفهمني أحد، ولن يفهمني هؤلاء ممن يسكنون مصر الجديدة والاتحادية. وأكيد المعادي! أكيد تحتفل الآن هي الأخرى و"تفرقع لها شمروخين تحية" ولا تفكر في كيف

سيكون مصيرنا عندما يعلم من هم في رابعة العدوية بما وصلت إليه الأمور. أكملت طريقي تجاه الميرغني، وهناك وجدت أشخاصا وقفوا أمام شاشة تليفزيون ضاحكين، كانت صورة مرسي، جريت تجاههم..

- فيه إيه يا جدعان؟

- ده حوار متسجل لمرسي باين قبل الخطاب، الجزيرة قررت تذيعه علشان تحرق دمنا..

لم أفهم كلمة مما قال، طالما كرهته، وكرهت سيرته، وشكله، وتذكرت غبائي، فأنا قد صدقت صديقي عطية، الذي كان قد عرفني على أحد زملائه يدعى عبد السلام. كان عبد السلام طبيبا بشريا قد تعرف عليه عطية في ميدان التحرير في أيام الاعتصام الأولى. كان أنور يعرفه هو الآخر إذ كان عبد السلام شابا هادئا، متدينا دون لحية. عيناه كانتا واسعتين، وأذناه كانتا مطرطقتين. بعد أحداث العباسية الثانية التي أنقذت فيها أنور، اجتمعت مع الدكتور عبد السلام وشلة من أصدقائه، واكتشفت أنهم كانوا أعضاء في حركات شبابية أخري وانشقوا عنها ليكونوا حركة جديدة، كانوا يحاولون استقطابي للانضمام لها. لم أبد اهتماما، لم أفهم تركيبتهم بالرغم من محاولة عبد السلام إقناعي. كان قد زارنا في عابدين يوما وجلست معه أنا وعطية فقط:

- إحنا قررنا نعمل حملة كدة هنسميها "على جثتنا" لأننا مش عايزين الفلول يكسبوا الانتخابات، هدفنا الانتشار بشعارات مش بشعار الحركة نفسها. أنا وأنت عارفين الشعب مش بيحب الحركات وكرهنا،

أديك شوفت عملوا فينا إيه.

– بس مش الاسم ده عنيف شوية؟ علي جثتنا؟ فين السلمية في الموضوع؟ وإلا أنتم كحركة مش سلميين؟

– لا.. إحنا سلميين بس ما يضرش ندافع عن نفسنا؟ ولا إيه؟

– قلت لي! بتدافعوا عن نفسكم... وبعد على جثتكم هتعملوا حملة إيه؟ هانولع فيكم بجاز؟

– لا، إحنا مشاركين في حملة أكبر وبنقنع بها كذا حركة ثانيين.. اسمها "احنا هنعصر ليمون ونبقي مرسيون"..

– آه ده أنتم ظراف قوي بقي؟ أنت ما بتضحكش ليه يا عطية؟

ابتسما لأنني لم أكن أتكلم بجدية..

– يا هيثم، ما هو إحنا لازم نوصل للناس، لازم الناس تفوق من تأثير الثورة المضادة، وأنا وأنت عارفين محدش ها يسمعنا لو اتكلمنا كلام مكلكع من بتاع عم علاء.

– أه، ده أنت كمان كلمت علاء؟ هو علاء ده غاوي كدة ما يقولش على كل حاجة. بس أكيد بيقلبها في نفوخه.

– إحنا كمان معانا شوية من ألتراس زملكاوي، على كام واحد من منشقين ٦ أبريل، واللي كمان انشقوا من الجبهة الديموقراطية.

– ويا تري دول كمان على جثتهم؟

قاطعني عطية وكأنه خاطبة قد أتتني بعريس لا تعيبه العيبة:

– بس بقي يا هيثم! أنت شغال تريقة ليه؟

– مش بتريق، بس بفهم، على العموم أنا مش هسيب حركتي، وهتكلم مع علاء ونشوف إحنا ها نشترك في أنهي حملة معاكم، بس من دماغنا ما أظنش إن إحنا هنبقي في علي جثتنا، بس ممكن نعصر ليمون.

"كنت فين يا لأ، لما قلنا إحنا آه".. هذا الشخص هو من شككني للأبد في عطية ورواياته، هو وشلته التي تتكون من عبيد التسعة وتسعين إسما لربنا المعبود.. عبد الرحمن وعبد العزيز وعبد السلام وعبد الوهاب وعبد الله. أكيد عطية معهم اليوم يسن لنا السكاكين، ونحن نحتفل هنا. مرة أخرى، موبايلي يرن. كنت أظنه بدر، ولكنني ذهلت لأنه زياد. مسكت الموبايل وبلعت ريقي:

– أيوه يا زياد؟ اه أنا كنت هناك بس مش عارف أمشي، مش عاجبني الموضوع.. مش مستريح. أه بدر لسه مع أصحابه، ما أظنش دول ها يمشوا غير لما الفجر يطلع. أهم العيال دول أكثر عيال مبسوطة هنا بعد الستات. ما اظنش ها ألحق، أشوفكم بكرة طيب؟ حتى يبقى بان الحوارات ماشية إزاي؟ خلاص ماشي.

أغلقت التليفون، وكنت قد قررت العودة مرة أخري تجاه قصر الاتحادية. ولكن في محاولة للخروج من هناك إلى العباسية إلى عابدين وجدت الملايين، الشماريخ، الليزر الأخضر، الأغاني في كل مكان. كان الاحتفال كالمهرجان، تحلق الطائرات الهليكوبتر منخفضة فيعميها

الشباب بالليزر. سيدات وبنات يتدفقن كالشلالات، لم يكن أهالي مصر الجديدة وحدهم صراحة، بل وفود من كل المناطق. وأنا في طريقي لاختراق الجموع أمام نادي هليوبليس، كان قلبي يخفق بشدة. مكالمة زياد كانت كمكالمة من أمن الدولة - أو الأمن الوطني- التي تصيب الأنسان بالأرق والشعور بالريبة وكأنه مراقب. الأعداد كانت فعلا غفيرة، لن أكذب بأنها تفوق أعداد أكبر مظاهرة في التحرير، ناهيك عن أن التحرير كان ممتلئا وفقا للتليفزيون وما رأيته في الأيام القليلة الماضية. فكري قد سرح، هل يمكنه أن يكون قد عرف أنني وقمر قد مشينا في مسيرة من العباسية إلى الاتحادية سويا؟ أننا نزلنا سويا الي عدة مظاهرات منذ أن تركها؟ هل سيتفهم أننا تقابلنا كثيرا حينما كانت تقوم بجمع توقيعات تمرد لتسلمني إياها؟

- اهو يا سيدي ٢٠٠ واحدة كمان في يومين.

- طبعا طارق هو اللي لمهم، الهانم بس بتوصل..

- أنت ليه على طول بتقلل من قيمتي كدة؟

-لأ.. قيمتك عالية فوق، بس أصل أنا عارفك بكعبك ده..

أشرت إلى حذائها ثم نظرت جيدا إليه، كانت تلبس حذاء عاليا جملي اللون، كان فعلا حذاء مميز، مازلت أتذكر تفاصيله إلى اليوم، ثم نظرت لها إلى عينيها المكحلتين كعادتها:

- بصي يا قمر، أنا مش عارف أنتي جايباني الطريق ده كله ليه على

٢٠٠ ورقة؟ طيب كنت استنيت يومين كمان..

- هو أنت ليه على طول قليل الذوق يا هيثم؟

- علشان أنا في الشارع ليل نهار، علشان أنا كنت في الأقسام والنيابات بأجري وراء بدر بقالي أسبوعين مع أبويا، علشان أنا نص جيران منطقتنا ملطوطين لطة ما يعلم بيها إلا ربنا.

- كنت عايزة أصدقك، بس أنا عارفة أنه مش هوده السبب..

قالتها ونحن نجلس في كافيه في المعادي، كانت قد اختارته لنتقابل فيه لتسليم البضاعة، أو التوقيعات. كان يوم سبت حار قبيل ٣٠ يونيو بأسبوع، أول ما جلست دق قلبي قلقا وكأنني مراقب، وكأنني مصاب بفصام يجعلني أشعر دائما بأنني مراقبا، إن لم يكن من الأمن، فسيكون من زياد، وإن لم يكن من زياد، فسيكون من ضميري الذي أخذ يوبخني لأنني لم أقل لها أنني علي علم بأن زياد يعمل الآن في شركة شهيرة للبرمجيات في المعادي. ولأنني أيضا سأكذب فيما أقول..

- لا.. صدقيني، أنا فعلا مهموم من موضوع بدر ده وهو داخل علي امتحانات لازم يخلصها ويتخرج..

- أنت عارف أني قرأت عن إثنين ثانيين اتقبض عليهم بتهمة الانضمام لبلاك بلوك، نفس الطريقة، وكأن حد مبلغ عنهم منهم فيهم.

- ما هو بدر بيقول أن فيه خونة، شاكك في كام واد كده وبيقول أنهم يمكن إخوانجية متنكرين..

- وباباك كويس؟

- أهو عامل فيها إنه كويس، بس أنت فاهمة بقي..

- مش ها نشرب حاجة؟

- مفيش أخبار عن ميعاد سفرك؟

- لا لسه مستنيين الورق..

كيف يمكنني أن أوضح لزياد أن علاقتي بقمر ما هي ألا علاقة ثورية حتى النخاع.. هل أكذب عليه؟ أم أكذب على نفسي؟ فحتي لو كانت هي تظنها علاقة ثورية - أو هكذا ادعت- فأنها بالقطع لم تكن سوي قصة حب مجنونة في عقلي. أظن أن حبي لها يفوق حب زياد نفسه لها. فقمر هي الثورة التي لم يكتب لها أن تكون كما تمنيتها، ولكن كل ما أعرفه حقا أن زياد قد رحل! وأن مرسي قد رحل!

الفصل الخامس
مليونية المواجهة...!!

كان أوج خلافهما، قمر وزياد، خناقات قد وصلت أصدائها إلى شوارع عابدين، أصبحت شقة عابدين مكانا مليئا بغيوم أدخنة الحشيش، وصوت البكاء المتقطع والصراخ غير المبرر من زياد، الذي قد جعل شقة عابدين محرمة عليّ، بالرغم من أنني لم أكن الوحيد الذي اشترك في مليونيات تهدئة الأجواء بينهما. ولكن طالني ما طالني من رصاص زياد الطائش الذي أخذ يصوبه تجاهي. رصاصة أصابت كابو، لكن علاقتهما لم تكن لتتأثر بفتاة. أما علاقتنا فلم تكن مثالية كعلاقة صاحب صاحبه التي تدور بينهما.

- أنت ايه؟ أنت فعلا بتعندي وخلاص؟

كان ذلك جزء من مكالمة سمعتها بين زياد وقمر في نوفمبر ٢٠١٢. كان في اجازة ليوم واحد، وكانت قد بدأت حربها معه من أجل الخروج معا، رفض لعدم توافر الماديات، خاصة أنه كان يحكي لنا عن حرب أخري له مع الحاج عبد الحميد، وكنا جميعا على باب الله ولم نستطع حتى توفير أي دعم مالي له. إلا أنه بعد أن أغلق الهاتف أخذ يسبها بطريقة غريبة:

- هي بتذلني؟ غاوية تذلني؟ غاوية تسمع أني مفلس معاييش أشربها حاجة ساقعة من الكشك؟

ثم بدأت الحوارات تشتد معنا بعدما حاولت أنا وكابو الحديث معه لتهدئة الاوضاع، وكان يستغرب سبب تدخلنا، حتى اكتشف في أواخر نوفمبر السبب الرئيسي لتدخلنا، وحاولنا بعدها الكلام معه، ولكنه أخذ يذلنا كثيرا:

- أنتم بتخونوني.. لا وكمان واقفين في صفها؟

- إحنا كنا بنحاول نهديك.. أنت بقيت زي الثور الهايج فينا كلنا..

- أنت كمان بتشتمني؟ طيب أقسم بالله أنت ما عندك دم.. مش كفاية ساكت لك إنك قابلتها من ورايا؟

- وهو إحنا كنا بنعمل إيه؟ دي كانت معايا هي وأخوها وأصحابهم في مظاهرة..

- ضحكت عليّ يا هيثم.. ما تستهبلش..

- طيب إهدوا أنتوا الجوز... هو إحنا جايين نتخانق؟ شقة عابدين دي المفروض أنها للفرفشة ... شقتي مش ميدان التحرير... انزلوا اتخانقوا تحت.. وأنا وجورج ها نفضل قاعدين هنا، عاملين دماغ وبنسمع الكينج...

كان يعرف أو لعله كان يشعر.. غيرته كانت مطلقة، ولكنني كنت أشعر بنوع من أنواع الخجل، فأنا أحاول أن أقنعه بأنني لا أحبها. أعنفه

لأنه يرفض توسلاتها التي كانت تتوسلها لي أنا وكابو وملك لكي نهدئه، بل ولنجعله يوافق أن يقابل والدها فيما بعد. غيرته كانت تشعرني بالتقزز من ذاتي، وإن كنت أري أنه لا يستحقها. فهو ليس الرجل الذي يليق بتلك الفتاة الجريئة - وأن كنت مازالت أصنفها فرفورة- فهي جريئة عن بيئتها، تتحدي القيود، تكسر حوائط الطبقية في مجتمعنا.

كانت تمشي معي في مظاهرة ذكري محمد محمود في ٢٠١٢. لم تكن وحدها، بل كانت مع طارق وشلته. ولكن عيناها كانت دائما ما تجذبني، حزنها وبكاءها على جيكا فيما بعد أصابني بطعنة في قلبي، يا ليتني كنت جابر كي تحبني وتضع صورتي في بروفايل الفيسبوك. حزنا جميعا لموته، وخاصة بدر، الذي لم يتهاون للانتقام له. ولكن ماذا يمكن أن أفعل كي أقتل ذلك الشعور بداخلي تجاهها؟ ذلك الشعور الذي يجعلني أشعر بالخجل من زياد.

تزايدت توسلات قمر بعد عودتها من زيارتها الأولي لأمريكا لتهدئة زياد، كانت قد بدأت مع ملك وكابو، فأخذت ترسل لهما الرسائل تحثهما على التدخل لتهدئته، ولكن كابو كان يكرهها دائما، فأنا لا أتذكر موقفا ألا وقد سبها في اللحظة التي يدير لنا فيها زياد ظهره، أو في غيابه أثناء التجنيد. أتذكر جيدا تعليقه بعد يوم ٢٥ يناير ٢٠١٢ بعد مسيرتنا العظيمة من جامعة القاهرة وحتى التحرير. كان كابو يتلكأ في المشي، يمشي بجواري من حين لأخر ليعلق عليهما:

- الواد زياد بقي زي العيال السيس ماشي ماسك إيدها وكأنها مثلا

هتتخطف منه..

– يا ابني ما هو زياد طول عمره سيس أصلا.. سيبك من زياد دلوقتي؟ إيه حوارك مع ملك؟

– حوار إيه؟ أنا ماليش حوار معاها.. هي اللي لها حوارات مع اللي اسمه اسلام ده..

– لا يا رجل؟ عمل إيه؟

– لا يا عم، ده عيل أهبل عمال يكلمها كلام غريب.. فكك..

– وأنت بقي الصدر الحنين اللي بتسمع لها يا بطة؟

– بطة! والله أنت رايق؟ أنت أصلاً ماشي معانا ليه.. ليه مش ماشي مع العيال بتوع الحركات والحبشتكنات بتوعك؟ زي الواد أخوك اللي فص ملح وداب مع الألتراس..

– اسكت ده أنا لسه سايب لهم امبارح، شوية عايزين يطلعوا بيانات بمطالب وشوية بيعوموا على عوم الإخوان ورايحين يحتفلوا في التحرير..

– زي أنور طبعا... ما دول شوية ...

قاطعنا عطية قبل أن يكمل كابو شتائمه، ضرب كابو على ماسك فانديتا المعكوس على قفاه..

– حوش اللي على قفاك.

- أه شوفتني وأنا أناركي فوضوي..

- جبته منين ده؟ يا ممول يا عميل!

- ده أنا دافع فيه يجي ٣٠٠ جنيه على النعمة!

- شفت جو الشجر والاثنين ليمون اللي ورا ده..

- استلم يا عم هيثم!! أهو حتى عطية نطق..

- بس يا عطية، أنا ما صدقت أسكته..

- بس با أقول لك إيه ... هي البت تتحب.. ده كفاية الكحل اللي متكحلة بيه ده..

- ما تتلم ياد!

- بلا كحل بلا بتاع، دي حتة بت من فرافير المعادي عاملة فيها ثورجية.. كفاية أبوها اللي أستاذ في السياسة، هأو يا سياسة

- لا حوش البت ملك أم قصة اللي أنت مقرب لها اليومين دول..

- بقول لكم إيه أنتم الجوز.. ما تتلموا كدة وخلونا نتظاهر ولا شكلنا بالمنظر ده نطلع يدوبك نحتفل في التحرير.. أنا عايز نوصل عند الأوبرا أسرع من كدة علشان فيه ناس مستنياني هناك..

توقفت ذاكرتي قبل اليوم، لم أشعر برجليّ رغم أنني قد مشيت من مصر الجديدة حتى وزارة الدفاع، كنت أمشي يوم ٣٠ يونيو هذا الطريق المعاكس مع قمر وطارق وشلته. تعرفت علي طارق أكثر بعد

لقائنا الأول في جمعة الغضب الثانية، فقد كلمني بعدها وحضر معي عدة مؤتمرات وندوات للحركات وللأحزاب، ولكنه كأبوه وأخته لا يستطيع المشاركة في حزب أو حركة لأنهم يعتقدون بأن رأيهم هو الغالب. لا يؤمنون برأي الأغلبية ليعلو على رأيهم، يمكن أن يكون هذا المبدأ هو السبب الرئيسي في فراقها من زياد. فقد كان زياد رغم طيبته طاغية، وأظنها رفضت مرارا وتكرار ذلك الاستبداد.

- هيثم، بجد أنا مش عارفة أقول لك إيه!!

- ولا يهمك، هو أنا فعلا ملاحظ أنه متغير من ساعة ما سافرتي ورجعتي.. وأنت عارفة هو أعصابه تعبانة من التجنيد..

- طيب، وأنا أعمل له إيه؟ ده مش راضي يرد عليّ.. وكلمت ملك تقنع كابو يكلمه ويهديه..

- بلاش كابو، صحيح هم أصحاب.. بس كابو ده مش بيعرف يقنعه.. أنا حاولت والله من غير ما أجيب سيرة إنك كلمتيني.

- يعني إيه كابو مش بيعرف يقنعه؟ مش داخلة عليّ دي؟ أنت عرفت حاجة؟

-عرفت إيه؟ لا مفيش.. بس ما أنا بقول لك كل ما حد فينا يفتح الموضوع بيلعن سلسفيننا كلنا على بعض..

- أنا حتى كلمت طنط ناهد، بس هي بردوا تحس من كلامها أنها بتقول لي شوفي لك شوفة تانية.. إبني ماينفعكيش.

– هي الحاجة ناهد كدة، كانت نفعت نفسها ولا نفعت زياد. كلامها كله دبلوماسي علشان تخلي المراكب سايرة..

– أنا آسفة، بس أنا حاسة أنك بتكدب عليّ في حاجة!!

– أنا؟ لا أبدا، ومصلحتي إيه أني أكدب يا قمر؟

– مش قصدي! بس مش مرتاحة.. حاسة أنك عارف حاجة ومخبي..

– لا، أنا بس مخي مش فيّ، أنت عارفة بقي بنحضر ليوم ٢٥.. ها تنزلي؟

– أه، أنا وطارق نازلين مع أن أنت عارف بقي المفروض زياد هيقابل بابا..

تظل قمر ورسائلها في ذهني وهي تتوسل مساعدتنا للتدخل مع أنه كان من المفترض أن أفكر في الثورة وفيما سيحدث في الغد؟ كنت أعبر بجانب وزارة الدفاع وأنا أنظر لها متخوفا من الغد؟ هل يكون الغد أفضل كما نأمل؟ هل تخلصنا من الأخوان سيعطينا فرصة لإثبات ما كنا ندعو له؟ مع كل خطوة أنظر لسور الوزارة متسائلا: هل كنت سببا في استمرار علاقة قمر وزياد أم انهائها؟ هل بتدخلي عن طريق قريب حسن الصحفي الذي تدخل في أن يحول زياد من ضابط الى عسكري، من وحدة لأخرى، كنت سببا في إنهاء علاقتهما؟ كان قصدي مساعدته بنية صافية جدا، ولكن أظن أن تجنيده كان سببا قويا في خسارته لقمر.

أيمكن إذا ما كنت تركته للتجنيد كضباط احتياط لمدة ٣ سنوات، لكانت علاقتهم قد انتهت من أولها دون جرحهما هكذا؟! هل إذا كنت قد تركته يقضي تجنيده في تلك الوحدة البعيدة القاسية لكان قد أنشغل عن التفكير فيها والغيرة عليها؟!

قد يبدو له أنني خائن، ولكنني جريت إلى مقهى البورصة عندما عرفت أنه أغمي عليه في أحداث محمد محمود، كانوا جميعهم يبحثون عن هيثم.. كانوا كلهم يبحثون عني وكأنني السبب الحقيقي في الصدام. لم يعرفوا أبدا أين كنت؟ لم يهتموا بي مثلما اهتممت بهم. وحينما أختفيت، أخذوا كلهم يلومونني، حتى بدر. ثاني أيام محمد محمود حينما وقع زياد، كان يوما غريبا، فقد قابلت فيه فادي وتوجهنا إلى رمسيس لمقابلة بعض ممثلي حركات أخرى لكتابة بيان موحد بصفتنا مندوبين للحركة. وفي طريقنا إلى رمسيس في شارع رمسيس، وجدت مكالمة من عماد الأتربي، كان من المنشقين من عدة حركات لا أتذكر لأي حركة كان ينتمي وقتها، وأكد لي أنه سمع أخبارا أن الأمن سيلقي بقنابل غاز مسيلة في تهوية المترو حتى ينتشر الغاز المسيل للدموع في كل مكان، أو هكذا سمع. لم أصدقه أولا، ثم وجدته يصر على مقابلتي في نفس الوقت، وكان إصراره أن أقابله عند باب اللوق، فطلبت من فادي أن يسبقني للاجتماع حتى أقابل عماد. مشيت لباب اللوق، ثم وجدت أن العنوان الذي أعطاه لي كان شقة في عمارة قديمة في الدور الأول. ومع دخولي، وجدت عدة أشخاص في الشقة، أحدي هذه الوجوه وجه أصبح مألوفا لي بعد ذلك، كان عبد الرحمن صديق عطية، ولكنني لم أكن

أعرفه وقتها. ووجدت أنه اجتماع لمجموعة يتحدثون عن حتمية وضع خطط للدفاع عن المتظاهرين، جلست بجانب عماد الذي ترك كرسيا فارغا بجواره، ومع جلوسي لم يعجبني ما سمعت إذ قال أحدهم:

- الألتراس لازم يكونوا في الصورة، العيال دي كلها شبه بعض وهم الوحيدين اللي عندهم الجرأة أنهم يقفوا قدام الأمن، شوف بقالهم كام ساعة صامدين..

- ده غير أن شماريخهم بدخانها بتعمل تمويه هيفيدنا.

- طيب والتحرك هيبقي إزاي لما تظلم؟

- ما تخافوش، معانا كام واحد من أهالي عابدين حافظين المنطقة كويس، عماد.. فين صاحبك اللي قلت عليه؟

فجأة وجدتهم جميعا ينظرون إليّ، كل العيون تنظر إليّ متفحصة، فأشار عماد إليّ محاولا تقديمي لهم، وقف أحدهم ثم مشي تجاهيي وأنا في حيرة من أمري، من يكون هؤلاء؟!

- أنت تقدر تساعدنا أنت وأصحابك، إحنا لازم نوقفهم عند حدهم ومفيش غيركم ها يفيدنا..

- أنا مش فاهم حاجة؟ هم مين وإحنا مين؟

- البوليس والثوار..

-أنت عايزني أعمل إيه مش فاهم؟ إيه يا عم عماد!! مين دول؟

وحركة إيه دي؟

- إحنا حركة زي حركتك كده..

- أيوه يعني إسمكم إيه؟

- لسه ما لناش إسم، بس إحنا أغلبنا منشقين من كذا حركة وحزب وجماعة..

- جماعة؟ بيقول لك جماعة يا عماد!!

- إسمعنا للأخر... صدقني إحنا مصلحتنا واحدة..

- إننا نأجل الانتخابات؟

- إننا نوقف الشرطة عند حدها..

- بس إحنا كحركة لسه ما طلعناش بيان، ما تيجوا معايا الاجتماع مع بقية الحركات..

وكزني عماد في كتفي قائلا:

- ما قلنا لك منشقين! إحنا ما نقعدش مع العالم دي..

- طيب أنتم جبتم خبر الغاز المسيل منين؟

- لنا ناسنا وعارفين!

- قلت لي!! طيب بصوا يا جماعة.. أنا مليش في القعدة دي..

مع وقوفي ظهر استياء عماد الشديد وحاول أن يجعلني أجلس مرة

أخري. حتى قام عبد الرحمن ومشى إلى بأذنيه المطرطقتين قائلا:

- بص يا هيثم، أنتم لستم أكثر منا ثورية.. إحنا هدفنا واحد..

- قلت لي أنتم وإحنا ثاني! بص أنت يا إسمك إيه... أنا ماشي..

وصلت إلى حدود باب الشعرية، كانت الشوارع كلها تحتفل، وبالرغم من أن كل شيء كان يدور في ذهني، فلا أحد كان يشعر بخيبة أمل مثلي. "شيلنا مرسي، بس ما هو لازم نشكل وزارة، لازم البوب يبقي رئيس الوزراء، لازم جبهة الإنقاذ تخلص من الفلول اللي فيها، لازم محدش يحكم مع عدلي منصور، لازم!! " . كلام يدور في ذهني ممزوجا مع ذكريات متقطعة، وتليفوني لم يكف عن الرنين. مكالمات من كل الشلة لم أرد عليها، فادي وأخرين، كلهم الآن يريدون هيثم، كلهم يسعون وراء تحليل هيثم وحنكته السياسية، وهيثم لا يفهم سر تلك الانقباضة في روحه. ثم رن موبايلي " البوب الكبير".

- أيوه يا بابا!

- أنت فين؟ أنت مع بدر؟ كلمته، مش بيرد؟

- عمال يتنطنط زي القرد المسلسل في الإتحادية..

- مبروك يا حبيبي، عقبال الباقي..

- تفتكر هيبقي فيه باقي؟

- إن شاء الله، ولو مفيش.. نعمله إحنا..

- لسه متفائل؟

- طول ما أنتم الاثنين بره السجن ها أفضل متفائل..

- بقول لك إيه يا حاج، أنا في السكة، تيجي نقعد في السطوح؟ نفسي أتكلم معاك..

- أكيد، يلا مستنيك، بس بأقول لك تعالي من ورا أحسن العالم قافلين التحرير خالص..

فجأة شعرت بحاجة شديدة لأن أصارح والدي بما يحمله قلبي، هو الوحيد الذي يحاول أن يفهمني على المستوي الشخصي، شعوره بالتقصير معنا في طفولتنا حيث كان يتركني أنا وبدر ويدور في الأقسام والمحاكم للدفاع عن السياسيين جعله يتقرب مني بشدة حينما قررت أن أدخل كلية الحقوق مثله. دائما مهموم، دائما يقرأ القرآن كلما شعر بالخطر، يتوقف قلبه إذا كنت أنا أو بدر في مشكلة، كان دائما يقول " أنا بأبقي واثق أني ممكن أخرج العجل من بطن أمه، وبأبقي زي الأسد قدام النيابة، إلا لو القضية فيها حد منكم". كانت حالة والدي تصل إلى الجنون حينما يتم القبض علي بدر بالذات، فبالنسبة لأبي، بدر هو أخر العنقود، حبيب أبوه، فمهما كان يحبني لأنني أحمل صفات كثيرة منه، إلا أن روحه كانت في بدر.

كانت حالة أبي النفسية متدهورة حينما تم ضرب بدر في أحداث مجلس الوزراء. كان بدر قد نزل خصيصا لأن حركتي كانت من ضمن حركات قليلة قررت الاشتراك في الاعتصام أمام مجلس الوزراء. لم

اعتصم لأن الصراحة فكرة أني أعيش في محمد محمود كانت في حد ذاتها اعتصام. وبالرغم من ذلك كنت أجلس هناك ليلا مع المعتصمين أغلب الوقت. فجأة سمعنا أصوات صراخ من ناحية سور المجلس، وكان هناك شاب ملقى على الأرض في حالة إعياء من كثر الضرب، علامات الضرب المبرح كانت ظاهرة. جري به بعضهم إلى مستشفى أحمد ماهر، لكنني لم أذهب لأني انشغلت باختفاء بدر. كانوا يلعبون الكرة وفجأة لم أره بعدما تحركت وانشغلت مع فادي في كتابة بيان علي الفيسبوك، كنت قد كلمته على الموبايل لكنه لم يرد. جريت بأقصى سرعة تجاه شاب كان يلبس تيشرت الزمالك، وكان يجري:

- أنت كنت بتلعب كرة؟

- بأقول لك إيه، أنا ماليش في حاجة، أنا ماشي.

- حصل إيه؟ رد!

- مفيش يا عم.. واضح إن العيال راحت ورا الشمس.. سيبني أمشي..

- تعرف بدر؟

- صاحب ياسين؟ أه هما جريوا بس باين بدر اتمسك، بس ياسين جري.. أنا شوفته.. سيبني أمشي بقي..

أسرعت إلى منزل ياسين في شارع الشيخ ريحان لأنه لم يرد عليّ هو الأخر، وهناك وجدت شابين يقفان أمام شقته.

- أنت مين؟

- أنا أخو بدر، هو ياسين جوه؟ إيه اللي حصل؟

- إحنا كنا بنلعب كرة، بس مش هنقول أكثر من كدة

- وياسين جوه؟ وبدر؟

- بص أنا مش عارف مين جوه.. بس ياسين مضروب جامد، أدخل بس بشويش علشان إحنا عايزين نمشي أحسن ييجوا يمسكونا..

دخلت لأجد ياسين واقفا ووجه منتفخ من أثر ضرب، ارتبك لرؤيتي..

- فين بدر؟

- بدر جوه بس بأقولك ايه؟ والنبي إهدي إحنا مش ناقصين..

- فيه إيه؟؟

- إحنا مستنين الدكتور.. إحنا أكلنا علقة ما أكلهاش حمار في مطلع يا هيثم..

- طيب غور من قدامي.

دفعته بعيدا وأنا أجري، لم أكن أفكر إلا في ماذا سأقول لأبي. دخلت لأجد بدر غارقا في دمه، وكانت رجله في حالة يرثي لها، كان لونها أزرق وملطخة بالدماء. كان طبيعيا بعد معرفة أن رجله مكسورة وأن به رضوضا كثيرة وقضاء ليلة في المستشفى، وسط عويل أمي وإصرار

أبي علي تقديم بلاغ للنائب العام، أن أسرع إلى الاعتصام. كان الفجر قد لاح وكان علاء قد حاول الاتصال بي. وما أن وصلت حتى وجدت حالة من الهستيريا والتراشق المتبادل للطوب والحجارة وكسر الرخام، بل وزجاجات المولوتوف. كانت قوات الأمن ترش المتظاهرين بالمياه. وجدت عدة وجوه لم أرها من قبل، ليسوا من أهالي عابدين، وليسوا بمتظاهرين معتادين، وليسوا من المعتصمين. ظننت أن التغريدات قد انطلقت وبدأ التوافد إلى أرض المعركة. أخذت أكلم فادي ليبدأ بالتغريد هو الأخر، ولكنه لم يرد. حاولت الاتصال بعطية لكنه لم يرد.

فجأة وجدت عدة شباب ملثمين بأوشحة فلسطين، يرمون زجاجات المولوتوف، ليرد عليهم بكرات من النار، الأمر الذي أدي إلى تهدم سور مجلس الشعب. ومع ظهور الشمس، أخذت تنهال علينا قطع الأثاث وأطقم الشاي والطوب من فوق المبني، وفجأة وجدت عطية.

- هو أنت يا بني آدم كنت فين؟

- والله، كنت نايم.... صحيت لما عبد الرحمن كلمني..

- فين الكاميرا؟ حاول تزووم على العالم اللي واقفة فوق دول.. شكلهم مش بوليس؟ طلعوا فوق إزاي دول؟!

- يا عم تلاقيهم إما بلطجية، يا إما شوية مخبرين..

- إيه البتاعة اللي أنت لابسها فوق دماغك دي؟ وماجبتش ماسكات

غاز ليه؟

– بص يا هيثم، أنا أصلا في حوار كدة النهاردة وها أسيبك.. إيه رأيك تخلي الكاميرا معاك، وأنا ها أروح أقابل شوية ناس تبع عبد الرحمن ونتصرف..

– طيب بأقول لك إيه.. بدر اتضرب بالليل ورجله اتكسرت... خلي بالك..

– إطمن، أنا ها أروح أجيب حق بدر!

لم أكن لأتكهن وقتها ماذا كان يخطط في تلك الليلة، ولكنني عرفت لاحقا. تنكر عطية وكأنه من أولاد الشوارع، كان قد حلق شعره بشكل غريب ولهذا كان يخفيه، ثم ذهب إلى ما وراء الأمن، وقف وكأنه من الطرف الثالث، أو هكذا كان يردد. أخذ يحلف لي بعدها بعدة أسابيع أن تلك هي الحقيقة، وأنه شارك في حرق المجمع العلمي. كم كنت أحمقا، بعدما عرفت الحقيقة لاحقا، صدقناه وقتها كالسذج، لم نشكك أبدا في رواية صديقنا خاصة وأنني كنت قد صورت بكاميرته العديد من الوجوه التي قد تكون متهمة بحرق المجمع العلمي، وكذلك وجوها أخرى كانت قد ساعدت في إطفائه. ولكن بينما كنت أغرد على تويتر وأكتب شهادات في طريقي للعودة مرة أخري إلى المجمع بعدما سلمت عطية الكاميرا فوجئت بأيادي تقبض على وأنا أقف خلف سيارة قديمة مركونة قد كساها التراب. كنت على وشك أن أفقد مستقبلي للأبد، فقد كانت تلك هي المرة الأولى لي التي يتم القبض على فيها بصفة رسمية،

إلا أن فادي وعلاء أنزلوا بيانات بالاشتراك مع حركات أخرى قد تم القبض على بعض أعضائها لتحريرنا حيث إننا قد تم القبض علينا بعيدا عن المجمع، بالإضافة لأننا كنا نغرد، والدليل وجود التغريدات مما ينفي مشاركتنا في إشعال الحريق.

بعد إطلاق سراحي ووصولي إلى سطح عمارتي، وقفت مع أبي ننظر إلى الليزر على مجمع التحرير، ووجدتني أحكي له شيئا من تفاصيل ذلك اليوم:

– الواد فادي جالي بعد ما عطية مشي، وكانت راسه وألف جزمة أننا ما نضربش، وإننا نكمل تصوير، بس أنا كان همي الكاميرا لتتكسر، بس فضلت أحاول أصور... المشكلة يا بابا إننا شفنا وشوش غريبة كثير، عيال غريبة كده ما نعرفهاش. حتى مش عيال الألتراس اللي جم كلهم الصبح، والخرطوش زاد بعد الصبح ما طلع..

– أنت إيه اللي فكرك باليوم المنيل ده. ما صدقت أنك نسيته..

– حد ينسي إنه اتضرب؟ إنه اتسحل؟ إن ست البنات اتسحلت؟ حد ينسي صوت الخرطوش ووش الشيخ عماد؟ حد ينسي وش الناس اللي حرقت المجمع العلمي ووشوش اللي طفوه وبعدين بقينا إحنا المتهمين؟ حد ينسي إنه يتقبض عليه؟

– لا ما بننساش، بس إيه اللي فكرك؟

– يمكن خايف من الخيانة...

– مين يقدر يخونك؟

– ما أنا اتخانت خلاص واللي كان كان، إن كان من عطية اللي طلع ممول علشان يصور الأحداث ويبيعها للجزيرة، ولا من أنور اللي بيقول عليّ كافر ومخونني وبيقول لي إني أمنجي وراح رابعة؟ ولا من علاء اللي طلع بياخد فلوس وحتي ما بيدناش منها ومستكردنا كل ده؟ ولا حتى بدر اللي كنت فاكر إن سره معايا وطلع بيكدب عليّ وطلع عينيّ لحد ما عرفت بالصدفة إنه من مؤسسي البلاك بلوك؟ ولا من زياد اللي بيخوني وبيقول أني مش جدع؟ بقي أنا مش جدع؟ ده أنا دوست علي قلبي علشان يرجع لها.

– هي مين؟

– عمرك ما ها تفهمني..

– جربني؟

– هي.. الثورة!

– ها أعتبر أن اسمها ثورة ... مشكلة الثورة إيه؟ مشاكلك مع بقية العيال طبيعية، ياما الأيام ها تثبت إن فيه مندسين بيننا، وفيه ناس مختلفين معانا في طريقة حبنا للبلد.. ويا سيدي لو علي بدر.. أضربه لك علقة، ولا بلاش.. ما هو أخذ ضرب يكفيه عمره كله.. لكن مشكلتك مع الثورة هي اللي عاملة فيك كدة؟

ابتسمت وأنا أتخيل بدر وهو يضرب كل يوم، فكرة أن أبي حاول

يفهم كانت مريحة ذهنيا، لكن ماذا يمكن أن أقول له؟

– أنا والله ما خاين، أنا كنت بأنزل المليونيات زيي زي أي واحد في حركة، أي واحد مؤمن بمطالب الثورة... ولا كان في مخي أني أشوفها، عليها كحل يا بابا بيخليني أعرف أنا بأحب مصر ليه، محددة، عارفة هي عايزة إيه؟ عندها تحليل للأحداث غيرنا، بتفكر غيرنا، ثورية بس على طريقتها، مستفزة.

تخيلي لعينيها أوقف لساني عن التعبير، عصبيتها وهي تصرخ في وجهي يوم ٢٥ يناير ٢٠١٣ أثارتني، مشاعر بداخلي لا يمكن وصفها مهما حاولت. كنا نمشي مجموعتين منفصلتين في مسيرة شبرا، أغلب شباب الحركة بجانب الألتراس، وكان من بينهم طارق، ثم مجموعة أخرى مكونة من سبع شباب من أصدقاء طارق، وطارق نفسه، وسارة، وقمر. مشيت بجانبهم بحيث أستطيع أن أرى بقية الشباب في نفس الوقت. لم يهدأ الألتراس، فمحاكمة قاتليهم كانت في اليوم التالي، ولم يكن بدر ليهدأ أبدا خاصة بعد مقتل ياسين وأغلب أصدقائه. كانت قمر متحمسة، بالرغم من أنها كانت تنظر كل حين وأخر في الموبايل، وكأن روحها كانت معلقة في الهواء. ومع دخولنا إلى شارع رمسيس، فوجئنا ببضعة ملثمين يتوجهون ناحية جريدة الجمهورية، وأخذوا في قذف الطوب تجاههم، لم نبال حيث لم تكن معركتنا، فهتافنا كان واضح " يسقط يسقط حكم المرشد". رأينا عربة نقل صغيرة تحمل شخصيات ثورية يهتفون تنديدا بحكم الإخوان، كنا كلنا متحمسين

فتبعناهم إلى شارع عرابي. كانت هناك مجموعات كبيرة قد تلاقت مع مسيرتنا، ففقدت رؤيتي لبدر. ومع دخولنا شارع عرابي، سمعنا صوت طلقات خرطوش. كنا قد مشينا حتى تقاطعه مع سليمان الحلبي، وفجأة بدأت الجموع تتراجع، ونداءات للبنات بالرجوع إلى الخلف، بينما هتف آخرون لإقناعنا باستكمال المسيرة وأنه لا مجال للرجوع. ثم فجأة وجدنا كرات نار وطوب غزير يسقط على أول المسيرة التي كنا في منتصفها، وتعالت صرخات الفتيات، فوقفنا على ناصية سليمان الحلبي نشاهد الموقف، وجدتني مع طارق وشلته ننظر جميعا إلى أعلى المباني في محاولة لمعرفة من أولئك الذين يحاولون الهجوم علينا، بل ويحاولون جاهدين أن يحولوا دون وصول المسيرة إلى التحرير. وفجأة دوى صوت طلقات رصاص، انبطحنا جميعا، وجدت قمر تقول لطارق شيئا ونحن منبطحين، ألتفت لطارق لأجده يشير على شقة قد فتح زجاج شباك بلكونتها حيث الرصاص يخرج منها، وكان يتدلى من تلك البلكونة بوستر مهلهل مكسو بالتراب كان يدعو لانتخاب مرسي رئيسا. ومع إغلاق الزجاج، وقف طارق قائلا:

– إحنا ندخل سليمان الحلبي ونخرم على التحرير من أي شارع جانبي..

– بس الضرب هدي والناس كلها ابتدت تتحرك، تعالوا نكمل معاهم..

لم أكمل كلمتي وفجأة وجدنا نارا قد أمسكت في شجرة تحت أحدي

المنازل، فصرخت قمر قائلة:

- بيرموا كرات نار كمان، دول اتجننوا رسمي..

- خلاص يا هيثم تعالي نرجع، اسمع مني..

أخذت عيناي تبحثان عن أي من أعضاء الحركة، ولكن مع وقوفنا جميعا، وجدنا عشرات من الشباب الملثم قد فتحوا طريقا على الجانب الآخر من الشارع وهم يدعون الجميع للمرور لاستكمال المسيرة في شارع عرابي وصولا إلى ميدان عرابي، وأخذ بعض هؤلاء الملثمون يحاولون إطفاء الحريق، وآخرون يضربون الخرطوش في الهواء. وقفنا لحظات نراقب المشهد حتى قال طارق:

- خلاص تعالوا نكمل؟

- لا، مش مطمنة، احنا ندخل سليمان الحلبي..

نظرت إليها وقلت لها وأنا أنظر إلى عينيها الواثقتين على الرغم من قلقنا جميعا:

- تعالوا نكمل، امشوا ورايا في طابور كده على الناحية الشمال، وأنا ها أحاول أكلم العيال اللي قدام يحاولوا يأمنونا، أنا شايفهم بيعدوا الناس..

وافقوا جميعا من نظراتهم، ومع مرورنا بجانب الملثمين الذين أخذوا يطمئنوا الجميع بأن الشباب قد صعدوا إلى العمارة التي يضرب منها الرصاص، نظرت في عيني أحدهم:

- أنتم بلاك بلوك؟

- أه.. إحنا اللي بنحمي الميدان، والله ما بلطجية زي ما بيقولوا، عدوا.. عدوا..

مع مرورنا إلى ميدان عرابي أردت أن أشكر أحدهم. كان يقف يتكلم مع أخرين في زاوية، وحينما التفت إليّ عرفته من عينيه، كان أخي بدر!

سحب أبي نفسا من سجائره، ثم نظر إليّ قائلا:

- يعني أنت عمرك ما كلمتها في حاجة شخصية وهي مع زياد؟

- عمري..

- يبقي مش خاين..

- بس مينفعش أحبها..

- علشان صاحبك؟

-علشان يوم ما عرفت أن بدر بلاك بلوك، كان هو نفس اليوم اللي سابها فيه زياد، وهو نفس اليوم اللي عرفت أنها ما تنفعنيش..

- مش فاهم..

- مش قلت لك يا أبويا؟ عمر ما حد ها يفهمني..

- يا ابني أنت قافش عليّ ليه؟ جادلني... أدخل عليّ بمرافعة.. سيدي القاضي، حضرات المستشارين... أنت عايز تحكم عليّ كدة على طول؟

- يومها قمر زعقت لي..

- وده اللي يخليها ما تنفعكش؟

- لا، علشان هي قالت حاجة أنا عارف أنها عندها حق فيها..

- يا واد فهمني؟ قالت إيه؟

- قالت لي حاجة أنا ما حكيتهاش ، قبل ما نعدي في شارع عرابي، قالت لي: أنت مش بتفكر صح، وبتخاطر مش بس بنفسك، بتخاطر بينا كلنا.

- في دي هي عندها حق.

- والنهاردة بردوا قالت كلام شبهه... بس يا بابا قمر مستفزة..

- أخيرا عرفت أن أسمها قمر.. وهتلاقيها زي القمر.. البنت اللي خلت هيثم بدرالدين بجلالة قدره متدربك الدربكة دي..

- هيثم بجلالة قدره في نظرها حتة حمار..

- حمار علشان إيه؟

- علشان بيتضحك عليّ، قمر ياما كانت بتشك في عطية، ياما حذرتني من أنور، ياما حذرتني من أن بدر حيتاخد في الرجلين..

- أنت عمرك واجهتها؟

- وعمري ما ها أواجها.. أنت برضه مش فاهم..

– يادي النيلة.. طيب بص.. اتفلق.. أنا نازل أنام أحسن أنا حران ويومنا كان طويل..

انصرف والدي، وظللت أجلس في السطح. كان الجو حارا لدرجة جعلتني أتصبب عرقا حتى ظننت أنني قد أصبت بضربة شمس من يومي الطويل. كنت دائما أحب سطوح عمارتنا الذي طالما كان مسيطرا عليه من قبل قوات الأمن بعد الثورة. لم تكن عمارتنا التي تتوسط شارع محمد محمود لتهنأ بسطوحها أو بالهدوء. صرنا ننام كالملائكة على أصوات الرصاص والقنابل المسيلة. قررت أن استحم وأدخل سريري لأنام، ولكن أفكارا كثيرة أخذت تراودني، مخاوف، تجميع لنقاط، لأول مرة اكتملت دوائر في ذهني كانت تنقصها حلقات. بدأت الحلقات تتبلور في عقلي، أخذت تلف حولي كالقمر حول الأرض، لم تكن سوي وجوه، وجوه أتذكرها لتكمل تلك الحلقات، ووجه القمر كان بطل هذه الحلقات. هي من جعلتني أفهم أنني كنت مغفلا، من ضحك عليه الجميع حتى أطيبهم. حتى جورج قد ضحك عليّ، قد خانني، حينما عرفت أنه قد تقدم للهجرة إلى كندا، أخبرني بذلك بالرغم من أنه كان قد جمع مئات التوقيعات على تمرد. أتذكر احمرار وجنتيه وهو يخبرني عندما قابلته بالصدفة أمام تمثال طلعت حرب في مايو أثناء عودتي بعد أحداث المقطم. كنت مرهقا جدا:

– ده احنا إديناهم علقة عمرهم ما ها ينسوها..

– بأقول لك أنا قررت أهاجر وهو ده ردك..

- طيب ما أنا ضربتهم لك علشان ما تهاجرش..

- بطل هزار يا هيثم

- ما أهو أنا لو بطلت هزار، ها أشتمك يا جورج يا ابن أم جورج..

- أنا ماليش عيش في البلد دي..

- أمال إحنا كنا بنعمل ثورة ليه؟؟ مش علشان العيش والحرية والعدالة بالملوخية!!

- بطل هزار!

- جورج.. كل ده علشان فيفان.. أجيبلك ست ستها.. إيه رأيك في البت بنت أم عفاف؟ البت المسلوعة دي؟

- أم عفاف مسلمة وبعدين هو أنا قلت إنه بسبب فيفيان؟!

- طيب والعدرا ما أنت مسافر..

- لسه شوية على العموم، كدة كدة ما تخافش.. مش هسيب مصر غير لما اتأكد أنها في إيدك يا هيثم..

حتي جورج ذهب ليحتفل اليوم في الاتحادية، ثم بعد شهر يسافر إلى موطنه الجديد، كندا العظمي، تاركا وراءه مصر، لاعنا الثورة، متبرئا من عابدين. لماذا أشعر أنا وحدي بالخوف من المستقبل؟ لماذا أشعر أنا وحدي بالتعلق الشديد بمصر؟ بعابدين؟ بقمر؟!! فأنا بالقطع لا أستطيع أن أفكر في موضوع سفرها هي الأخرى، كيف يعيش زياد

بعد أن تركها؟ بكي يومين ثم عاش؟ يعمل وأصبح له مرتب؟ يخرج ويعيش حياته؟ أصبح "ملو هدومه" على رأي الست أمي؟ كيف عاش بعد أن تركها؟ وكيف لي أن أعيش بعد أن تتركني؟ كيف لها أن تترك مصر؟ حتما لن تعود.. حتما ستنسي مصر بعدما نست عابدين.. عابدين التي لم تطأ أرضها بعد انفصالهما. هل أواجهها؟ هل أقف أمامها لأرد عليها مثلما رددت عليهم يوم ما صرخت في وجهي متهمة إياي بأنني لا أفكر في حياتهما؟ أواجهها مثلما رددت عليها يومها بأنني لن أخاطر أبدا بحياة أعز الناس لقلبي؟ هل فهمتني يومها؟ أم كان عقلها مشغولا بمواجهة زياد مع أبوها؟ هل أواجهها بأنها قد أصبحت أعز الناس الى قلبي حتى أنها جعلت من إسراء سرابا؟ يااااه اسراء، البنت المغلوبة على أمرها، التي أضاعت مراهقتها معي ومع عصبيتي، البنت التي تحملتني وظننت أن تحملها حبا؟ ظننت أنها ملجأي لأنني أنفث عصبيتي عليها. ولكنني لم أعرف معني الحب حقا، فقساوة موقفي مع قمر، عرفتني المعني الحقيقي للعشق. لم يذكر أي شخص أن الحب راحة، كلهم تكلموا عن سهر الليل والتعب جراء الحب. قساوة حب مصر، يشبهها، تماما كما يعاني الكينج في أغانيه، تماما كعشق قيس لليلي. أشعر وكأنني أتكلم كزياد، فلطالما كان يتكلم كالأبله كلما كان يذكرها، ولطالما كرهت كلام الحب والعشق والولع. أصبحت عاشقا للقمر، أدندن أي أغنية تذكره "أنا اللي واخد على القمر ومكلمه". ليست شخصيتي. هل هي حقا كما وصفها زياد؟ تقتل شخصيتك؟ تجعلك تابعا لها؟ راضيا بما ترميه إليك؟ تتلذذ بتعذيبها لك؟ ولكن كيف لي أن أظلمها دون أن أواجهها؟ دون

أن أقول لها ألا تسافر بعد أن أقنعتها بأن سفرها فرصة يتمناها الجميع؟ أنا من أقنعها بالهروب، والآن أخاف أن أواجهها بعكسه!! كيف لي أن أواجه والدها؟ لا أستطيع أن أضع نفسي موضع زياد؟ هل كان أكثر جرأة؟ علي الأقل كان جريئا جرأة رفضه المشاركة في تمرد، جرأة أنه لم يتمرد، فقد تجرأ من قبل وحلم بأنه يستطيع أن يصل إلى القمر؟ كيف لي أن أكرر غلطته؟ وحتما يظل التساؤل الأكبر.. كيف أواجه زياد؟

الفصل السادس
وجه فانديتا .. ووجه القمر

– أنا مش شايف يا فادي

–ولا أنا، أقف متتحركش

– لو متحركناش ممكن نتضرب

– عيني بتتحرق، مش قادر يا هيثم

– طيب هات ايدك... امشي ورايا

لا أستطيع أن أنسى كم عانينا أنا وفادي في هذا اليوم، ضربت قنبلة غاز على بعد خطوات مننا في شارع منزلي، من أوائل القنابل التي ضربت في احداث محمد محمود. رأينا بأمهات أعيننا القنبلة تهبط بجانبنا، وكأنها تهبط بالبراشوت لتصل إلى الأرض، ونظرنا إليها وكأنه فيلم يعرض بالحركة البطيئة، وفجأة: بوم ... رائحتها كانت مقززة، غريبة، أصبنا بعمي وقتي، ثقتي في أنني سأمشي دون أن أري كانت لأنني أحفظ شارعي عن ظهر قلب. كل قطعة حجر في الرصيف، أيهم سليمة وأيهم مكسورة. مشينا كالزومبي في صمت تام، خوفا من أن يسمعنا أحد، كنت اصطدم بأشخاص، ولكنني لم أنطق بكلمة واحدة.

ثقة فادي كانت عمياء تماما كعمانا اللحظي، ظللنا نصارع الأدخنة حتى دخلنا إلى منشية المهراني، وقفنا نصرخ حينها إذا كان أحد يحمل مياه غازية، غسلنا أعيننا وأخذنا بضعا من الوقت حتى رأينا مجددا. أول ما فتحت عيناي، مسكت الموبايل لأكلم بدر، كنت على ثقة أنه في الصفوف الأولى من الاصطدام حيث كنت أنا وفادي نحاول الوصول لها، ولكننا لم نستطع. كانت الشبكة غير متاحة، لم أعرف الوصول اليه. مع وقوفنا بدأنا نري وفود من الشباب الصغير المنظم وكأنهم الالتراس يحاولون الخروج مجددا إلى محمد محمود، أخذت أبحث بعيني في وسطهم علي بدر، ولكنني توقفت حينما لمحت تيشيرت الزمالك. لم يكن ليبدأ التحرك معهم أبدا مهما كانت مدى تقارب المجموعتين في الاحداث كلها. ظللت مع فادي واقفين نفكر فيما إذا كان التصرف السليم هو التواجد في محمد محمود أو الخروج والدخول لنقل الأخبار على تويتر وفي محاولة إصدار بيان عن الحركة إذا وجدنا علاء الذي لم نستطع الوصول له. قررنا المشي بعيدا عن محمد محمود حتى يبدأ الموبايل في العمل، ومع أول نظرة على صفحة الحركة وجدت أن علاء قد أخذ يدعو الشباب إلى النزول، مع التأكيد على ضرورة احضار أساليب وقائية من الغاز المسيل. قرر فادي أن يذهب إلى منزل أكرم زميلنا في الحركة في رمسيس لإحضار أشياء لمساعدتنا على الدخول والخروج ببساطة، بينما قررت أنا البحث عن بدر. كان قلبي غير مطمئن بالمرة. بالرغم من أنني كنت متحمسا للمشاركة في مواجهة طال انتظارها، فكم كنت أشعر بالأدرينالين يتدفق في عروقي وكأن طبول الحرب تقرع

في قلبي لتذكرني بأخر أحداث شعرت فيها بالثورة، بأحداث موقعة الجمل، ألا أن قلبي كان يشعر بخطر ما. ثم فاجأني شابا ملثما يناديني بإسمي:

- مين؟

- أنا سامح، ٦ أبريل الديموقراطية.. ازيك يا هيثم؟

- زفت، عيني باظت، كويس أنك جبت ماسك

- أه، أنا شوفت التويتات ونوارة نجم كاتبة عن اللي حصل. أنتم طلعتم البيان صح؟

- لا لسه، بس علاء نزل دعاوى للنزول.

- احنا لسه بنشوف الوضع إيه.. بس شكلنا بردوا هنزل دعوات. لازم نواجه بقي.. علي جثتنا مجلس الشعب ده يتعمل.

تصببت عرقا شديدا أيقظني من نومي، لماذا أتذكر هذا الحوار؟ لماذا فجأة تظهر لي الحقائق جلية؟ لماذا الآن ولم تظهر مسبقا؟ نظرت في الموبايل لأجد الساعة الثالثة فجرا، ولكن عرقي لم يكن بسبب الحر، جسمي كان يؤلمني، وكأنني قد أصبت بحمى ما. نظرت إلى سرير بدر، لم أجده، ظللت في السرير أشعر بالألم الذي بدأ يتحرك إلى رقبتي، رأسي، أسفل ظهري. لماذا استيقظت لأتذكر سامح؟ لأتذكر أنه "على جثته"، وفجأة جلست على السرير أسحب رجلاي لأقعد، لأفكر.. سامح هو الأخر "كان على جثته؟" أين سامح الآن؟ لم أراه في الاتحادية؟

فتحت الموبايل، صفحته على فيسبوك، أنه في رابعة! هو الأخر؟ ثم أخذ عقلي يفكر في أسامي؟ أدم.. الاتحادية، عمر.. رابعة، صلاح.. الاتحادية، سلامة.. أم دول على دول. وفجأة أخذ الموبايل في الارتعاش في يدي، كنت قد أغلقت الصوت، لم يظهر الاسم بعد، ولكنني كنت متأكدا من أنها هي.. قمر!

- إيه اللي مصحيك؟

- تعبان، حاسس أني سخن

- سلامتك، وقفت في الشمس كثير؟

- تعب كذا يوم وشمس وتفكير... نظريتك واكلة نفوخي

- لو كنت أعرف أن كلامي هيأكل نفوخك، مكنتش قلته

- عارفة يعني ايه أني عمال افتكر حاجات كلها مرتبطة ببعض، كلها حقائق كنت فيها ومكنتش واخد بالى، عارفة يعني إيه بتنامي تحلمي بوشوش الناس؟ وشوش كلها كانت مندسين بنا. كلهم يا قمر، أنا هتجنن

- طيب نام، خد دواء ونام.. وفكر بعدين

- مش عايز أنام، قمر أنا ...

- أنت بتحبني وأنا عارفة، بس مينفعش يا هيثم

- والله ما تخيلت أبدا أني أقولها لك، طول عمري كنت واثق أنكم

مكتوبين لبعض

– كنت عبيطة زيك كدة

– عارفة أنا أفتكرت إيه؟

– افتكرت إيه؟

– يوم ما كلمتيه لقتيه مغمي عليه، يوم محمد محمود. كنا كلنا واقفين بنحاول نصحيه علشانك.

– أنت بتفكرني ليه؟

– علشان أنتي أكيد بتنكري أنه مشي، زي ما الأخوان عمرهم ما هيعترفوا بأننا شيلنا مرسي

– بكرة كلنا ننسي

– قبل اليوم ده، كنت في ميدان باب اللوق مع بداية فض الاعتصام، ولما وصلت التحرير لقيت دخان كثير، ضربوا قنابل غاز كثير قوي وكان المعتصمين ولعوا كاوتش علشان يغطوا عليه كالعادة. ومع دخولي الى التحرير وشوش ابتدت تبان، شوفت عطية وعبد الرحمن صاحبه، بس غير كدة كان فيه ناس كثير معرفهمش، شكلهم مش مألوف، وسط الدخان شوفت وشوش كثير يا قمر، أنا فاكرهم لدرجة مخلياني عايز أرجع. العيال دي هي اللي أنتي بتقولي عليهم... أنور كان هناك معاه، حتى أنور يا قمر؟ بس والله الغاز كان غريب، كل شوية يطلع لنا واحد مغمى عليه، واحد واخد رصاص في بطنه، أو عينه. كان فيه طلبة كثير،

عيال أصغر من بدر، أنا شوفت منهم كثير ناحية أول محمد محمود لما أنا وفادي دخلنا المنشية. قمر أنا مش بخرف، بس تفتكري مين فينا اللي صح؟

– محدش صح، وأنت بتخرف علشان شاكلك جالك ضربة شمس.

– قمر، فاكر وش رجل بدقن ماشي يوزع كتب على الناس في الميدان، تفتكري كانت كتب إيه؟ أكيد كانت تعليمات... أكيد عبد الرحمن وعبد السلام كانوا بيستغلوا العيال، أكيد

– هثيم، اهدي... أنا كلامي مجرد تخمين.. مش أنا اللي كنت في الميدان. أنتم اللي كنتم هناك

– ياسين وبدر قعدوا يحكوا، فيه عيال مش ألتراس أهلاوي ولا زملكاوي في وسطهم. فيه عيال كانوا مع بدر في حراس الميدان، بدر بيحلف أنهم عمرهم ما هاجموا الإتحادية.

– أنا عارفة، بلاك بلوك مكنتش هي اللي بتعمل كل ده. أنا واثقة أن بدر عمره ما كان هيعمل كان حاجة كدة. هما استغلوا وش فانديتا، استغلوا الخير وقلبوه شر، علشان يكرهوا الناس في فانديتا

– بدر كان لازم يأخد بتار ياسين، كان لازم يخبي علينا، كان لازم يخبي وشه علشان ميتجبش، بس جابوه، عرفوا طريقه وجابوه

– فاكر يوم ما كان كابو جايب ماسك فانديتا؟ هو ده اليوم الأسود اللي كان السبب، يومها كلنا كنا هبل ومصدقين

- يومها كنت بكرهك يا قمر، يومها كنتي زي القمر، بوشك، بوش عماد عفت، بوش فانديتا

- أنت ليه مصمم تفكرني يا هيثم؟ أنا عايزة أهرب، بس مين قال إن الهروب هو الحل؟ مين قال إن تغيير الوشوش هو المخرج الوحيد؟ مين قال إن الحل هو أني أسيب مصر؟

- أنتي عبيطة؟ مين قال إن مصر دي لها حل؟ سافري!

- هتخلي بالك منها؟

- أشك، أنا اكتشفت أني أكبر حمار في العالم. فيه حمار يأخذ باله من مصر وهو مخدش باله أن علاء وعطية وحتى أخوه بيضحكوا عليه.

- أنت مش حمار، أنت مكنتش عايز تصدق، هما مضحكوش عليك، أنت كنت بتفكر في حاجات أكبر منهم، مكنش همك فلوس الجمعية اللي بيقبض منها سي علاء، مكنش همك أن عطية بيجي يصور متأخر بعد ما الأوامر بتجيله، مكنتش متخيل أن أخوك مكنش بيهزر أنه هو اللي بيحمي الميدان بجد، كنت فكره بيبالغ، لأنه أخوك الصغير، عمرك ما كنت هتصدق أن أخوك الأصغر منك قائد لكتيبة هدفها أنها تدافع عن المتظاهرين والمعتصمين... عمرك ما كنت هتتخيل أن أخوك ينقذك يوم مسيرة شبرا.

- وعمري ما كنت أتخيل أني أحبك. أني مش عارف أفكر لأنك مسافرة بالرغم من أني بقول لك سافري.

– أنا لازم أقفل الساعة بقت أربعة.. وأنت لازم تنام، بس خد دواء يا هيثم.

– بردوا بتهربي يا قمر، على العموم أنا مش قادر، أنا هنام

أغلقت قبلي، كلامي لم يكن يعجبها، أظنها أصبحت تكره أي كلمة مكونة من أحرف كلمة حب، أظنها لن تحب أحدا أبدا مرة أخري سوي مصر. عرقي كان يزداد، قلبي كان يدق وأنا أنظر إلى مروحة السقف تدور فوقي، لأرى وجوه أخرى. أوجه يتخللها وجهها، ويلازمها وجه زياد، وأدخنة، دخان غاز مسيل، كاوتش محروق، حشيش شقة كابو، أوجه مدهوسة أمام ماسبيرو، وجه جورج حاقنا في المسيرة من شبرا لماسبيرو، ثم أوجه الملثمين وهم يهاجموننا عند نفق شبرا، أوجه عساكر مذعورة تجري بالدبابات يوم ماسبيرو، وجه جورج باكيا، ثم وجه عطية وتذكرت نظرية عطية في الوجوه، كل شيء تحول إلى أوجه في عقلي تماما كما كان يقول.

– بص يا سيدي، كل الحكاية أني لازم أصور الوشوش قريب، علشان الروزليوشن بتاعة الصورة تبقي حلوة، وبعدين أقطع الوشوش من الصورة وأحطهم في ملف في الكمبيوتر الإبل، يقوم هوبا .... زي ما أنت شايفه كدة

– يخربيتك، ده بيجمع الوشوش اللي زي بعضها؟

– بص يا سيدي، أنا من ٢٠١٢ مقضيها تصوير، هما دول اللي عايزينك تمضي على تمرد؟ طبعا مع الاتفاق مع الكنيسة.. وحبيبك

جورج بقي صاحبك المفضل بعد ما كان طول عمره متفهملوش هو ثوري ولا مش ثوري إلا لما الموضوع يجي على طرف ناسه. دلوقتي بقي على أخر الزمن الثوار والفلول ايد واحدة.. مش كفاية عمك شكشك مسك ايد الفلول وقال لك جبهة الانقاذ... خليني ساكت يا هيثم

– وانا بقي المفروض أجري في حضنك وانسي أنك واصحابك كنتم بتدافعوا عن اللي ضربونا قدام الاتحادية؟ أنت عبيط يا عطية؟ أنا بقي هكدب عيني وأصدقك.. وفجأة جورج بقي كوخة؟ جورج على الأقل أحسن منك، بيدافع عن ناسه؟ مش بيجي بعد ما الأوامر ما تجيله.. انزل يصور ... ينزل يصور؟ ودلوقتي المسيحيين بقوا فلول؟ امال كنت قارفنا مينا دنيال ومش مينا دنيال؟ فجأة بقي؟ ولا علشان وقتها كان الحوار ضد اللي أنتم مش عايزينه؟؟ ووقتها كان كاذبون؟ وكل حاجة علشان الثورة المضادة.. لكن دلوقتي علشان الفصيل الوطني.. علشان الأخوان بقي عيب وكوخة؟ وكل ما تتزنق تقول لي الفلول... ولا هو أكمن الفلول عايمين على عومنا ... يا حبيبي احنا بنجمع تمرد علشان كلنا ضد الأخوان اللي ولا عملوا حاجة للثورة إلا أنهم ركبوا عليها ودلدلوا أول ما وصلوا للي هما عايزينه؟

–كلكم مين؟ أنتم صدقتم نفسكم بجد ولا ايه؟ يا ابني الناس انتخبته ... أنت صدقت أن الناس ضد الأخوان وأخونة مفاصل الدولة وأنهم وحشيين بقي بيبيعوا البلد؟ ما اللي قبليهم كانوا بيبيعوا البلد ودلوقتي بقوا حلوين؟ وبقيتوا أيد واحدة؟

– متزايدش عليا، أنا وأنت عارفين كويس قوي أننا خلينا ملايين تعصر ليمون، ده على ايدي يابا، مش هنكدب على بعض أن عمك "علي جثتنا " هو اللي حرق المقر بتاع شفيق ولا تكونشي فاكرني عبيط بجد يا عطية؟ ده أنت وقفت تقول لنا ايه اللي وداكم عند الاتحادية؟ الله يرحم اما كنت بتلعن في اللي قال "ايه اللي وداها هناك"

– يعني أنت مثلا بتنكر أن بدر بلاك بلوك وأنهم ماشيين يخربوا الدنيا؟ بتنكر أن أخوك معهوش سلاح؟ بتنكر أنهم هجموا على قصر الاتحادية ورموه بالمولوتوف وكانوا عايزين يقتحموه؟

– بدر بيحلف أن ما هما، ومبنكرش أنه بلاك بلوك، أنا وأنت عارفين كويس أن ناس كثير حتى من أهالي عابدين كان معاهم سلاح صغير بيدافعوا بيه عن بوابات الميدان، وبلاك بلوك مبيعملش حاجة غير دفاعية أو احتجاجية. بس أنت برضوا عارف أن الأخوان ماشيين يلملموا شباب الثورة وبيرموهم في السجون؟ لا وكمان دلوقتي بيتنكروا كأنهم بلاك بلوك علشان يلبسوها للعيال ويلموهم ويرموهم في السجون؟ ما خلاص العيال مبقاش ليها لازمة بعد ما وصلوا اللي هما عايزينه... متخلي عبد الرحمن يحكيلك على اللي بيعملوه.

– مليون مرة أقول لك عبد الرحمن مش إخوان؟ ولا أنا إخوان... شكلك اتلحست في مخك يا هيثم!

فتحت عيناي علي يد توضع على كتفي لتوقظني، فتحت عيناي بأعجوبة، هستيريا التخاريف من الحرارة جعلت روحي تنقبض،

وجدته بدر مفزوعا:

- هيثم؟ أنت كويس؟ خضتني!

- أنا بموت يا بدر

- لا أسمها أنا بخرف يا بدر، استني اصحي ماما تيجي تعملك كمادات ولا حاجة

- متصحيهومش

- طيب استني أنا هتصرف.

اختفي لحظات، فلم يجعلني تعبي أن أظل مفتحا عيناي كثيرا لأنتظره، طرت فوق السحاب في ثواني قليلة، بدأت هلوستي مرة أخري، بدأت الوجوه تظهر مرة أخري، وأولهم وجه قمر، من حرارة جسمي تذكرت قطرات العرق التي كنا نتصببها ونحن علي مشارف نادي الصيد، كان يونيو ، يوما حارا جدا، كانت مظاهرة اعتبرناها مصيرية، أو هكذا كنا نعتقد، خرجنا من مسيرة مسجد مصطفي محمود، ومشينا من خلال المهندسين إلي الدقي ثم إلى التحرير، رأيت طارق في صلاة يوم الجمعة، ومع خروجنا من المسجد، وجدته يمشي تجاه مصلي السيدات لأجده يصطحب قمر، لم أكن أعرف أنها قادمة معه، فكان قد كلمني وقال أنه من قلة قليلة من أصدقائه ممن يرغبون في النزول الي أخر مسيرة مصيرية قد تغير رأي الشعب قبل فوز مرسي. من قلتنا كنا كالنقطة في البحر، وكنا نمشي سويا مع فادي وعلاء وحتى بدر،

وكان بدر قد جلب أربعة من اصدقائه، كم كنا قلة، كم كنا سذجا بأننا من سيغير مجريات الكون، صدقنا أنفسنا للحظات، لكن هذا اليوم كنا في حالة من اليأس الشديد لقلة عدد المشاركين. كان طارق يتمتم كل حين وأخر بأن السبب الوحيد هو الحر الشديد. كانت الشمس مؤلمة من سطوعها، فجري بدر لمقدمة المسيرة التي كان صوتها قد خفت تماما عند قروب وصولنا إلى كوبري قصر النيل وفجأة وجدنا علم مصر طويلا يرفع من مقدمة المسيرة و بدر يجري به ممررا إياه الى الشباب ، حتي وصل الي طارق وإلي ، فأخذ طارق يقول لقمر والبنات القليلة في المسيرة في أن يمشين تحت العلم، كان كالمظلة فوق رؤوسنا، علم مصر، نحمله فوق أكتافنا ، نمشي نحتمي تحته من قوة الشمس، من سباب السائقين، من طوب بعض الرافضين لرفضنا لشفيق بحجة إنهم لا يثقون في الإخوان، خفت أن تضرب المسيرة كما تم ضربي اليوم السابق بطوبة في رأسي في مصر الجديدة.

وصلنا الى التحرير لتكتئب وجوهنا تماما، لم يكن هناك سوي بعض البنرات المعلقة، باعة جائلين يفوق عددهم عددنا. وقف طارق ناحية عربية تبيع عصير البرتقال، وطلب عصير برتقال لشلتنا البائسة، كانت قمر تقف بجانبي في حالة من اليأس الشديد، نظرتها كانت قاتلة، يأس شديد، حتى كحلها كان قد ذاب قليلا من الحر، أخذنا نتساءل لماذا لا يدعم الإخوان مرشحهم حتي؟ لماذا ننزل نحن ليرتاعوا هم؟ لماذا؟ يومها، قالت لطارق كلمة في أذنه ثم استأذنتنا للرحيل لأنها متجهة ناحية عابدين، فوجدتني أعرض عليها أن أوصلها وأنا في طريقي الي

مقر الحركة نواحي باب اللوق. مشيت في صمت شديد ثم تمتمت:

– أنا مش المفروض أقول لك، بس الصراحة أنا رايحة أقابل زياد عند جروبي.

– والله؟ طيب لا متخفيش مش هقول لحد.

– أنا بس أصلي مش قايلة لزياد أني نازلة المظاهرة وقلت لطارق أني رايحة أقابل سارة، فلو حد سألك.. أنت عارف!

– لا متخفيش، ولا كأننا أصلا شوفنا بعض.

سلمت عليها، ياه لم أتذكر أنني لمست يدها وقتها، ولكنني فعلا لمست يدها. وفجأة شعرت شيئا غريبا، فتحت عيناي لأجد بدر وقد وضع كمادة على رأسي، وجلس بجواري على طرف السرير، فأغلقت عيناي:

– اياك تموت

ابتسمت، وفتحت عيناي:

– افرقلك؟

– مش قوي! بس مش عايز حد يموت ثاني

– عارف.. والا مكنتش دافعت عننا

– يعني أنت عارف أنا شيلت سلاح ليه؟

– ده حتة مقروطة، شغل عيال يعني

– والله كنا لازم نوقفهم عند حدهم، أي حد يضربنا، بس عمرنا ما هاجمنا حد

– مصدقك!

– أنا بس يوم اتحاد الكرة خرجت عن شعوري يا هيثم

– والله العظيم مصدقك

– ياسين واحشني قوي، علشان كدة بقول لك اياك تموت.. مش هتبقي أنت وهو؟

– طيب هو ومات شهيد، أنا هموت مضروب من الشمس؟

– كان واقف جنبي، كنا بنغني، وشه مش بيفارقني، كنا فعلا رايحين نشجع الأهلي، لكن عمرهم ما كانوا هيسيبونا نشجع. ازاي ممكن يبقي فيه حد بيكره حد كدة؟ ازاي عيال يعملوا فينا كدة؟ ازاي ممكن عيال تكره عيال للدرجة دي؟ فاكر وشوشهم كلهم، أنا بحلم بوشوشهم طول الوقت. أنا حاسس أني كبرت من يومها، عمرك ما هتفهم أنا ازاي عمري ما هسمح أن حد يموت بين ايديا ثاني. لما ياسين وقع بين ايديا، كان مات، والله ما لحقت ألحقه، ملحقتش اسمع أخر كلمة ليه، ملحقتش أخليه يقول الشهادة.

– متخفش أكيد قالها!

– أنا يوم ما نطقوا بالحكم، اتجننت، دمي بقي يغلي، ازاي يعملوا فينا كدة؟ ازاي؟ ازاي الواحد يفضل بعقله وسط كل اللي بيحصل ده؟

- ما هو احنا لازم نفضل مؤمنين بالله، ومؤمنين بالقضية ونفضل ندافع عنها

- أنت لسه مؤمن بحاجة؟ بعد كل اللي حصل؟ بعد ما علاء طلع ممول وجايب لكم الكلام؟ بعد عطية وأنور اللي باعونا؟ بعد زياد وكابو اللي باعوا القضية؟ بعد ما حتى قمر هتسافر؟

- أنت بتقول ايه؟

- مش هي مسافرة؟

- عرفت منين؟

- قابلتها في الاتحادية وقالت لي ... اتاريك مضروب من الشمس؟ صح؟

- أنت بتقول ايه؟

- عارف، والله البت دي أنا بستجدعها قوي، كانت خسارة في جتة الواد زياد، هي أحسن منه

- وأحسن مننا

- ميفرقلهاش الكلام ده، أنت ازاي مش فاهم أن مش دي مشكلتهم؟

- لا فاهم، مشكلتهم أن قمر عارفة هي عايزة ايه

- وطلعت الوحيدة اللي فاهمة سياسية، على كلامك.. علي اللي

حكتهولك عن فكرتها وشكها في عطية ابن ال..

– مش لازم نشتمه، أنا وأنت عارفين أننا كلنا طلعنا مضحوك علينا، حتى عطية نفسه، هو يعني شايف أنه بيخدم القضية.. بيخدم الثورة.. مش مخه أنه كدة كان بيخدم حد غير الثورة. زي ما انت كنت شايف أن بلاك بلوك بتخدم الثورة... زيي ما أنا كنت فاكر أن الحركة بتخدم الثورة!

– واتاري الواد علاء بيضربله عشرتلاف جنيه في جيبه كل شهر.. قال ايه.. الحركة تبع منظمة الحريات. طيب ما يقول.. يديك ان شاء الله خمسماية واحدة.

– على أساس أننا يفرقلنا فلوس، أولاد الاستاذ أبو العلا بدرالدين

– والله صعبان عليا عم الحاج، مطلعين عينه

– ده أنت لوحدك هتجبله في يوم أزمة قلبية

– أه ما أنا عارف، حد قال له يطلع عياله عاملين زينا؟

– تفتكر احنا أخرتنا ايه؟

– أنا في ليمان طرة وأنت في أبو زعبل ان شاءالله

– أنا حاسس أني هموت من السخونية دي

– توهتنا أنت ومردتش على سؤالي عن ضربة القمر

– والله ما فيه حاجة، هي ولا هي هنا، هي عارفة بس مش بتفكر،

أنا لولا عارف أنها لسه مؤمنة بمصر كنت قلت لك أنها كفرت بفكرة الحب، عارف يعني ايه واحد يسيب قمر؟

-ما أنا قلت لك، هي أحسن منه، وتستاهل اللي أحسن منه

- بقيت حكيم قوي يا عم بدر!

- بلا حكمة، بلا نيلة، كلنا عاملين أننها بنفهم! يلا اتخمد، أنا كمان تعبت من التنطيط، تصبح علي خير يا قمور!

ابتسمنا، وأطفأ النور، ثم قفز على سريره تاركني بالكمادات التي بدأت تطفئ النار في عقلي. بدأ جسمي يرتعش، رعشة تهز كل اعضائي، ثم سمعت صراخا من بعيد، صوت فادي يصرخ ويشير في عز ليل يوم فض اعتصام الاتحادية، حينما جرينا إلى الاتحادية عندما سمعنا عن الفض. وصلنا متأخرين، لأن الطرق كانت مغلقة، لاحظنا تواجد مكثف لملثمين صغار السن في الشوارع الجانبية يصرخون ويشيرون بالليزر علينا، لم نر وجوههم، كلهم كانوا ملثمين. أخذنا نبحث عن جراج لنختبئ فيه، الحركة في شوارع منطقة روكسي ناحية القصر كانت غريبة جدا. وجدنا جراج، أسرعنا اليه ووقفنا في صمت نفكر فيما إذا نغرد بضرورة النزول أم التروي لرؤية الموقف من قرب. ثم توقف قلبي حينما رن موبايلي لأجده بدر الذي أخذ يثرثر أن الأخوان يدعون وجود بلاك بلوك بينما لا وجود لهم، وأن هناك قصص مختلقة، حينما كان يتكلم سمعنا صوت رصاص حي، فأوقفته عن الكلام، ثم أخرجنا رؤوسنا أنا وفادي ببطيء من خلف العامود الذي اختبأنا خلفه لنري الموقف

في الشارع، فوجدنا ملثما يحمل بندقية قنص يمشي مسرعا ليختبئ في نفس الجراج، ولكن عند عامود أخر. أغلقت صوت موبايلي، ونظرت لفادي وكانت قلوبنا تدق بصوت عال، ولكننا صمتنا تماما حتى كادت أن تنفجر قلوبنا من الذعر. ثم فوجئنا بأنه يتحدث في الموبايل، شخصا أخر يدعي عبد العزيز:

- عبد العزيز؟ اجيلك على المقر؟ طيب أنا هرمي السلاح في أي حتة وأجي. اقفل قبل ما نتراقب!

ثم سمعناه وكأنه يحاول تخبئه السلاح في زاوية في الجراج، قرر فادي أن ينظر من خلف العامود، بينما كنت أحاول منعه، ثم رأينا وجهه. كان ملتحيا، لحية خفيفة، ويلبس تي شيرت أخضر، شابا يبدو تماما كأي شاب مصري طبيعي، وقبل توجهه الي خارج الجراج، رن موبايله، وكأن القدر قرر أن يجعلنا نتأكد من هويته، فكانت رنة الموبايل "لبيك إسلام البطولة". لم يرد، واغلق الهاتف وخرج. كان الجراج باردا جدا، لدرجة أننا تجمدنا، ففي شهر ديسمبر نقف خائفين مترقبين في جراج مهجور من البشر، ومع خروجه همس فادي:

- الواد ده أخوان وش! تعالي ورايا نشوف السلاح اللي رماه

- لا يا عم، لحد يدخل ويمسك فينا ونتدبس فيه

- أنت خايف يا هيثم؟

- لا أنا مش خايف! بس اللي أنا وأنت عرفناه يكفي، مش محتاجين

نشوف السلاح ونلبس قضية. احنا لو اتمسكنا بيه وسط المعمعة اللي بره دي هنروح ورا الشمس. مش رايح، تعالي نخرج من هنا بس الأول.

استيقظت من تخاريفي على لمسة يد علي جبيني، كانت الشمس قد بدأت شروقها، وحينما فتحت عيناي وجدتها أمي، استغربت وجود الكمادة، فكانت تجس حرارتي، ثم قبلتني على جبيني حينما شعرت بسخونتي، وجلست في هدوء:

- أنت تعبان؟ مندتنيش ليه؟

- عمري ما هصحيكي

- أنت تعبت الفترة اللي فاتت، لكن ربنا هيجزيك خير

- تفتكري يا ماما؟ امال مش متفائل ليه؟

- علشان أنت زي أبوك.. تعشق الهم، مش زي أخوك ... رجع أمتي الأفندي؟

- ولا أعرف، أنا كنت بهلوس

- أفضل داري عليه كدة

ابتسمت، فوضعت كمادة جديدة علي جبيني و اغلقت عيناي مرة أخري، وكأن لمسة أمي حركت شيئا بدخلي، لمسة سحر، استطاعت فجأة أن تهدئني، فجأة شعرت بأمل، حتي أنني شعرت بابتسامة ترتسم علي وجهي، لا أعرف ما إذا كانت أمي قد رأتها، وفهمتها أم لا، فأنا

كنت ابتسم في عقلي، لأنني رأيت وجه قمر ساطعا ، كانت تقف في الزمالك في اعتصام المثقفين في ليلة كان وجهها يضيئها ، كنا نذهب ليلا للتأكد من إصدار بيانات تؤيد الاعتصام في وزارة الثقافة ضد وزير الثقافة، وضد أقالة ايناس عبدالدايم من رئاسة دار الأوبرا المصرية ، يومها كانت فرقة باليه القاهرة ترقص الزوربا في الشارع. كانت قمر مع سارة، فذهبت إليهما، ابتسمت قمر على استحياء لرؤيتي، وقفت بجانبها بعد سلامي هامسا أثناء الرقصة:

– عاش من شافك

– فرصة جتلنا نصلح غلطتنا

– أنهي غلطة فيهم؟ غلطنا كثير

– لازم نشيلهم زي ما جبناهم

– عاملة ايه؟

– علشان كدة مكنتش عايزة حد يشوفني

– مش قصدي! إزاي شغلك؟

– بفكر أسيبه بس فيه حوار كده هشوف هوصل فيه لإيه

– مضيتي تمرد؟

– ودي فيها سؤال؟ بعد اللي حصل في المقطم كل شئ انكشف وبان، معايا توقيعات كثيرة أنا وطارق ممكن نبقي نديهالك وأنت تسلمها؟

- أه طبعا!

قاطع حوارنا التصفيق للفرقة، أخذت تصفق بحرارة لأنها من عشاق الباليه كما كانت تكتب على الفيسبوك. وبالرغم من أنها ناشطة جدا على الفيسبوك ألا أنني عمري ما كلمتها عليه، عمري ما علقت على ما تكتب. كانت بالرغم من حزنها الشديد منذ أن انتهي موضوعها مع زياد، تحارب الإخوان بشراسة، قللت من نبرة صوتها بأن الثورة مستمرة، كانت تكتب أسباب غضبها من الاخوان، كل بوستاتها تحولت إلى هجوم حاد الطباع، كانت غاضبة، جامحة، لم تظهر أي انكسار، بالرغم من أن مع رؤيتها، رأيت في عيناها حزنا شديدا مصحوبا بقلق وتردد، ربما لأنني أذكرها بزياد؟ أم لأنني أربكها؟

- طارق مش معاكي؟

-لا، بس كنا هنا من يومين بعد ما قالوا إن الاخوان هجموا واتضربوا

- سلميلي عليه، وقولي له أننا ننزل يوم ٣٠ مع بعض، مش أنتم نازلين؟

- أه أكيد! بقولك صحيح كنت عايزة اسألك سؤال

توقف قلبي لأنها همست وكأنها ستقول لي شيئا في غاية الأهمية، ثم شاورت لسارة بأنها ستقف على جنب معي، مشينا إلى جانب حائط مطل على النيل، ثم نظرت إلى الأرض، ورفعت عيناها ببطيء شديد

جعلني أفكر، في ماذا ستقول؟ هل ستسألني عن زياد؟

- أنت تعرف عطية كويس؟ صح؟

- عطية؟ ماله؟

- بص هو حوار غريب بس لازم اسأله، أنا كنت عامله له فولو على تويتر، ولاحظت أنه بيكلم واحد اسمه عبد الرحمن، وأنا فضولي دفعني أني اقرأ التويتات

- أه عبد الرحمن، أكيد عارفه

- أنت كمان تعرفه!

شحب وجهها وظهر غضب شديد عليه، فلم أتردد في أن أنفي علاقتي به:

- أنا مليش علاقة بيه، بس عطية كان خلانا نتقابل كذا مرة.. ماله؟

- عبد الرحمن ده أصلا حازمون مش اخوان، كل تويتاته كلامها مع شباب ثانيين، أنا الموضوع أخدني وقعدت أدور وراهم وكلامهم، هما كانوا حازمون، وهو أصلا كان عضو في حركات كثير، بس واضح أنه مكنش مبين ميوله، هو مش حازمون واضح وصريح، حالق ذقنه كدة وكلامه كله ميبينش، بس المهم أنا بقول لك اللي فهمتوا!

- مش هو عنده حركة؟

- اه بس مش معروفة، فيها مزيج من اسلامجية على التراس

زمالكاوي على كام واحد إخواني منشق. المهم أن عطية كلامه معاه إنه بعتله فيديوهات... هو عطية بيبعت له فيديوهات إيه؟

– فيديوهات ايه؟ حاجات جديدة؟

– أنت متابع أنه كان مصور ناس من أيام مظاهرات العباسية؟

– أه قال لي، أنتي جمعتي الكلام ده كله منين؟ من تويتر؟

– أه والله، أنا بس فضولي أفهم... إزاي عطية كان معاه كاميرا غالية كدة؟ وكان كاتب إنه معاه كاميرا صغيرة في جيبه؟ مش غريبة؟

– طول عمري كنت بسأل بيعمل إيه باللي بيصوروا بس مفهمتش

– اللي أنا فهمته أنه بيبعت فيديوهاته لعبد الرحمن، وفي مرة لقيت أن عبد الرحمن ده باعت لينك فيديو لواحد بيشتغل في الجزيرة

– قمر، اسكتي خالص علي الموضوع ده، أنا هتصرف وأفهم بالضبط

– أنا مش عارفة أقول لمين، بس أنا شاكة في عطية، فاكر أيام ما كان بيجي متأخر دايما؟ أنا زياد كان قايل لي أنه متغاظ قوي من الحوار ده، هو وبدر. وكان قال لي مرة شاف عبد الرحمن ده ومعاه ناس ملثمة ومطمنلهمش

– كاميرا عطية ضاعت في محمد محمود والعيال أصحاب بدر اتقبض عليهم لأنهم طلعوا في فيديوهات. أنا إزاي سقطت الحوار ده؟

– شوفت؟ الموضوع فيه أن.

- أنتي إيه اللي خلاكي مركزة في تويتات العيال دي؟

- علشان أنا حاسة أن فيه حاجة غلط، من ساعة ما كل شوية يقبضوا على حد من بتوع عابدين ويقولوا بلاك بلوك.

- طيب وطي صوتك، أحسن احنا يدوبك مطلعين بدر بالعافية أنا وبابا

- سمعت، أو بالصراحة عرفت

- من مين؟

- أنا متابعة الحوار علشان شددني، شكل بلاك بلوك اللي أنا وأنت شوفناهم يوم ما شوفنا بدر، مش هما نفس اللي كانوا بيعملوا حاجات عند الاتحادية، أنا وأنت من ناس قليلة قوي ممكن تعرف الفرق.

- قمر، أنتي إزاي كده؟

- إزاي إيه؟

- جامدة كدة

فتحت عيناي أثر صوت عالي، أظنه كان صوت حادثة، ظننتني نمت كثيرا، ولكن نظرت الي الموبايل لأجدها السابعة صباحا، لم أجد أمي، ولكن أشعة الشمس كانت تنعكس على الحائط في شكل خطوط متوازية، كان بدر نائما في سابع نومة، ينام واضعا المخدة على وجهه كعادته. صوت المروحة كان هو السائد، ثم فجأة صاحبه شجار في

الشارع تباعا للحادثة. ثم وجدت الباب يفتح، وأبي متسللا يرتدي البيجاما الكستور، واقترب لسريري:

– أمك بتقول إنك سخن، حرارة الحب دي؟

ابتسم وهو يهمس، ثم جلس بجواري يتحسس رأسي

– عارف يا هشيم، أنتم وأنتم صغيرين، كنت فاكر أني هقدر أبعدكم عن كل ده. كنت فاكر أنكم لازم متبقوش زيي، لازم متتبهدلوش، كنت عايزكم تطلعوا في ظروف أحسن من ظروفي.

–ومالها ظروفك؟ محامي كبير بيواجه الفساد وبيساعد الغلابة، اسمه بيرن في المحاكم وهيفضل يرن

– ومعهوش اللي يخليك تتجوز البنت اللي بتحبها

– لو فاكر أني زعلان علشان الفلوس، تبقي لسه مفهمتش يا أستاذ أبو العلا

– متهاجمنيش يا واد، أنا طول الليل بفكر فيك

– أنت فاكر أني بشتغل في مكتبك وأني بحب المحاماة علشان أبقي زيك، لا، أنا بحب أدافع عن الحق

– والحق بيقول أني معملتلكوش فلوس لا أنت ولا أخوك الحبيب. قول الواد ده لسه قدامه شوية على ما ينوي يسيب الكرة ويفكر في الجواز، لكن أنت!

– أنا مش عايز أتجوز يا بابا، متخفش

– يا حمار، ده الجواز ده أحلي حاجة في الدنيا، متقولش كدة، وبعدين البت اللي مدهولاك كدة دي مش هتتجوزها يعني؟ بتحبها ليه طيب؟

– وهو احنا بنحب مصر وقاعدين فيها ليه؟ مضطرين!

– مضطر تحب مصر علشان هي أمك أه، لكن مضطر تحب بنت؟ مش فاهمها دي

– بابا، سيبك من الموضوع ده أنا عيان ومش قادر أجادلك

– ما أنا لازم أفهمك يا هيثم، أنا الوحيد اللي لازم يفهمك حتى لو أنت مش شايف أننا بنفهمك

– عارف احنا شيلنا مرسي ليه يا بابا؟ علشان محققش ولا حاجة من اللي احنا عايزينها... بس بذمتك؟ مين اللي يستاهل يبقي الرئيس؟ مين اللي هيحقق اللي احنا عايزينه! نفس الفكرة بالضبط، قمر عارفة أني مش أنا اللي هحقق لها اللي هي عايزاه، قمر عارفة أن كل الشباب بيتكلموا لكن كلهم مش قد أنهم يحققوا اللي نفسها فيه.

–وهي نفسها في ايه؟ عايزة فيلا في التجمع، وعربية، وخدم، وحشم؟

–يا ريت! كنت ممكن أعمل أي حاجة علشان أجيبهم، مش ده اللي قمر عايزاه، قمر عايزة رجل عارف طريقه

-وأنت مش عارف طريقك؟

- هنضحك على بعض يا بابا؟ أنت بتصرف عليا لحد النهاردة.. أنا مش عاطل، أنا محامي قد الدنيا بس مفيش ولا قضية بأسمي، ثوري، بس مش مشترك في حركة معروفة ولا حزب، ولا بفكر أرشح نفسي في البرلمان، على ايديها شافت قد إيه طلعت حمار وكل أصحابي خانوني! قمر عايزة رجل عارف هو عايز ايه؟ ومستعد ينفذه مهما كانت الظروف.

وأنا أتحدث، أغمي علي، لم أشعر بشيء سوي شيء بداخلي يسحبني للنوم، شيء بداخلي يأخذني الى عالم مواز، كنت أحتاج إليه، شيئا يسحب روحي لأسأل نفسي: هل أحتاج لثورة على نفسي، لأقف على رجلاي، هل أحتاج أن أعرف طريقي؟ هل أحتاج أن أعيش لنفسي؟ وجدتني على بداية طريق في وسط غابة، طريق طويل لا أخر له، كانت الشمس منيرة، ولكنها لم تكن قوية، مشيت لأجد لافتات على أول الطريق، اقتربت لأقرأها فوجدتها لافتاتين، الأولى مكتوب عليها "الثورة مستمرة" و الأخرى مكتوب عليها " أنت حمار"، ثم سمعت من يرددها ثانيا "أنت حمار" ألتفت لأجده وجه فانديتا يبتسم ابتسامته البلهاء يقولها لي:

- أنت حمار!

الفصل السابع

ثورة دي ولا ...؟؟

-أنت ضحكت عليا، أنت عمرك ما قلت إننا مدعمين من منظمة

– فيه حاجات مش لازم تعرفها، أنا رئيس الحركة، وبعدين أنت فاكر كنا هنصرف منين؟

– أنت كدة دبستنا أننا ممولين زي ما بيقولوا علينا

– احنا مش ممولين، احنا أصلا جزء من المنظمة

– وده من امتي؟

– من قبل ما أصلا تبقي عضو فيها

– وفادي كمان كان عارف؟

– فادي زيه زيك، أنتم الاثنين دخلتم مع بعض تقريبا في نفس التوقيت

-أنت ضحكت علينا ودلوقتي ممكن نتلط في قضايا التمويل ونروح ورا الشمس

-قلت لك احنا مش ممولين، احنا أصلا جزء منها، ولو هي اتصنفت

تمويل خارجي، ساعتها بس ممكن نتلط زي ما بتقول، بس هي رسميا منظمة مصرية، فأنا مش عارف أنت عامل دوشة على ايه؟ مش عاجباك روح انشق أنت كمان واعملك حركة ولا انضم لحركة ثانية

هدوء علاء لم يدم طويلا بعد مواجهاتي له بأنني قد عرفت السر، بعد ما أعلمني به عطية أثناء محاولته المستميتة بأن أترك الحركة وانضم لحركة عبد الرحمن، لم أصدقه حتى رأيت طباعة البانرات وكم تكلفنا ونحن لا نملك تمويلا، حتى التمويل من محاولة التقرب من رجال الأعمال قد توقف بعد فترة، مع أول ضمانة لهم بأنهم ليسوا في حاجة للشباب. كانت ضحكة علاء دائما تستفزني، وابتسامته الصفراء كدليل على انتهاء الحوار، كنت على وشك الفتك به ألا أن فادي قد تدخل ليحول دوننا حالفا لي بأنه لم يكن علي علم هو الأخر.

ألتفت ليساري، لأري أنني قد عدت الى الغابة مرة أخرى، ولكن لا وجود لفانديتا، لا وجود سوى لبدر الذي وقف باكيا بجواري، ينظر الي جثمان ياسين ونحن ندفنه في مقابر العائلة في مصر القديمة. رأيت بدر فجأة يتحول الى فانديتا، تختفي معالم وجهه، ولبس اللون الأسود، وفجأة أخذ يصرخ ويجري تجاه مجموعة كبيرة ترتدي الأسود هي الأخرى. كلهم يلبسون القناع، يحملون الشماريخ التي أخذ دخانها يعميني، حتى لم أستطع أن أري أي شيء. سمعت قرع الطبول، صوت صراخ يدوي حتى ظهر سور الجامعة الأمريكية أمامي، أمشي بجواره لأري بقية الوجوه، وجوه كل من صار شهيدا، حتى وجه عمر الطفل

بائع البطاطا، شباب يرسم الجرافيتي أمام منزلنا في قلب الليل، وجه جيكا الذي وقفت أمامه باكيا لاعنا قاتليه. التفغت ورائي لأجد زياد غاضبا، ولكنه في هدوء يقول:

– تفتكر هنوصل لحاجة؟ أنا خلاص مبقتش أصدق أي حاجة

– إياك تيأس، اليأس خيانة

–بطل تتكلم زيها

– زي مين؟ الثورة؟ الثورة اللي علمتنا أن اليأس خيانة

– لا قمر، اللي لسه عندها أمل

– أيوه أنا عندي أمل

قالتها قمر وهي تقترب مننا أمام سور الجامعة الأمريكية، وقفت باكية، وقد سال كحلها ليغطي وجهها باللون الأسود. قالتها ثم سكتت ووقفت تبكي، وزياد يحدق لي قائلا:

– مش أنت السبب، الثورة خلصت، لازم تصدق أن الثورة انتهت يوم ما سيبنا الميدان

فردت قمر غاضبة:

– اخرس! أنت السبب في كل حاجة، مش معني أنك قررت تسيب الميدان أن الثورة انتهت، مش معني أنك مشيت أن الدنيا لازم تقف

التفت ولصدمتي قد اختفي زياد، ثم التفت لأري قمر وقد مسحت

دموعها، ولمعت عيناها البنيتان، وظل الدخان يزيد من حولي وفجأة شعرت بالاختناق، أخذت أكح فأغلقت عيني، وحينما فتحتها وجدتني في سريري ويقف بجانب سريري هاني، أخو زياد.

- إيه يا بطل؟ كدة تخضنا عليك وتخلينا نصحي بدري مخصوص علشانك في إجازتنا؟

- هاني؟ أنت هنا؟ إزاي؟ أنت اجازة؟

- امال؟ ما أنا نازل مخصوص علشان أشيل مرسي، سيبت دبي مخصوص علشان البيه

ابتسمت، وحاولت الجلوس، ثم بي أراهم جميعا يصطفون بجانبه يبدو القلق على وجوههم، بدر، زياد، أمي وأبي. ثم اقترب زياد قائلا:

- أنت فيه إيه؟ من امبارح لما كلمتك صوتك معجبنيش

- البيه شكله نسي يشرب مياه ووقف في الشمس كثير، مع إرهاق شديد

قالها هاني محاولا طمأنتنا، ثم نظر مبتسما إلي بدر قائلا:

- ممكن أرجع البيت أنام بقي، ومتجيش تصحيني ثاني؟

- روح، احنا يعني أصلنا بنتدلع كدة وتعبنا معاليك!

فابتسموا ثم اقترب زياد مني مربتا على كتفي قائلا:

- هعدي عليك بليل علشان اطمن

خرجوا جميعا بعدما أخذ هاني بدر علي جنب ليقول له على أدوية ليشتريها، ومع خروجهم ظل قلبي منقبضا، رؤية وجه قمر، ثم وجه زياد أخافتني، منقذي هو هاني، وزياد الذي حاولت التهرب منه عدة مرات هو من وقف بجانبي في مرضي، ماذا يجعلني هذا الموقف سوي خائنا؟ ماذا أقول له؟ لماذا أنا مريض؟ ثم دخل بدر ضاحكا ضحكة هستيرية:

– أبوك صحاني يقول لي روح بيت زياد علشان أخوك مغمي عليه ولسه شايفه رجع من دبي، أغمي عليكي يا بطة؟

– اضحك اضحك، كنت هروح في شربة مياه

– أنا هنزل أجيب لك الدواء وماما حالفة لتشربك شوربة وتأكلك وتشربك اليومين دول، ابسط يا عم هتدلع من الحاجة

– ما أنت يا اما اتدلعت، جت عليا؟ صحيح أنت كنت بتبقي واخدلك خرطوش، أو معدوم العافية، بس اهو كل واحد وظروفه

– بقول لك ايه صحيح، هاني كان بيقول أنه عايز يقول لك على حاجة لما تبقي كويس، ومرديش يقول لي ايه، بس هو هيجيلك ثاني بكرة علشان هما رايحين عند حماته النهاردة

– ماشي، متخفش هبقي أقول لك يا عم يا اللي حاشر مناخيره في كل حاجة في حياتي، واحنا ولا نعرف حياته فيها إيه

– فيها إيه يا حسرة غير الأهلي؟

– طيب روح أحسن أنا دايخ ومش قادر

خرج مغلقا الباب خلفه، ظننت أنني سأنام، ولكن الوجع قد تكون أسفل ظهري جعلني أشعر بالألم، كنت أشعر بالغثيان، ولم أستطع سوى أن أغلق عيناي في محاولة مني لإقناع نفسي بأن أهدأ وأكف عن التفكير. ثم رن موبايلي برسالة واتساب من قمر علم الدين:

– صباح الخير، طمني عليك

طبعا الإبتسامة كانت تدب في وجهي لتصل بين أذناي.

– أنت كويس دلوقتي؟

– كويس، أنتي إيه رايحة الشغل؟

– لا هنشتغل من البيت كالعادة!

–حلمت بيكي حلم غريب

– كنت بعمل إيه؟ بضربك؟

– حاجة زي كدة! وحشتيني

– هيثم، أنت عيان وأنا مش عايزة اضايقك، بس أنت لازم تبطل

– مبتحبنيش ؟ صح؟ قوليها!

سكتت ولم ترد، ظللت ممسكا للموبايل حتى أغلق نوره، ولم ترد. أغلقت عيناي ولم أنم، أخذت أفكر في كلمة "تمرد "، يا تري من هو المتمرد؟ قمر؟ أم زياد؟ أم أنا؟ من هو الثورة؟ هل الثورة تمرد؟ لماذا قال

لي فانديتا بأنني حمار؟ لماذا لم اختار طريق الثورة مستمرة؟ لماذا أشعر بالذنب وهي لا تبادلني نفس الشعور؟ لماذا أشعر بأنني لا أستطيع أن أواجه زياد بالرغم من أنني لم أخنه، لم أفكر جديا في قمر سوي حينما تركها، حينما باع الثورة، باعنا كما باعنا الأخوان. اختار نهايته، اختار الانفصال عن الصفوف الشعبية، هل سفر قمر هو تمردها؟ هل ستعود؟ وإذا عادت؟ ماذا سيكون مصيري؟ وإذا لم تعد؟ ماذا سيكون مصيري؟ هل يمكن أن أضيع عمري في حركات واجتماعات وأنا لا أعمل؟ حقيقة وجب تذكير نفسي بها.. " أنا مش بشتغل، أنا بشتغل نفسي"، محامي مع إيقاف التنفيذ. إبن أبوه! فرقت ايه عن ابن أبوه اللي خلي مصر كلها تخلعه؟ فرقت إيه عن أبناء العاملين والفساد الاداري وأنا أكبر فاسد، أكبر أكذوبة أنني وهمت نفسي بأنني سأصبح مناضلا، ماذا يحدث إذا لم يعد هناك قضية لأناضل من أجلها؟ ما هو مصيري؟ لمتي سأظل أفكر كالعيال وأنا أكبرهم جميعا في السن؟ حتى قمر، خططها للثورة كانت كالهواية بجانب عملها، وبجانب حياتها الشخصية والعاطفية، صحيح أنها خائفة هي الأخرى الآن، ولكن على الأقل أمامها بدائل، ولكن ما هي بدائلي؟

ثم دخل أبي، ومعه صينية أعدت أمي عليها فطارا من سندويتشات الجبنة وكوب من الشاي وكوب أخر من الماء. وضعها على المكتب ثم جلس ليعطيني ساندويتش قائلا:

- كل، وكمل كلامك، مش معني أنك أغمي عليك أني مسمعش

بقية القصة

أخذته وقضمت منه، ثم سندت ظهري قائلا:

-لو الثورة خلصت، أنا هعمل إيه؟

– هتشتغل محامي معايا

– لازم نبقي واقعيين

– نشوف لك شركة تشتغل فيها؟ أو حتى مكتب مشهور؟

– تفتكر هو ده حلمي؟ أني أقعد على مكتب؟

– حبيبي، كل الناس بتقعد على مكاتب، أكل العيش مر!

– تلاقيك ندمان أني طلعت كدة، صح؟

– أنا عمري ما أندم على تربيتي لك، انا عارفك كويس يا هيثم

– عارف ايه يا بابا؟

– عارف أنك خايف من بكرة، خايف بعد ما اتعلقت بحاجة تروح منك، خايف لأنك مخططتش كويس لبكرة، كنت عايش اليوم بيومه، منكرش أنها غلطتي أني سيبتكم تعيشوا اللحظة من غير تخطيط لبكرة، بس إحنا السبب الحقيقي أنكم وصلتم لكده، أنكم فقدتم أيمانكم ببكرة، كرهتوه، لأنكم نفسكم في بكرة أحلى، ولكن متعرفش حتى أحلي دي معناها ايه؟ ايه رأيك في الفلسفة دي؟ أنفع؟ كده فهمتك يا عم الفيلسوف؟

- أه تنفع يا عم الحاج! بس أنا عمري ما لومتك، على الأقل أنت أب حاول، حاول ميمشيش جنب الحيط زي بقية الأهالي، مقدرش ألومك لأن على الأقل دي الحاجة الوحيدة العدلة فينا، أنا وبدر حقانيين زيك، مبنمشيش جنب الحيط، بس أول مرة أخاف من بكرة. أول مرة أحسه مش أحلي!

- كل ده علشان هي مسافرة؟

- هي نفسها خايفة من بكرة! لحظة كلنا اتشلينا فيها لأننا خايفين. حتى زياد، خاف من بكرة!

- مش هتبطل تفكر في أنك خونته؟

- زياد وأخوه كانوا أول ناس جرينا عليهم لما تعبت، ازاي مفكرش أني خنته؟

- طيب كمل أكلك، وسيبها علي الله!

دخل بدر حاملا الدواء، أعطاه لأبي الذي بادر بفتحه، بينما تأفأف بدر قائلا:

- أبوس أيديكم عايز أنام يا بشر، ارحموني

- خلاص اتخمد، أنا هدي أخوك الدواء وناموا أنتم الجوز

ثم ضحك ووقف وقال:

- هقلش زي ما بتقلشوا، نام يا حبيبي نام وهدبحلك جوزين حمام

فهب بدر من السرير ساخرا:

– لا وأنت الصادق يا حاج، هدبحلك جوزين خرفان، خد الباب في إيدك يا حاج والنبي وارحمني هتشل!

مع خروجه ساد الصمت، ومع ابتلاعي للدواء شعرت بغثيان ملحق بدوار جعلني كالمشلول مرة أخري، وكأنه يوما لن ينتهي أبدا، صرير المروحة استمر، ليذكرني بصوت المروحة في مكتب عقيد الشرطة في قسم الأزبكية:

– ابنك يا استاذ أبو العلا ممسوك بسلاح مش مرخص، بتحاول تخرجه ليه؟

– ما هو ابني، مضطر، اعمل ايه؟ بس حضرتك مكنش فيه إذن من النيابة لتفتيش بيتنا

– اه، هو أنتم كل ما تتزنقوا تلعبوا على الورقة دي! عايز تثبت أننا ماشيين نتبلي عليكم! ده ابنم ممسوك بالمقروطة في بيتكم، والله أنا المفروض اقبض عليكم كلكم، مش هو بس!

– يعني حضرتك حد مبلغ عنه هو بس؟

– ابنك بلاك بلوك يا أستاذ ابو العلا، وأنت عارف أننا مش هنتهاون في موضوع زي ده، تقدر تتفضل دلوقتي، احنا هنحوله على النيابة ومفيش فايدة من اللي بتعملوه ده.

يا تري كان خائفا؟ يا تري هل فكر بدر في مستقبله الذي كان على

وشك الانتهاء؟ هل هي غلطة أبو العلا بدرالدين لما وصلنا إليه؟ أم غلطة عبد الحميد العلايلي لما وصل إليه حال زياد؟ أم غلطة الدكتور علم الدين لما وصلت إليه قمر؟ أم غلطة الحاج عطية الطحان لما وصل إليه أحمد عطية إبنه؟ هل هي غلطة الأستاذ صليبا- تقدس روحه- لما وصل إليه جورج؟ هل هي غلطة عابدين أنها كانت بجانب التحرير لتعرفنا علي مجتمع لم نكن لنتخيل أن نعرفه؟ تابوهات اجتماعية لا يمكن الاقتراب منها أو التصوير، تماما كالمنشآت العسكرية، إذا اقتربنا منها تحولنا الي جناة نحاكم أمام المحاكم العسكرية؟ لماذا اختلطنا ببعضنا البعض؟ لأننا كلنا نحلم بغد أفضل؟ "اللي جاي أحلي " على رأي تامر حسني الذي جعل من حياتنا جحيما منذ أن غناها؟ ما هو السبب الحقيقي الذي جمعنا كلنا؟ أنا وعطية وكابو، وزياد، وجورج، وأنور؟ أهي عابدين؟ أهي شوارع وسط البلد ومقاهيها؟ أم هو كان مكتوبا لنا أن نتعرف على بعضنا الأخر كي نواجه المستقبل، لأننا فشلة في الحاضر، بالقطع فشلة، فاسدين، تماما كفساد مجتمعنا، ظننا أنفسنا الأحسن، الأنقى، الأفضل. قالها كاظم الساهر، الذي إذا عرف أحد من شلتنا من عشاق الكينج أنني أحب اغانيه لقتلني، تغيرت، تمردت، تجبرت وتكبرت. المضحك أننا ظننا أن تمردنا سيغير الكون، لكن أنظر إلينا، قد أصبحنا بالفعل موهمين بأننا الأحسن، تكبرنا وتجبرنا، حتى أصبحنا لقمة سائغة المضغ لكل من هو طامع، مكروهين لأننا نحلم دون أرض واقع نمشي عليها. حلمنا بأن تكون عابدين مساوية للمعادي، تورية، بالقطع تورية، لنضحك على أنفسنا، ظننا بأننا سنصبح مليونيرات،

" هنقسم السبعين مليار"، سنعمل في أحسن الشركات، بأننا سنكون كل شئ في المستقبل، عشنا اللحظة، طيرنا فوق السحاب كما كان دائما يقول كابو بعد نفس من الحشيش. أشعر بشيء ما علي صدري، شيئا يثير شفقتي علينا، علينا جميعا ولا أستثني أحدا، أشعر وكأنني مسئولا عن ما حدث وما سيحدث. فعلا نحن أمام فرصة لترتيب أوراق الغد، وحقيقة الأمر تجعلني أعترف أن مرضي سببه التقزز من نفسي لأنني لا أعرف ماذا يمكن أن يحدث غدا. ما هي خطتنا للغد، سوي الشجب والمعارضة. لا أعرف لغة سوي الاعتراض، صحيح أعترض لأني أقف بجانب الحق، ولكن هل هناك حق على الأرض؟

سمعت صوت الباب يفتح، لم أفتح عيناي، ولكنني شعرت بوطأ قدميها، كانت أمي تطمئن علي، تتجسس حرارتي ثم سمعتها تقرأ المعوذتين وهي تضع يدها على رأسي. ثم غادرت، ومع مغادرتها نزلت دموعي، لم أفتح عيناي ألا حينما اهتز موبايلي، نظرت إليه ودق قلبي، رسالة واتساب من قمر علم الدين:

- هيثم، أنا مسافرة أول يوم سبتمبر، لسه بعتنلي الإيميل دلوقتي! أنا مرعوبة وعمالة اعيط

وضعت الموبايل ولم أرد، تبكي في نفس وقت بكائي، لم أبك كثيرا في حياتي ألا حينما يموت أحد، هل مات قلبي؟ هل تمردت وثورت كي يموت قلبي؟ قرأت مرة أن حكيما قال: بالأمس كنت ذكيا، كنت أريد تغيير العالم، أما اليوم فأنا حكيما، لذا سأغير نفسي. نظرت إلى الموبايل

مرة أخري، وفتحت الفيسبوك، كتبت اسمها: قمر علم الدين. أخذت أتصفح صورها، صورة، صورة، ألبوم صورها في سان فرانسيسكو، صورها في باريس مع أسرتها، صور تخرجها، ثم توقفت أمام صورة، صورتها وهي ترتدي قناع فانديتا. لم أستطع التنفس، تمنيت ألا يكون بدر في الغرفة لأبكي بصوت عالي. ذلك القناع قد خبأ جمالها بابتسامة بلهاء، وكأنه يقول لي مرة أخري: "أنت حمار"، أخذ قمر مني، خبأ عيونها، يوم كنا متمردين حقيقين، كنا لا نخاف شيئا، كنا ما زالنا مؤمنين بأننا قادرين علي تغيير المستقبل ، كانت قضيتنا أكبر، قضية اختفت ، ماتت وسط ملايين القضايا الملفقة لو أدنا جميعا، كتلك القضايا للتخلص من بدر، من حماة الثورة الحقيقيين، للتخلص من أغلب شباب عابدين، حراس الميدان. وجهه الذي تخفي وراءه قاتلينا الحقيقيين، الطامعين، الذين حولوا الثورة الي تمرد، مجرد حالة من التمرد على الوضع الذي وصلنا إليه. الوضع الذي كنا سببا في الوصول إليه، كنا سببا في فشلنا، بأكذوبة هؤلاء ممن اخترقونا، استدرجونا، ليموت أحسن من فينا.

ثم كتبت اسمه: زياد العلايلي، صورنا سويا، صوره مع كابو وملك اللذان قد أصبحا أصدقائه المقربين، ثم صوره وهو في الزي العسكري ويحمل سلاحا، كم كان نحيفا، وكأن روحه كانت مسحوبة، لا يري نفسه اليوم وهو كما تقول أمي " مالي هدومه" بعد شهرين في شركة، أصبح يرتدي ثياب جديدة وأصبح وجهه في رونقه. فكرت هل فعلا يفكر زياد بأن قمر قد تغيرت، تمردت، تجبرت وتكبرت؟ ولهذا السبب تركها؟

ثم فتحت بروفايل: أحمد عطية، الذي أخذ يدعو للاعتصام في رابعة وأصبحت كل بوستاته تخوننا، أخذت أقلب في صوره فوجدت أن لي صورة واحدة فقط معه، صورة واحدة بالرغم من أنه كان يمتلك كاميرات لتصوير ما هو أهم من صديقه. التصوير الذي حوله في رأيي إلى جاسوس، جاسوس يسرب أخبارنا بدلاً من نشرها لمساعدتنا. صورة واحدة معي، وملايين الفيديوهات للجزيرة.

بروفايل جورج، صور الصليب، صورة البابا شنودة، صورنا في عابدين، صورنا الكثيرة سويا، ولكن يكثرها صوره مع أصدقائه من الكنيسة.

بروفايل أنور، الذي لم أجد فيه سوي سور القرآن، وصور لدعم الشرعية، إن لم تكن صور لحازم أبو إسماعيل.

بروفايل بدر، الذي لم يغير صورته مع ياسين منذ وفاته، صور لأبو تريكة، لرقم ٧٤، لفانديتا.

ثم فتحت بروفايلي الشخصي، الذي لا علاقة له بالحركة، وجدت صورنا، منذ نعومة أظافرنا، كلها في عابدين، أمام كشك الفلكي في أوائل الألفية، أمام منزلنا في محمد محمود، منزل كابو في حسن الأكبر، في شارع الشيخ ريحان، شارع عرابي، نوبار باشا، يوسف الجندي وحتى صورة كنا قد صورناها أول ما أجر كابو شقة عابدين، كل ذكرياتي كانت في عابدين وكأنني سمكة لم تخرج من مياهها، كلها صور لي معهم، بالرغم من أنهم يصغروني. ثم صورتي مع أبي ونحن نرتدي

بالطو المحاماة في حفل تخرجي. نظرت إليها كثيرا، أحاول أتذكر فيما كنت أفكر حينها، حتى رن موبايلي مرة أخري، رسالة واتساب أخري من قمر:

- أنت نايم ولا إيه؟

نظرت إلى صورتها في واتساب، أخذت أحدق في عيناها، في كحلها الأسود الذي طالما لمس قلبي وكان كنقطة ضعفي. ذلك الكحل الذي جعل شخصيتها محددة، نظرتها صائبة، أو هكذا ظننت فيها، ووجدتني فجأة استرجع شريط حياة كاملا من أول يوم رأيتها فيه، يوم جمعة الغضب الثانية في التحرير حينما كنا نثور، حتى اليوم في الإتحادية حينما كنا نتمرد. كم اختلفت، لم أرد قولها عاليا، ولكن وجب قولها، قد نضجت، كبرت، حتى نظرة عينيها تغيرت، ظننتها المثل وبأنها لم تتغير، ولكنها تغيرت، حتي قمر قد تغيرت دون أن أدري. نضجت من حزنها، كما أشعر أنا اليوم بأعراض النضوج، فكرة راودتني، أن أهرب مثلها، أن أنضج مثلها، أن أستغل خوفي لأتمرد حقا على نفسي، لأغير حياتي. فكرة أخذت ترقص في رأسي، تدور وتدور حتى نمت.

في تلك الغابة ثانيا، حيث يوجد قصر في أخر الطريق، يصطف على الطريق كل من عرفتهم في حياتي، يحملون رايات بيضاء بصور الشهداء، ومع اقترابي لذلك القصر، كانت معالمه واضحة، كان قصر عابدين، وأمامه وقفت قمر، ثم اقتربت مني هامسة:

- أنت وصلت للنهاية... نهاية الطريق.. أنت وصلت للقصر

– أول مرة أعرف أن القصر مش في الاتحادية، أن القصر هو قصر عابدين

– ممكن تحكم العالم من مكانك، مش لازم تروح حتة ثانية

– بتقولي كدة وأنتي مسافرة؟

– أنت قلب عابدين

– وليه أنتي مش قلبي أنا؟

– لأن عابدين يعني الثورة ... يعني زياد

مشيت قمر، واقتربت أنا للقصر، فتحت أبوابه، مشيت في حديقته حتى وصلت للباب وعلى سلالمه وقفت، التفت لأري شبابا كثيرا، تصفيقا حادا، شماريخ تضرب في الهواء، بدر مهللا، مغنيا أغانيه بعلو الصوت، يقفز عاليا. رأيت أبي يقف بزيه الرسمي، ببالطو المحامي الأسود، رأسه مرفوعا وكأن ابنه يتوج ملكا، أخذت أجول بعيني بين الوجوه، ولكنني لم أراهم، لم أر أيا مما كنت أعرفه، الحقيقة ارتحت لغيابهم، مما يؤكد صحة فكرتي، وجوب التفكير في نفسي ولنفسي فقط. وقفت سعيدا أنظر من على السلالم على البيوت من حول القصر، رأيت شقة كابو من بعيد، يخرج منها دخان الحشيش ممزوجا بصوت أغنية حواديت للكينج منير. ابتسمت لأنني لست فيها، بل لأنني في مكان أفضل، مكان أعلي، أحسن من ذو قبل. ثم فاجئني بدر قافزا على السلم بجواري صارخا:

هيثم، اصحي، عدلي منصور بيحلف اليمين!

الفصل الثامن
من أكون؟

وقفت أنظر عاليا، متسائلا ما هو الفرق بينه وبين برج القاهرة؟ ضحكت، أصبحت سخريتي هي السمة الأساسية لشخصيتي، لتدخلني إلى مرحلة جديدة في حياتي، مرحلة تقبل الواقع. تركت عابدين من سنين، ولكنني مازالت أتذكرها، مازالت أذكر كل يوم كنت أمشي في شوارعها، جلست على مقاهيها، اشتريت من محلاتها، شممت رائحة الخبز الطازج وهو يخرج من فرن عابدين، وشربت من عصائر عابدين، وقفة الكشك مع شلة عابدين متوسطين ميدان الفلكي، في قلب عابدين.

نظرت له وكأن روحي تطير فوقي لتجلس تشاهدني من أخر أدواره. كم كنت نكرة، كم كنت أبلها لأصدق وهما، وهم أنني مغيرا للكون، ولكنني هنا الآن، حتى لهجتي تبدلت، طريقة كلامي تغيرت، مظهري قد أصبح مختلفا، قد دب الشعر الأبيض رأسي، لم يجعلني أبدو أكبر، بل زادني جاذبية. يا تري من أطول؟ أنا أم هو؟ من ذو قامة أعلي؟ استغربت طريقة كلامي، من أكون؟ وضعت يدها على كتفي، لتخرجني من حالة التساؤل التي صارت عادتي الجديدة. أسرح أسأل نفسي أسئلة لا يعرف إجابتها أحد. كنت انتظرها وكأنها مخرجتي من

عتمة أفكاري، من حوارات أتذكرها كل يوم لتؤرقني وتشعرني بأنني قد أكون مخطئا لأن أصدق الوهم الذي أعيشه لأكثر من أربعة أعوام. كان مشهدا رومانسيا، بالنسبة لأفلام الخليج العربي، شاب وفتاة يتقابلون تحت ظلال برج خليفة، البرج الأطول في العالم.

– أنت مجنون؟ يعني إيه مسافر؟

– فرصة العمر، محدش بيسيب فرصة العمر

– ومصر؟

– مبقتش مقاسي، مبقتش طايقها

– أنت أتغيرت.. عمرك ما كنت كدة

– مش كنا عايزين تغيير، أديني غيرت

– سنة تعمل فيك كدة؟

– سنة تعمل أكثر من كدة

أخرجتني يد مايا من ذكرياتي، مايا علي المخزنجي، قابلتها في أحد بارات دبي، كانت تلبس فستانا أزرقا لن أنساه، كان وكأنه قد رسم على جسدها المثالي، بالصدفة اكتشفت أنها زميلة لي في الشركة، ولكن لكبر شركتنا المكونة من عشرة طوابق، لم أكن لأعرفها أبدا لولا أن أشار عليها مراد. مراد الجبالي، صديقي المصري الإماراتي، من أب إماراتي وأم مصرية، ولد في الإمارات، ولكنه يجيد اللهجة المصرية.

- مايا دي يا سيدي صاروخ الشركة، ازاي مشفتهاش قبل كدة؟

- معلش، لسه مبتدئ

-مايا، مايا، تعالي

أخذ يناديها لتقترب علينا، كانت تلبس حذاءا عاليا أزرق اللون هو الأخر، جعل خطوتها ثقيلة لكن واثقة. كم عرفت أنها فتاة الأحلام من مشيتها تجاهي. لمع عقدها الذهبي مع أضواء المكان، ومع طلتها علينا قبلت مراد.

- كيفكم شباب؟ ولا أقول: ازيكم؟

ضحك مراد قائلا:

- يا ستي، كلمينا مصري منقدرش إحنا على اللبناني، أحب أعرفك..

- ما بدك تكمل، أعرفه كويس قوي، الكل راح يتكلم عنه

- ازيك؟

قلتها وابتسمت، كانت تلك هي بداية الليلة التي تعرفت فيها علي مايا ولنقل هذا الفستان الأزرق، لم يصمد طويلا على جسدها المثالي "طبعا المصري معروف بجبروته"، قالها محمد هنيدي ساخرا، ولكن أصبحنا كلنا نعتقد فيها. ومن يومها أصبحت مايا اللبنانية، شريكة رحلة كفاحي في أراضي دبي العتيدة. ثقافتنا عن لبنان كمصريين، ظلت هي السمة الأساسية لعلاقتي بمايا، قليلا ما نتكلم، اكتفيت معها

بثقافتي المصرية عن لبنان، بتفاهتنا " جبال لبنان، وبنات لبنان"

– شو حبيبي، اتوحشتك؟

– تؤبريني روحي، بس كلميني مصري يا بت، قلت لك مليون مرة بحب المصري

ضحكت ثم مسكت يدي وكانت قد قررت أن نجلس في أحدي المطاعم التي تطل على نافورة برج خليفة، كانت ذكرى لقاءنا الثالثة، لم أكن في وعيي تماما، فقد كنت ساهرا الليلة التي تسبقها مع مراد وشباب آخرين "ولادك يا عابدين خربينها بره"، وأصرت مايا علي أن نحتفل بعدما تذهب إلى الكوافير، جاءت بشعرها البني الكثيف بخصلاته الذهبية ترتدي فستانا قصيرا فاتحا يميل إلى البنفسجي بكعبها العالي الذي يجعلها تظهر وكأنها أطول مني، طول كعبها كان مستفزا، ولكن أبدا لن يجرأ أحد على التعليق على الفاشون اللبناني. مشينا قليلا لنختار مطعما لنأكل فيه، تبعتها كالمعتوه أمشي وراءها كظلها، وحقيقة كانت تسحبني وراءها لأنني كنت في حالة إعياء شديدة.

– نقعد هنا؟

– مش عايز أقعد، أنتي ليه مصرة تقابليني؟

– ليه مصرة أقابك؟ لأني بقالي فوق السنة مشوفتكش، من ساعة ما قفلت الفيسبوك وتويتر والواتس اب وكل حاجة، من ساعة ما بطلت تقابلني أو ترد على تليفوناتي

- أديكي شوفتيني، عملتي بيا إيه؟

- أنت من أمتي بقيت قليل الذوق كدة؟

- أنا طول عمري كدة وأنتي عارفة كدة كويس يا قمر

جاء الجرسون ليعطينا قائمة الطعام، لم أتردد كثيرا وطلبت قهوة سادة حتى دون أن أمسكها، أما مايا فحاولت تلطيف الموقف مع الجرسون بأننا سنطلب الغداء لاحقا، وطلبت عصير كوكتيل. أخذت تقلب في موبايلها، وكنت بالطبع مدركا لما ستفعل، ستأخذ صورة "سيلفي" مع "تشيك ان " على الفيسبوك وانستجرام لتعلن للعالم أين تكون. كانت ترتدي نظارة شمس أخفت جمالها، ولكنها كانت في قمة الأناقة. كنت قد اشتريتها لها بألف درهم في عيد ميلادها السابق " قال أنا معايا ألف درهم اشتري نظارات للبت بتاعتي، بركاتك يا دبي". تلك السخرية التي أخذت تعسفني ليلا نهارا منذ وطأت قدماي أراضي دبي، تلك السخرية المستفزة وكأنها ضميري الحي، وكأن ضميري أراد ألا أتركه في عابدين فقفز ورائي في طائرة مصر الطيران من مطار القاهرة إلى دبي. تذكرت كم كانت مشقة تجميع حق هذه التذكرة، مشقة الظرف الممتلئ بالأموال كدعم لي في أول شهر لي، على وعد بأنني سأرد كل مليما أخذته. " قال لك نظارة بألف درهم"

- أنت ليه بطلت تكلمني فجأة؟ ليه بعدت؟ ليه؟

- أفرق لك في ايه يا قمر، انتي كنتي مسافرة، كنتي هتسيبيني

– فأنت سيبتني الأول؟!

– أنتي مقدرتنيش، مقدرتيش مشاعري

– وأنا مين كان يقدر مشاعري؟

– كانت حلوة أمريكا؟

– أه جدا، سافرت فيها كذا ولاية، وروحت حضرت ماتش من ماتشات كأس العالم في البرازيل

– بجد؟ وإيه اللي بقي اللي رجعك لو كانت حلوة؟

– أنا قلت من الأول أني مسافرة سنة وراجعة

– غبية، طول عمرك غبية

– لو سمحت أنا مسمحلكش تكلمني كدة

– دلوقتي بقيتي بتعترضي، دلوقتي بس! أسف يا ستي.. ولا أقول لها لك بالأمريكاني "سوري ميس قمر"

– ده أنت شايل مني قوي؟

– إيه اللي رجعك؟ ليه رجعتي بعد ما كنت عديتك؟

– واضح أن الكل عداني مش أنت بس، كل حاجة أتغيرت من ساعة ما رجعت

– معلش، بكرة تأخدي عليها، هتتعودي

- إزاي عابدين؟ وشلة عابدين؟

- طبعا أول حاجة بتسألي عليها

قفزت مايا من مكانها، مع أول رنة من موبايلها الايفون الجديد مبتسمة بشدة:

- حبيبي، هايدا بابا، والله راح احكيله عن الترقية تبعي وأنا على النافورة

وقفت ومشت الي النافورة، أنزلت نظارة الشمس من على عيناي قليلا، لأرى مشيتها وهي تمشي متجهة إلى سور النافورة، لاحظت أنني لم أكن الوحيد الملتفت ليراها، فالمواطنين وغير المواطنين في إمارة دبي الشقيقة قد التف ليري "موزتي" وهي تمشي بكعبها "المتحني" تجاه النافورة لتكلم "البابا تبعها" وتبلغه بالترقية "تبعها" التي قد نالتها يوم الأربعاء قبل الويك اند. حقيقة قد أستحقتها، كانت ذكية في مجال "الماركتينج". جاء الجرسون واضعا فنجان القهوة، وأنا أنظر إليها عن بعد، وكأنه يقول لي " اتنيل اشربه يمكن تفوق".

- كابو وملك اتخطبوا وفرحهم باين بعد خمس شهور

- عرفت، شوفت صورتهم على الواتساب عند ملك

- أه صحيح، ما أنتي الكل مسحك من الفيسبوك

- شوف أنت بقي! الكل أتبري مني

- جورج هاجر، مشي بعد فض رابعة، حظه منيل، كان فيه حظر تجول وقرف يوم ما جيه يسافر

- وأنور؟

- أنور؟؟ أنتي متعرفيش؟

- لا! ما أنا قلت لك، الكل مسحني

- أنور مات يا قمر

- لا إله الا الله. الواحد مش عارف يقول إيه؟

- يقول أنه مات مضحوك عليه، قدموه قربان، كان درع بشري، غبي!

- الله يرحمه، بس متقولش حاجة وحشة، حرام.

- وعطية، أكيد أنتي عارفة بقي

- ده الوحيد اللي أعرف إنه سافر قطر وبيشتغل في الجزيرة

- لا وكمان سافر تركيا، وكل شوية يسافر بلد شكل

- وبدر؟

- زي ما هو، طارق عامل إيه؟

- طارق قرر يحول كليته وبقي كلية حربية

بدأت القهوة في العمل الفوري، مع اقتراب مايا إلى المائدة، ثم وقفت

خلفي وضحكت هامسة في أذني:

- بابا فرح عن جد

- أكيد يا حبيبي

- اضحك، خلي الصورة تطلع حلوة

ابتسمت لتلتقط لنا "سيلفي" سويا، ثم جلست على كرسيها، وبدأت تتأفف من أن العصير قد أصبح دافئا، ولكنها أخذت منه رشفة. ثم خلعت النظارة مبتسمة، ووضعتها على المائدة، ومدت يدها لتمسك يدي، فقدمتها لها ومسكت يدها:

- مالك حبيبي؟

- تقلت العيار امبارح شوية

- مراد ده شيطان!

- كلنا شياطين يا حبي، بفستانك اللي مخلي دبي كلها اتلوحت عليه

- والله شكلك بتغار؟ أنا لبساه كرمالك يا عمري

غمزت لي غمزة أفهمها جيدا، غمزة تعني " اتفلق يا حبيبي"، هذا تفسير سخريتي، اما تفسير الغمزة الحقيقي هو أن تثيرني، لا أستطيع إنكار أنها مثيرة، تماما كفرصة عمر السفر إلى دبي. ظننت أنني سأعمل كثيرا وتمتص الشركات الكبري دمي إن لم تكن لتجعلني أمسح الأرض، ولكنني اكتشفت أن "فهلوة المصريين" قد قصرت على طرقا

كثيرة، جعلتني أترقي بعد أول سنة لي. ساعدني وجود مراد كثيرا، فالعرق المصري بداخله يجعله يعرف كيف "يبرشط" على كل من هم أغنياء ليجعلونا ظلالا لهم. بهلونات تحتفل معهم كل ليلة، أو ليلة وليلة، يصرفون عليهم لإسعادهم. " مش شمال"، ولكن كنا نضحكهم بخفة دمنا، جعلتنا مشهورين بين العرب بأننا " شلة الأنس"، إن لم نكن " أصحاب السوء". فكرتنا عن دبي، تماما كفكرتنا عن لبنان، فكرة سطحية جدا، يحاول المصريون فيها عدم تثقيف أنفسهم، بالنسبة لنا، دبي هي أوروبا الشرق، الملايين، الثراء، الحياة!

كان على سبيل السخرية أن يوم لقائي بمايا، كان نفس تاريخ عيد ميلاد قمر، ابتلعت رشفتي من القهوة السادة وأنا أجلس مع قمر، التي كانت قد تجهمت بعد معرفتها بمكان سفري:

–دبي؟

– قلت لك فرصة، أعمل فلوس

– بيقولوا أنها غالية، مظنش هتعمل فلوس زي ما أنت متخيل

– معلش أصل أنا مينفعش أسافر أمريكا، ولو سافرت أكيد عمري ما هرجع

– خلاص فهمت، مش كل شوية لازم تذلني

– مش ذل والله، بس أصل إزاي ترجعي؟

– مصر وحشتني، الغربة صعبة

- انزلي اجازة، لكن مش تقدمي استقالتك وترجعي

- أنا نفسي أعيش في مصر

- الكل بيهرب منها وأنتي بترجعي لها؟ الأخت غاوية فقر؟

- أنت من أمتي بقيت كدة؟

- سميها كفرت بمصر، مبقاش ليها فايدة

- استغفر الله العظيم!

أنزل الجرسون الأكل الذي طلبته مايا وأنا سارح في الملكوت، أخذت أنظر إلى يدها وهي تقطع اللحم، كانت يدها قوية، فمايا بالرغم من أنها شخصية فرحة، تحب الحياة ألا أنها حادة الطباع أيضا، ليست عصبية، أنما حازمة، تظهر الحية بداخلها تبخ سمها في وجه أيا ممن قد يعترض طريقها، سببا من أسباب عدم اعتراضي علي الرموش الصناعية التي تركبها، أو الفساتين القصيرة التي تظهر تفاصيل جسمها، قبلاتها وأحضانها لغيري، بالطبع أنا لست " خرونج"، بل أنا "كينج كونج". فهي تعتبر السلام بالقبلات شيئا طبيعيا في مجتمعنا، الله يرحمه جدي أظنه كان يوم ما يجلس في مقاهي عابدين يستمع ل "الست أم كلثوم"، وهو يرشف قهوته السادة، ثم يذهب الي منزله لتكون له "شنة ورنة ولا سي السيد في زمانه"، أما حفيده، فيجلس في الأحلام، في ظلال برج خليفة العالي، يشرب القهوة، وله أيضا "شنة ورنة " في المنزل والمنزل فقط، مع مراد ، شريك السكن ، حينما ينسي أن يغلق الثلاجة أو يرفض

إلقاء القمامة .

– حياة الغربة صعبة، على طول هتبقي مطالب تثبت أنك أحسن من الكل. أنك العربي المسلم الشاطر، علشان تثبت وجودك

– مش لازم يعني تبقي أحسنهم

– ازاي؟ امال أنا مسافرة ليه؟ مش علشان أثبت نفسي

– محدش بيفكر زيك يا قمر

– الكل بيفكر في الفلوس والهروب من مصر؟

– أه طبعا، الكل بيهرب، نقعد نعمل ايه؟

– اكتشفت أن الهروب أكبر غلطة الانسان ممكن يعملها، الإنسان عمره ما بينسى هو هربان من إيه

– يعني الهروب منسكيش؟

– الهروب بيخليك تستبعد حاجات من تفكيرك علشان اتشغلت بسبب أكبر، أنك تثبت روحك، وتقدر تعيش في ظروف جديدة، مسئوليات جديدة، ومع ناس جديدة، عقليات جديدة.

– زي ما بتهربي من سؤالي كدة؟

– مشكلتي أني كنت فكراك أكثر واحد هيتبسط إني رجعت

– مشكلتك إنك مش عارفة أنتي عملتي إيه

غضبت مايا لأنني لم أرد عليها، بينما كنت سارحا، أخذت تنادي علي ولم أسمعها، ابتسمت متأسفا، ولكنها كانت تقول لي بأنها تريد أن تمر ب "دبي مول" قبل توجهنا الى البار. استوقفتها بسؤال، أظن سخريتي هي من تكلمت، بينما كان عقلي غير واعيا:

- أنتي بتحبيني يا مايا؟
- أكيد حبيبي، أنت مالك اليوم؟
- أنا عايز اتجوزك
- والله؟ عمري ما تخيلت أن ها اليوم راح يجي
- بتتريقي؟
- لا، بس أنا عارفة أن أنا مو فتاة الأحلام، مو أم العيال زي ما بتقولوها بالمصري
- علشان كدة كنتي متخيلة أن عمري ما هقولها
- لا، مو هيك. بس أنا ما بدي اتجوز ها الحين
- طيب، أنا بقول نفضها سيرة أحسن
- حابب تقلب اليوم علينا؟
- حابب أبقي صريح. حابب أكون أنا. كنت فاكر أني هلاقي نفسي هنا، بس من ساعة ما عرفتك وأنا "مو أنا"

كنا نجلس في صمت ننظر إلى النيل، كورنيش الزمالك، فقررت

أنني لن أقبل بأن تطئ رجلي المعادي، شرطي للقائها كان أن أقابلها في منطقة أخري، منطقة ليست بعابدين، وليست بالمعادي، أرض وسط، لنلعب مباراة اعتبرتها تصفيات النهائي قبل سفري. وكنت أتمنى ألا ألعبها من الأصل، ألا أن اصرارها على مقابلتي كان قد أثر علي، لم أتخيل أبدا أنها قد تلجأ إلى تلك المرحلة من الإصرار، بأن ترسل لي رسالة على الموبايل تجعلني أوافق، حينما أرسلت لي رسالة تقول "لازم أقابلك قبل ما اتجنن"

– إيه بقي اللي كان هيخليكي تتجنني وخلاكي تزني علشان أقابلك؟

– طول عمري كان نفسي أعرف احنا إزاي وصلنا لكده. عملت لك إيه وحش عشان تعمل فيا كدة؟

– خلتيني أحبك

– مضربتكش على إيدك

– دلوقتي؟ دلوقتي بتقولي إنك مضربتنيش علي إيدي؟

– أنت اللي فجأة اتغيرت

– كلن لازم اتغير يا قمر، سيبيني اتغير يا قمر، سيبيني أعيش بقي

– أسيبك؟

– إياكي تكوني رجعالي؟ إياكي تكوني كنتي بتحلمي أننا نكون مع بعض بعد ما سافرتي.

– لا، أنا قلت لك، أنا رجعت علشان مصر

– كنتي بتكلميه ليه يا قمر؟

– مين قال لك؟

– هو!

وقفت مايا معلنة بوقوفها أنها لن تسمح بأن تنتهي علاقتنا لأنني كنت سكرانا الليلة السابقة. وقفت معلنة أنها لن تسمح بأن ألغي حجز الليلة، أنني لن أفسد الاحتفال بكلام لا يدخل عقلها. دفعت الحساب، ثم ترجلنا للسيارة، وركبنا، في حالة من الصمت، كانت تظن أنني سأوصلها للمول، ولكنني لم أستطع، وجدتني أخذ الطريق السريع متجها إلى منزلها، أخذت تصرخ باللبناني، حتى أنني لم أعد أسمعها، لم أعد أهتم لما تقول، ثم وقفت أمام منزلها، وهي مازالت تصرخ، فلم أستطع تمالك نفسي أكثر من ذلك، غضبت، ظهرت عصبيتي، ولكن لم أستطع أن أخفي سخريتي بالرغنم من تجهمي:

– بقول لك إيه يا بت أنتي، بلا شو، بلا مو، أنا الرجل، أنتي لغيتي شخصيتي، أنا كانت مصر كلها تقف علي رجلها لما كنت بمشي في شوارعها، أنا علي رأي الفيلم " من عابدين يا فضائيين"، أنتي علي فستانك، علي ضحكتك، علي كل حاجة تبعك، أنا مش تبعك، أنتي اللي تبعي، هتتجوزيني، أهلا وسهلا، مش عايزة ، غوري في ستين داهية، كفاينا غلط.

لم أشعر بشئ لاحقا لكلامي سوي أنني في شقتها أقبلها، شقتها المطلة على بورتو دبي، شقتها التي طالما شعرت فيها باحتقار لذاتي بدلا من حبي لها. وفجأة توقفت بالرغم من أنها قد استثارت من طريقة صراخي في السيارة، توقفي لم يكن ليرضيها، ولكنني توقفت، وجلست على الكنبة، أبكي، تأثير الخمر من الليلة السابقة كان قويا، ممزوجا بشعور بالغضب الشديد، وفجأة ذهبت السخرية وجاء الغضب:

- النهاردة عيد ميلادها، عيد ميلاد قمر، قمر اللي عمرها ما هتسامحني أني سيبت مصر، قمر اللي سابتني، سافرت، فسافرت زيها. قمر وحشاني، الثورة وحشاني، أنا عايز الثورة.. أنا عايز قمر، أنا عايز أرجع؟ بس ازاي ارجع لعابدين، عارفة يعني إيه عابدين؟

- أهدي حبيبي، أنا فاهمة، بس ما بدي نكد في يومنا، وليلتنا هيدي.

- فاهمة إيه، أنا محدش فاهمني، ومحدش عمره هيفهمني. عابدين يعني زياد بالنسبة لقمر، عايزاني أرجع إزاي وهو هناك!

ظهر لي وجهها باكية، قمر، كانت كالمشللولة، لم تسطع الرد، أخذت لحظات تنظر لي وكأنني طعنتها، حينما واجهتها بأنه من أخبرني:

- هيثم

- عمري ما كنت أتخيل أنك تفضلي تكلميه

- اسمعني

- أنا حبيتك يا قمر، بس عمري ما تخيلت أن حتى أنتي خلتيني حمار

بكت بشدة، دموعها قد أذابت كحلها، الذي لم تغيره بالرغم من مرور عام، لم تتغير، شكلها مثلما تركتها، ولكن عيناها ، كم أصبحوا أعمق، كعمق النيل ، أصبحت تمتلئ بروح مصرية كانت لتجعلني أغير خطة سفري تماما، لولا علمي بأنها لم ترجع لي، بل رجعت لشعورها بالغربة خارج مصر. رجعت لمصر، ولم ترجع لي، لم تفكر في سوي من باب الفضول لمعرفة لماذا تركتها.

– يوم ما عدلي منصور حلف اليمين، كان يوم ما عرفت أن كنتي بتحاولي ترجعيه، أنك فضلتي تزني عليه أنه يرجعلك.

– ليه مقلتليش؟

– أقول لك إيه؟ أقول لك أنه يومها كنت بموت وهو الوحيد اللي وقف جنبي؟ أنه فجأة اكتشف أنه بيحب بنت عمه وأنها وقفت جنبه من بعدك وساعدته في أنه يقف على رجله؟ أقول لك أنه قال لي أنك طلعتي وهم كبير؟ أنك خاينة؟

– زياد قال لك كدة؟

– زياد عداكي في كام شهر، أول ما اشتغل وعلى رأي أمي بقي ملو هدومه

أخذت تبكي زيادة، ولم تكن لتتوقف، ولم أكن لأتوقف عن جرحها مثلما جرحتني:

– لا وكمان يا ستي خطبها وفرحه الشهر اللي جاي، عرفتي بقي

بقول لك إيه اللي رجعك؟ فوقي يا قمر، زياد مش راجع.. زي كدة ما مرسي مش راجع. والله ما راجع

– أنا مش راجعة علشانه

– ولا علشاني، عايزة تعرفي أنا بطلت أكلمك ليه من يومها، لأنني قررت يومها أتغير، مفكرش غير في نفسي، قفلت الفيسبوك، وتويتر، وواتساب، قررت أنه مفيش فايدة أعرفكم كلكم. مفيش فايدة في مصر، مفيش فايدة أني أغير العالم. هاني أخو زياد قال لي أنه سمع عن أن شركة فيها واحد صاحبه عايزين محاميين صغيرين، ووقف جنبي لحد ما الفيزا جت، وأديني مسافر. مش هتيجي أنتي تغيري دنيتي علشان رجعتي قبل ما أسافر. أنا بس اللي مجنني، أنتي إزاي تعلقيني بيكي وتسيبيني أحبك؟

– أنا معلقتكش بيا!

– أه، بس فضلتي تكلميني وأنتي عارفة أني بحبك، كنتي عاملاني كوبري علشان توصلي لزياد.

– مش ملاحظ إنك مزودها؟ مش معني إني بعيط أني مش هعرف أرد عليك!

– ردي عليا يا قمر! ليه سيبتيني بعد ما علقتيني بيكي؟

– أنت بتكلمني أنا ولا بتكلم الثورة؟ هيثم، دونا عن كل الناس أنا وأنت عارفين كويس احنا كلنا متعلقين ببعض ليه؟

- ليه بقي يا ست قمر؟

- علشان أنت مش فاهم نفسك، قبل ما تتهمنا أننا مش فاهمينك!

- وأنتي فاهمة إيه بقي يا قمر أنا مش فاهمه؟

- فاهمة أنه بالنسبة لك يا هيثم، أنا الثورة، وكان أخر أمل لينا نفضل متعلقين ببعض. أنت مبتحبنيش أنا، أنت بتحب أني بفكرك بالثورة.

- وبالنسبة لك، الثورة هي زياد

- إزاي قادر تسيب مصر؟ ازاي قادر تسيب عابدين

- لازم، لازم أسيب عابدين، عابدين يعني أنتي وزياد، أنا كل يوم بحس أن عابدين أتحولت لحبل بيتلف حولين رقبتي، كل شبر فيها بقي فيها ذكري لقصة حبكم، اللي مخلياني معرفتش أوصلك

- مين قال لك أن عابدين بالنسبة لي زياد؟ أنها قصة حبي ليه؟

- امال ايه؟

- الثورة هي اللي قصة حبي لزياد، وزي ما قلت، الثورة خلصت، وزياد مش راجع. اما عابدين، فعابدين هي أنت يا هيثم!

- مش فاهم!

- مش قلت لك، أنت اللي مش فاهمني، عابدين يعني هيثم بدرالدين، كل شارع في عابدين فيه قصة نضال، قصة واحد جدع شال أصحابه، زياد كان بيكره عابدين، بيكرهها لأنها بالنسبة له فقر، وأنا

عمري ما شوفتها فقر! أنا بحب عابدين، بس زي ما أنتم كنتم بتقولوا عليا: قمر مش من عابدين، وعمرها ما هتكون منها، مهما تعمل.

– أنا بكرهك، أنتي ايه؟

– علشان بقول الحقيقة؟ علشان كلامي هيخليك تقعد ومتسافرش؟

– لا، بكرهك لأنك وهم كبير، زي ما زياد قال، وللأسف أنا كنت بأؤمن بالأوهام.

– يعني قصدك أن الثورة كانت وهم؟ وأنتم مكنتوش السبب في الوهم ده؟

– لا، احنا كنا السبب في موت ناس كثير على الفاضي، جرحنا الناس علشان وهم كبير، وهم كبير اسمه الثورة! وهم كبير إسمه قمر!

جلست مايا بجانبي في صمت شديد، كلانا يعرف أنني لا أحبها، كلانا يعرف أننا نعيش أيضا في وهم. الغريب أن مايا كانت تفهمني هي الأخرى، بالرغم من أنني كنت أظن أن أحدا لا يفهمني، ألا أنها كانت تفهمني جيدا. وقفت أمسح دموعي، تحولت الي فتاة تبكي، بكيت بكاءا ذكرني بأنني لا أبكي سوي حينما يموت أحد. تذكرت بكائي حينما كنت مريضا يوم خلع مرسي، حينما كانت رسالة فانيدتا واضحة بأنني يجب أن أعيش لنفسي، حينما وصلتني الرسالة كاملة يوم ما زياد حكي لي عن مطاردة قمر له، يوم ما تخلصت من هيثم بدرالدين وأصبحت شبحه، ولكن كيف أستمر في الغلط، وأنا مدرك أنني غلط،

مدرك أنني أزيد غلطاتي بدلا من أن أصلحها، حياتي كلها كانت غلط، وبدلا من أن أغير نفسي للأحسن، للأفضل كما ظننت، تحولت إلى شبح إنسان، بدلا من أن أنضج، أصبحت فتات إنسان، بدلا من أن أصبح أحسن بخروجي من عابدين، أصبحت اسوأ نسخة لي. ظننته فاشلا، ظننت أن زياد سيفشل بعدما ترك قمر، ولكنه بالقطع أحسن مني الآن، على الأقل تعافي من متلازمة قمر، تعافى وأصبح قادرا على تخطيها، كون حياة جديدة ليثبت فيها شخصيته التي لم تكن قد تحددت معالمها بعد.

- أنا عمري ما قصدت أجرحك يا هيثم، بس أنت كمان مبتحبنيش، احنا كلنا عشنا وهم كبير، وهم أننا نقدر نغير الكون، نقدر نحقق العدالة الإجتماعية، نقدر نبقى أحرار، نقدر نعيش. بس بذمتك، تفتكر زياد قدر يثبت لنفسه قبل ما يثبت لي أنه مؤمن بالعدالة، مصدق بأننا ممكن نكون زي بعض؟ أنت كنت حر؟ كنت حر تحبني ولا كنت ساجن نفسك جوه معتقل ذاتي بتضرب نفسك ليل نهار بأنك خاين؟ تفتكر أنا عرفت أبقي حرة حتى بعد ما سافرت؟ ولا عشت أنا كمان في سجن مخي، بعذب نفسي. احنا مش محتاجين ثورة في البلد، احنا محتاجين نتغير، محتاجين نتعلم معني اللي بنقوله قبل ما نقوله. لو كان زياد بيحبني، مكنش سابني علشان ظروفه، لو كنت أنت بتحبني كنت وقفت قدام العالم مش قدام زياد بس.

- وأنتي بقي البطلة؟

- أنت مش فاهمني، أنا كان لازم أفضل أحاول أرجع لزياد، أنا مش

قليلة الأصل، ومينفعش أبقي قليلة الأصل وأسيبه مجروح بعد ما كنت كل حاجة بالنسبة له.

– أنتي قلتي إيه؟ أنا مش فاهمك؟ لا، صح أنتي اللي فاهماني؟ أنتي فاهمة كل حاجة، أنتي البطلة واحنا الخونة!

– أنا استقالت ومش عارفة أنا عايزة إيه.. مظنش دي فيها أي بطولة

–وأنا بقي لأول مرة في حياتي عارف أنا عايز إيه

– ويا تري أنت عايز إيه بقي؟

– عايز أسيب مصر، عايز أسيب عابدين، عايز أعيش حياتي أنا مش حياة حد تاني.

كانت تلك هي المرة الأخيرة التي رأيت فيها مايا خارج الشركة، يوم ما قدمت على اجازة لمدة أسبوعين لتكون أولى اجازاتي لمصر. لم أعرف شيئا عن قمر لمدة أربعة سنوات، لم أعرف شيئا عن مصر، عن عابدين، لم أهتم، لم أبال، تجنبت معرفة أي شيء حتى عندما زارني بدر وأعطيت له كل مليما استعرته من أبي، اشتريت لأمي ذهبا لأعوضها على ما باعته كي أسافر. حاولت مهما حاولت أن أقنعه بأن يخرج هو الأخر من سجنه، يخرج من الالتراس، بأن يعيش حياته، ولكنه لم يكن أبدا ليترك الأهلي حتى مع اعتزال الساحر. يمكن صغر سنه عني يجعله مازال يؤمن بأشياء لم أعد أؤمن بها، بأنه قادر علي تغيير الكون "يلا خليه يتسلي".

لم أعد أعرف شيئا بعد هذا اليوم مع مايا سوي أنني في حاجة الي اجازة، يا ليتني كنت بجرأتها، بجرأة قمر في أن أستقيل وأن أرجع. بجرأة أن أعود إبن عابدين، ولكن هل ترضي عابدين بقبول "أبنها الضال"، أبنها الذي كفر بها، وتركها وهي في أشد الاحتياج إليه. لماذا صببت غضبي علي عابدين، بالرغم من أن قمر قد أوضحت لي بأن ما عابدين من زياد في شئ. حقيقي، هي قالت السبب الصحيح لغضبي، عابدين هي أنت ... عابدين هي هيثم. كم تنميت لأن أعود لنفسي، كما كنت، هيثم كبير شلة عابدين. كنت خائفا خوفا جعلني أشعر بالارتياب في قرار الاجازة عدة مرات، خفت أن أرجع لأكتشف بأن كل شيء قد تغير، لتكون صدمتي، صدمتي بأن قمر لن تعود أبدا بعدما تركتني وحيدا في الزمالك بعد أن واجهنا بعضنا، تلك الجزيرة التي كانت بداية عزلتي عن العالم. بعد أن أصريت على سفري، بعد أن رأت قمر وجهي فاترا وهو ينظر إلى وجهها، بعد أن اذبت كحلها بسبب كلامي الجارح لها. كحلها الذي لا تتكحل به أجمل فتاة في الأمارات كلها بالرغم من شهرتهن بكحلهن؟ هل تقبل قمر توبتي؟ أين قمر؟ وماذا حدث لها من بعدي؟ هل تنتظرني لأرجع لها؟ أم تجاوزتني كما تجاوزها زياد في شهور قليل؟ فات أربعة أعوام ماذا أتوقع؟ هل أستطيع مواجهة نفسي ثانيا؟ نفسي التي هربت منها بعدما عرفت بأن قمر تعتبرني أنا عابدين؟ هل أستطيع أن أواجه نفسي بأنني أنا عابدين؟ هل أعود؟

الفصل التاسع
تأقلم القمر

أري في كل الوجوه وجها أتمنى نسيانه، وفي كل الشخصيات شخصا أكره أفكاره. كيف لي أن أستمر وكل من حولي ليسوا سوي مجرد ظلال، مجرد أشباح لنفس الشكل، ونفس الفكر، وكأنهما شباحان تآمرا لسحق نفسيتي، مشاعري، وحتى آلامي. هل أحببت نموذجين لكل ما هو ذكوري؟ حتى يظهر شبح من أخاف لقاءه، كقرين لا يفارق كل من ألقاه؟ عجبا، فلقد يئست من رؤية تلك الأشباح تطاردني وكأنني ألد عدوا لهما. قلبي يؤلمني كلما رأيت عينان تشبهان عيناه، ألما يقبض نفسي، يرهق فؤادي. كلما مشيت خطوة رأيت وجهه في كل شاب يمر أمامي.

كم مؤلما هذا الشعور حينما أشعر بانقباضه في روحي حينما أري ظله، ظل زياد. عيناه، كم أشتاق لتلك اللمعة، تلك النظرة التي كان ينظرها لي فتلمع عيناه الذهبيتان وكأنهما تعلنان حالة الطوارئ من كثرة الاشتياق إلي، وكأنهما عينان طفل تعلق بأمه يتمني أن يرتمي في حضن أمه الحنون لتضمه إلى صدرها الدافئ. رحيله قد ترك ثقبا في قلبي، حفرة، هاوية تهوي فيها دقات قلبي كلما رأيت شخصا يشبهه. فحتي في سان فرانسيسكو تعرفت علي صديق أحدهم وكان شاب مصري يدعي محمد منصور كان كتوأمه، شكلا وليس موضوعا. لا أعلم لماذا اعتقدت

يوما إنني سأحب محمد لمجرد إنه يشبه زياد. لم يدم الأمر طويلا حتى أدركت إنني لا أحبه، ولكنها مجرد حالة نفسية حيث أراه في كل من يشبهه. يسمونها حالة الطرح، حيث طرح عقلي شكله وطابقه على كل من يمتاز بصفاته الجسدية. ذلك الجسد الهزيل، تلك العروق المتنافرة في كف يده، حتى تلك العلامة تحت عينه اليسرى آثر وقوعه من على العجلة في طفولته. كل تلك التفاصيل تستوقف قلبي حتى إذا رأيت شبيه الأمريكي ذو الأصول اللاتينية، أو حتى ممثل هوليودي فيه أحد صفاته.

الغريب والذي طالما استغربته، إن الأمر لم يتوقف عند محمد منصور، ولكن تمادي في تعارفي على شاب أمريكي يدعي نيكولاس هيو الذي رأيت فيه عينان قد استوقفتاني وجعلتاني أدرك إنه لا يوجد منطق في إعجابي بالشكل وليس المضمون، وهنا حين أدركت إنني قد نضجت، كبرت، فهمت، لم يكن حبا، بل إعجابا. فكل من أعجبونني امتازوا بنفس الصفات الجسدية التي جعلتني أشكك حتى في حبي، أو ظني في إنني أحب زياد، أو حتى إنني قد أحببته يوما. فجرت الأيام حتى ثبتت صحة ظني وشكي، حينما رأيت تلك النظرة في عيون أكثر من شخص قد أعجبوا بي فيما بعد، ولكن لم يكن أيا منهم جادا في الدخول في علاقة معي. كلهم منبهرين بشخصيتي، شكلي، أو حتى شعري. نعم، شعري العسلي الذي قررت أن أسدله بعد قرار خلع حجابي بعدما سافر هيثم بعدة أشهر. كان قرار خلع الحجاب أظنه حالة من اعترافي بأنني لم أكن بدرجة النضج الكافية لاتخاذ قرار ارتداءه من البداية. كانت موضة،

تقليعة، تحولت إلى عادات وتقاليد، ثم ها هي موضة جديدة وتقليعة جديدة، الكل يخلعه، والكل يمل من الزواج، فتترك الزوجة الحياة الزوجية وتقرر خلعه وكأنها بهذا تتحرر من القيود. أما بالنسبة لي، فذلك القرار كان بناء على توصلي لقرار يخص فكري، ألا وهو إنني قررت أن أعيد اكتشاف ذاتي، أشكك في هوية ولزومية كل شيء في حياتي، وكأنني قد قررت أن أعيد تقييم كل ما أفعله أو أفكر فيه. لابد من وقفة مع ذاتي لإعادة وضع المفاهيم التي أعرف من خلالها كينونتي. ومن أولي تلك المفاهيم هو مفهوم الحب.

هل كنت أحب زياد؟ هل كان يحبني هيثم؟ كيف لي أن أفكر وأشتاق لشكل زياد، وبالرغم من ذلك لا يخطر ببالي سوي أفكار هيثم. لا أعرف، ولكن أظن أن خيبة ظني في هيثم كانت أكبر من كيف قد خذلني زياد. معقدة؟ طريقة تفكير غريبة، غير سوية، ولكن تبدو ممنهجة وواقعية. واقعية! تلك الكلمة التي علمني الغرب إياها، بل وهرست في طريق وصولها إلى عقلي على أي مشاعر عالقة. هل كنت واقعية في اعتقادي إن زياد قد يشق الصخر بيديه العاريتين كي يتزوجني؟ هل كنت واقعية في مطالبي في المليونيات؟ تساؤلات تلحقها إجابة واحدة... لا! لم تكوني واقعية بالمرة. بل غبية، غبية غباء من ظنوا أنهم مغيرين الكون. فحتي أنا لم أغير الكون، بل الكون قد غيرني. سافرت عاما مرت على أيام لم أستطع فيها حتى النظر لنفسي في المرآة. كسرة نفس، ملحقة بشعور بالغثيان، شعور بالمرارة وضيق الصدر، صعوبة في التنفس ورعشة في اليد، وكأنني أكتب أعراض مرض خطير، أو ربما حالة تعافي من إدمان

قد أصبت بها. تشعر فيها بكل خلية في جسدك تنهش عروقك، يلفظ جسدك تلك المادة التي أدمنها، يود عقلك لو ينفجر من أفكارك التي تسرح في خبايا عقلك الباطن، تلك الصراصير كما كان يصفها زياد. وكأنها صراصير طائرة قد طارت من عابدين لتعبر المحيط الأطلنطي وتسافر بالأميال كي تستقر في باكافيل حيث عشت في سان فرانسيسكو في ولاية كالفورنيا.

أفكار هيثم، تلك التي قتلتني في غربتي، وإن كنت لم أكن قد عرفت بعد عن تغييره لها. فقد تغير هو، بينما نقل لي وباءه. وباء هيثم بدرالدين الذي بدأ قبل رحيلي وانتهي برحيله، وإن كان قد ترك آثارا كتلك التي يتركها الجديري إذا هرشت مكانه. مؤلمة، مشوهة، غير قابلة للنسيان. فقد تركت فيك آثرا كالحرق في جسدك لن تنساه مهما حاولت اخفاءه.

وكأنني أحببت الشرير في رواية، حتى ظن البعض أنني قد جننت. كيف تحبين تلك الشخصية ذات الأبعاد الخبيثة؟ هل ألقي لعنته عليك؟ هل سحر لك أم ضحك عليك؟ شخصية تتسلل إلى عقلك فتستلم لها بكل جوارحك. لا تشعر أبدا بضيق أو بنغزة في قلبك لأنك وحدك تعرف الحقيقة. حقيقة حبك لشخصية من صعوبتها تصبح أنت بالنسبة لها سهلا. فأنا أريد أن أكون بسهولة أن يقرأني من أحبه ككتاب مفتوح، من شدة ذكائه يبهرني، ومن رؤيته العميقة يسرد لي خبايا من يخفيه قلبي، بل وعقلي، ذلك العقل الذي طالما حير كل من قبله، وأغلب من بعده. أعرف جيدا أن قلبه ليس كعقله، فمهما بلغت قسوة أفكاره، إلى حد

جلد الذات، يداوي جراحه ويلملم أشلاءه المبعثرة بعد انفجاره الذاتي. كيف لي أن أعشق جلادا يجلد ذاته ويجلدني كل يوم بكلمة لم تقل، نظرة صامتة، بل وتنهيدة سمعت دواها عبر المحيطات؟ كيف لي أن أسامحه الآن بعدما تركني وحيدة كي أتعذب تماما كما عذب هو نفسه ولامها كل ليلة وكل يوم منذ أن وقعت عيناه على يوم سألته إذا كان يمكنه أن يساعد أخي طارق؟ كيف لم ألاحظ من يومها أنه كالشخص الشرير في أي رواية اقرأها ممن يسحبون روحك ليعذبوها، أو يقتلعون قلبك يغرزون فيه بدلا من الخنجر ألف؟ يا ليته أقتلع قلبي، بل كان عقلي، يوهمه فيسحبه كل ليلة لأتذكر تلك اللحظة التي عاتبني فيها إنني خنته حينما لم أقل له إنني خذلته وكلمت من أحببت وطالما تمنيت البقاء معه، صديقه، صديق شلة عابدين، زياد.

" وكم من زياد يترك قمر وكم من هيثم لا يستطيع الوصول إليها. وإن كان كل هذا مجرد فشل، إذن فقل لي طريق النجاح؟ لا يفرق عمر ولا عهود بينهم، فقمر ستصل إلى المراد. صعب ويكاد يكون مستحيل العيش هكذا، لكن هنا يظهر العناد. أن تستسلم كما فعلا، فهي تعرف طريقها لتنير الوجود. فالرسالة واضحة أنت قمر ومهمتك بث النور في كل الارجاء. عشق التفاصيل ميز شخصها، فهي جديرة بأن تحكم حتى البلاد.. وإن كانت نقطة ضعفها، ليست الخيانة، بل الانتماء!! "

وقفت للحظات أنظر للعمارة التي كانت تجمعهم، شلة عابدين. أمر أمامها كل يوم وأنا ذاهبة إلى عملي في محمد محمود. ظننت أنني لن أبالي

يوما، فكيف لي أن أفكر فيهما وقد مر كل هذا الوقت. ابتسمت حينما مررت قبلها بقصر عابدين، وتذكرت حينما أعتدنا الذهاب لحضور حفلات الفن الميدان. وهنا أيقظني الواقع وأنا أجلس في مكتبي، كيف مازالت غاضبة من شباب تجمعهم السياسة بين سحب من دخان الحشيش. كم مازالت ناقمة من فكرة إنهم أخذوا من الثوريين فوضتهم. نظرت لمكتبي أرتبه، كم أكره الفوضى. كم أكره التأخر عن العمل، وكم أكره من أمامه فرصة لا يغتنمها. وكم من فرص لم تغتنم.

" إذ ربما لم أعد أبالي، فلم يعد هناك ما أتمناه.. وإن كان رجائي أن يعود كل شيء كما كان.. توانيت وظننتك ستتفانى.. أو هكذا اعتقدت.. فكنت لا تتواني عن السؤال، ولكنك تكبرت، كنت تتفاني في إيجاد المخرج، ولكنك استسهلت الحجج... وعدت، ولكنك لم توف مع أنك قد عاهدت"

يقولون إن القمر سينزف اليوم ويختفي نوره. أهي علامة أم إن سخرية القدر تلعب لعبتها بإتقان؟ فقدت قمر لمعتها وبريقها وانطفئت هكذا قال الجميع. وكأن القمر شعر بحزنها فقرر أن يؤازرها بل حتى يوقظ البشر عن غفلتهم بأنهم لم يلاحظوا ماذا حدث لقمر.. إذ ربما يلاحظوه، لعل الخير قريب فالقمر سيرجع له نوره ويعود للسماء يلمع، ولعل قمر تعرف أن الخسوف ما هو إلا مرحلة في حياة القمر ولن يدوم طويلا... فالقمر يعشق الشمس، ولكن ما من لحظات إلا وتغار الأرض فتشعر بضرورة العناد.... أليست هذه طبيعة كل البشر؟

ولكن الكل يعرف ان الخسوف سيرحل ويبقي وجه القمر عاليا بجماله الخلاب... فقط اليوم ستحمر وجنتيه من كثرة الغضب لأنه لم يوجد من يبال بما تمر به قمر والكل انشغل بكوكب سيظهر دقائق ثم يتبخر في الهواء... فهي لحظات نشوة ودقات قلب ستنتهي وسيعود كل شيء كما كان...

مصر، تماما كما تخيلتها، دافئة، هادئة، مريحة نفسيا، لكن كان ينقصها شيئا، ويصطحبها ألما ما في قلبي. حزن ذلك أم اشتياق؟ ندم أم حيرة؟ لا ليس ندما بالقطع، فأنا لا أندم على اختياراتي، هي حيرة، حيرة تؤرقني. ماذا أنا فاعلة دونهما؟ دون من كان كالحضن الدافئ الذي أحتمي فيه من أوجاعي، ودون من كان كالعقل المدبر لكل خطوة جادة أخطوها، تماما كضميري الحي الذي يؤنبني إذا ما تشتت عقلي ليتضامن مع قلبي في شعوره بالاشتياق وكسرة النفس آثر خيبة أمل عقبت يقيني بكم كان زياد ندلا تماما كما لم يرد أن يكون. لقد نجحت في تحويل الوفي إلى ندل، والعاقل إلى هارب، يهرب من ذاته، ومني، ومن حبيبتنا مصر، معتقدا إنه بذلك سيعرف حقيقة مشاعره وأفكاره، بينما لا يعرف أن الحقيقة مدفونة هنا بين كلمات لم تقل، ومشاعر لم تتبادل، وآمال تفتت من دهسها بالأرجل، كشخص قد وقع وهو يمشي في مسيرة في مليونية يوم جمعة تماما كما تعودنا أن نحضرها سويا. شعور بالاشتياق لزياد، مصحوبا بألم حاد في العقل آثر أزمة نفسية حادة لغياب هيثم، تاركيني وحدي أحارب صراعي الداخلي الممزوج بصراع خارجي أكبر ألا وهو إنني قد أصبحت أفشلهم!

فأنا جلست وحيدة في غرفتي لمدة طويلة، لا أعمل، ولا أحب شخصا، بل ولا يفكر في كلاهما. كل شيء قد تغير، كل شيء أصبح أجمل شكلا وأقبح مضمونا. كل شيء أصبح أعقد مما بدي عليه، كلنا أصبحنا خائنين، ناقضين لعهودنا التي وعدناها يوما، يوم ما كنا نعتقد ونؤمن بإننا أوفياء لن تفرقنا أماني ذات العينين الضيقتين، أو مئات الأميال وخمس ساعات سفر في الجو تحول بين القاهرة ودبي. فزياد قد تزوج، وهيثم لم أسمع عنه شيئا منذ أخر لقاء لنا في الزمالك.

في ذكري ما مرت للثورة تساءلت، إلى متي سنظل هكذا؟ نخدع أنفسنا بأننا قد وصلنا إلى شيء، ولكننا في الحقيقة تهنا في غياهب الأماني رافضين تصديق الواقع، واقع خداع حيث الثورجي ممول والشباب مضلل والنظام مهلهل أما الفاسد مدلل... كيف؟ كيف لنا أن نؤمن بحياة أحسن في حين غياب الرؤية، غياب المنطق... كيف؟ تزور الأدلة وتفسد الأوراق وتخفي المطالب حتى يظهر الحق وكأنه إكرامية حق مطالبتك برؤية المنطق وتنفيذه. هكذا مرت عدة أعوام غاب فيها المثل الأعلى وضاعت الطموحات أما عن الأماني فلا جدوى حتى من تمنيها، فما ينفذ لا يمت للعقل بصلة، اما الأحلام... فمثالية تافهة، لا يوجد سبب يجعلها ذات أفضلية. وها أنا، لم أعد أعرف أين الحقيقة، ولكن في كل الأحوال... لم أجدها بعد!

" شوفتك في الحلم بتبكي... ومن جابك في منامي؟

كنت عشت سنين لوحدي... ومبقتش تيجي في أفكاري

يا تري ليه جاي تشكي... من بعد ما حققت الأماني

مش صدفة ولا عقل باطني... دي رؤية وأنا واثقة في كلامي

كذبك في الدم يسري... مش كنت في يوم بتتمناني؟

إيه غير كلامك عني... ما خلاص سبتني و ده كان تمامي

كنت بعت رسالة لي... لازم تقول ليه كأنك كنت بتترجاني

قمت من حلمي أبكي.... فات عمر وبرضه مش عارف تنساني

أنا نسيتك وبنسي... بس شكلك لسه بتتحداني "

هكذا أسرح كلما لم يعد عقلي قادرا على استيعاب أي موقف، أشدو بكلمات يرددها قلبي داخل عقلي حبيسة جسدي لا ينطقها فمي. لم أكن تلك الفتاة، لقد أصبحت كالملبوسة بجن يهوي الشعر والغزل والهجاء. هل كانت لعنة ألقاها علي هيثم بعمق أفكاره وغزارة كلماته؟ أم أنني أصبحت كالدراويش أهذي من وجع الاشتياق؟ أخذت أردد كلمات أتممتها كلما مررت بمكان لي ذكري فيه، وما أكثرهم. في رحلتي للبحث عن عمل بعد عودتي، مررت بأماكن لم أقو أبدا المشي فيها، ولكنني قد مشيت ...

" بحب وسط البلد بكل تفاصيلها

بحب القمر اللي منور فوق نيلها

وفوق كل ده بحبها لأنك منها "

من هو؟ ومن يكون؟ زياد أم هيثم؟ أم يجب أن أقول الحقيقة "لأنكما منها؟" هكذا ستكون أدق، معبرة، تماما كما أشعرها؟

" بشوفك في كل عيب في الاختيار... بشوفك في كل غلط في القرار

بشوفك كل يوم زي التكرار... ومقدميش غير إني أختار الفرار"

هكذا كنت أجري من كل شارع به ذكري، هكذا أنا، أهرب كلما ضاق بي الزمان، ألم يكن سفري هربا من ترك زياد لي؟ حتى إنني لم أفهم حقيقة أن فراري كان في باطنه سببا أكبر ألا وهو عدم مقدرتي على الجري لهيثم لمواجهته بأنني لم أكن أعرف ما أريد حقا؟ الفرار، بدي سهلا، الأمر الذي جعله أسهل فيما بعد لهيثم، بأن يفر بعيدا، ويتركني وحدي، وإن كنت أعذره أحيانا.

" قمر محبوسة جوه قفص وهي السجانة

كأنها قاصدة تعذب نفسها و روحها تعبانة

إزاي ممكن تعاقب روحها أكيد زعلانة

شافت أحلام مكملتش وصحيت نعسانة

هو ده بالضبط احساس واحدة متخانة

إتسابت لوحدها في المياه زي اللي غرقانة

بتتعلق بأي قشة يا عيني غلبانة

جريت وراء الوهم لحد ما عرفت إنها غلطانة

وبدل ما تفوق و تركز بقت علي طول سرحانة
شايلة الهم وخايفة و بتترعش كأنها في عز البرد سقعانة
ظلمت نفسها لحد ما بقت حاسة إنها متهانة
مع إنها قمر بيطلع في عز الليل ينور الدنيا لناس بردانة
اتهمت بحبه ووصلت التهمة للخيانة
ومن هنا بنت السجن بحكم الإدانة
مفكرتش يوم في الهرب رافضة تكون هربانة
السجن النفسي قاسي لكن بره الدنيا خربانة"

لم أعد أعرف لماذا بدأت أكلم نفسي كثيرا وكأنني طرفا ثالثا، فتصعب علي قمر، وأشفق عليها من عذابي لها، وإن كان عذابي قد ازداد كثيرا بعد عملي في شركة في مبني الجامعة الأمريكية في "محمد محمود". وكأن القدر كان قاصدا بأن يضحك على من سخريته، بدوت كالمدمن، الذي يقف كل يوم يقول لسائق التاكسي "محمد محمود". وكأنه ترياقا يجري في العروق ليحيي دما قد سري فيه السم. أصبحت حياتي الروتينية تذكرني كل يوم بماض سحيق يروي عن بطولات ظننت وقتها إنها تحارب الزمن ولا تري اليوم كيف أصبحنا وكم تغيرت الأحوال، ولكن على الأقل أنا أتذكر. يا ليتني اليوم أعيش لحظة حب حقيقي مثل تلك الأيام أو هكذا ظننت.

" يا ليت النجوم تخبرك كم تشتاق إليك قمر
يا ليت السماء تذكرك كيف طال السهر
أو حتى تنقل عنك أي خبر
بل وتصف لك كيف يومي بدونك قد مر
لم يكف قلبي عن الدق وكأنه قد سحر
وجفت دموعي كصحراء لا يوجد فيها من عبر
هل يؤلمك قلبك وباشتياقي قد شعر
فاق الوجع الاحتمال ولم أعد أستطع الصبر
تركتني وحيدا كمن قرر الهرب أو الهجر
هل كان ذلك مخططك؟ هل كان قانون قد صدر؟
فعقلك لم يهتم بمشاعري، أعرفه جامد كالحجر"

كأنه نشيدا أردده كلما مررت من أمام منزله، هيثم بدر الدين، معذبي، قاتلي بالبطء، سفاح أفكاري. كم أمقته بقدر حبنا الذي لم نحبه؟ غريبة، أصبحت كمريدين مولد قد أنفض وبات ينتظر قدومه في العام التالي. وإن كان مر بدلا من العام أربعة ولم يعد، لم أعرف عنه شيئا يؤازر فضولي في معرفة كيف يعيش؟ أما لو علي زياد، فكرهته، منذ عرفت عن أماني.

" يا نفس بتنفسه في لحظة خنقة

يا شاغل العقل لدرجة الغفلة

عايش تايه من غيرك بقت حياتي قافلة

تعبت بس برضه برتاح لو لمحتك ولو لمحة

ده أنت صوتك بس يطلع الواحد من الوحلة

ظلك لازم يلازمني مهما طالت الرحلة

ما هو مفيش غيرك يفهم ويقدر الوحدة"

هل يعيش وحيدا في دبي يعاني المرين مثلي حينما سافرت؟ لم أستطع أن أخلع هذه الفكرة من بالي، الذي ظل مشغولاً به، بل وشعر بالذنب كثيرا بعد فقدانه. نعم فقدته، وتركني تائهة في صحراء أفكاري، طالت رحلتي، حتي مر اليوم وكأنه عام، ومر العام كالقرن في تلك الوحدة الموحشة، تنهش أجسادنا الهزيلة. لم أشفق علي زياد مثله، فقد وجد له أنيسة، أو ونيسة أو حتى جليسة. فهو حقا كالطفل يغوي التعلق يحتاج دائما من تلازمه..

" قد اختاروا من هم دونك، ثم يعاتبونك، حتى نسيت إنك برئ، بل وسجنت نفسك دون أي دليل. لم يعجبهم اختيارك، ولم يصدقوا على موافقته، ثم مرت سنين وأدركوا حقيقة إنه ربما كان لديك حق. من سيحاسب على كل تلك الأحلام المهدرة؟ على الأعوام الماسخة؟ علي جلد لم يعد مشدودا كشدة بشرة الأطفال. كم كانوا قاسين في حكمهم على ما أردت. وكأنك قد أجرمت... ثم يسألوك كيف حالك؟ مازالت

تشعر غصة خسارة ما كان يمكنك أن تمتلكه؟ سعة صدرك للآلام قد اتسعت حتى احتوت كل تلك الاتهامات، بل وبررت كل تلك العهود المنقضة. أشعر بالاختناق، فكم من مبادئ قد تبدلت، كم من أخلاق قد انحلت، كم من آسي حول القلب إلى قمة القسوة، وعقل إلى قمة العند... فأبدا، لن أسمح لأحد أن يبدد أحلامي، أن يسحق مخططاتي، أن يقتل كبريائي بمجرد كلمة.... ككلمة قد قيلت لي حين تم رفض ما أردت... فقد قالوا لي آنذاك العقل ليس كل شيء، فالقلب أقوى من العناد، فذبل القلب، وزاد العناد"

قد أفني عمري، هاجمني بكم من الجرائم التي لم أرتكبها، ولكنني خضعت، ولن أخضع مجددا. حقا كان قاسيا في حكمه على بالإعدام، لم يصن العشرة، بل وبددها أمام أبي. كنت أحتاجه، لم أكن أقوي العيش دونه، ولم أتخيل كيف أصبح هو من يحاكمني بينما هو من تركني؟ كيف يمكننا غفران ذنب من تمنينا وجودهم معنا فلم يكونوا معنا؟ كيف تسمى تلك قسوة بينما الحب هو تقبل الغياب؟ كيف لحبيب أو صديق أو رفيق ألا يشعر قسوة غيابه ويطلب مننا الغفران؟ غاب زياد وأبدا لن أغفر له، وهل يغفر لي من غبت أنا عنه؟

مر على يوم كان من أغرب أيام حياتي مؤخرا وإن كنت أعرف جيدا إنه منذ فتحت عيناي من حلم يكاد يكون كابوسا وإن هذا اليوم سيحمل الكثير في طياته نحتاج من حين لأخر أن نعرف مدي حب الناس لنا و إعجابهم بشخصيتنا وبما وصلنا له، حتي لو من باب إرضاء

الذات بلذة الانتصار، نحتاجها كثيرا ولا نطولها دوما ولكن حين تأتي دون سابق إنذار تكون دائما الأحلى.

وصلتني مكالمة في الثامنة صباحا من شخصية عزيزة وبالرغم من كل ما أمر به أبدت اعجابا بسطور قرأتها لي كنت قد كتبتها على الفيسبوك ولو إنها تعرف ما بين طيات تلك السطور لأظهرت كم من الإعجاب أكثر وانتهي يومي بمقابلة أحد أصدقائي القدامى حيث أصبح جليا كم تغيرنا وكم أصبحنا أكثر مثابرة على اختياراتنا، كم نضجنا و كم صرنا من كثرة ما تحملنا أقوى مما ظننا. أعرف أن الله دائما يختبرني ويعلم إنني يجب أن أظل أناضل لكي أصل إلى ما أحب، ولكن أقف اليوم عاجزة تماما عن حتى التفكير في فيما أحب بعدهما، فقد كاد العقل يجن مما يريده القلب ولا يطوله وما يريده العقل حتى صار ماسخ الطعم دون تطبيقه. ثم يقطع حبل أفكاري كالعادة سائق التاكسي... كم من عريس رفضت أيتها الحسناء.. يا لبلاهة هذا العالم!!

أتذكر ليلة أمضيتها في سان فران، أو هكذا يختصر اسمها الأمريكيون تماما كما يختصرون كل شيء، ففي ضاحية من ضواحي سان فرانسيسكو، في يوم الهلع أو الهالوين، قد تزينت منازل جميلة بالأضواء واليقطين في الحدائق الامامية. مشيت في ظل البدر وكان الجو باردا قليلا، ونظرت للقمر وتنفست، كيف وصلنا لهنا؟ وكم مضي من الوقت ليجعلني أصل لتلك الراحة النفسية منذ اتخاذ قرارات حاسمة، ولكنها ضرورية، كيف حافظت على عقلي رغم جنون مغامراتي؟ كيف

يمكنني أن أصل لما أريد؟ ها هو أمامي، ولكنه مختلف بعض الشيء عما أريد. هل عمرك تعجبت من رؤية ما تريد، ولكن في شكل نسخة أخرى؟ إنه بالضبط ما أريد أن أمتلك، من أريد أن أكون، ولكن ظل القمر يناديني، ويعكس لي نوره، مع نسمة باردة لاذعة... ليس الآن، هذا ليس ما تريدينه، ما عليكي سوي الانتظار، ستأتيكي تلك النسخة التي طالما تمنيتها، وستكون وكأنها فصلت على مقاس أحلامك. وطال الليل، ومرت ليالي، ومازالت أناجي قمر سان فران، هل خدعتني؟ قد طال الانتظار، وقد مللت، أصبحت على وشك اليأس، لكنني حتما أثق فيك، فإنك لم تكن لتناجيني إلا لتنبهني بإن قلبي يعرف ما يريد حقا!

كان شبيها لزياد، ولكن القمر أرادني الرجوع لمصر، لتملك ما أردته حقا حتى ولو لم يكن زياد... زياد!

" فليرحمك ربي من عذاب يوم تسئل كيف قسي القلب وجفى... يوم لن أغفر لك جرحا قد تركته ينزف أعواما وتخطته أنت في أيام. لم تكن كاذبا، فتلك هي حسنتك التي ستنقذك حينما يشتد العذاب، لكن أبدا لا تفكر في أن تطلب شفاعتي فلن يشفع لك سوي الغياب. أيوجعك حقا كلامي؟ لا أظنه بعد قد وصف العتاب.. فمن ترك حبيبه دون أي مبرر أو أسباب.. قد تظن حجة الفرق بيننا تكفي، لكنك أبدا لم تحارب. لم تقف تتحدى الكون مثلي حينما سئلت إذا كنت أعشقك يا زياد... أيضايقك اللوم؟ حقا؟ ماذا كنت تتوقع بعد كل ما مررت به بعدك أبحث عن قمر بين الفتات. عذرا، لم أقصد أبدا أن أهين كرامتك،

فليس من شيمي رميك بالباطل، ولكنك تجني ثمارا زرعتها يوم أحببتني واقتلعت جذورها دون حساب.. قد ظننت مثلي مثلك إننا قد نسينا كم كان الألم مبرحا، أو كان الجرح ينزف بدل نقطة دم بالمكيال... أعرف، قد خاب ظنك، أما ظني فقد وقف يمرح ويهلل حينما رأي الجاني يجني ما جناه وكأنه يوم الحساب. أما فيما أتيت تسأل عنه... فهو صحيح كما قال الكتاب. نعم، أنا مازالت أعرف أن قيمة حبي أعلي من قبل، فأن مجموع المشاعر قد ضرب في عدد السنين واقسمه على وجع الغربة أو هكذا علمونا في الحساب. أشك، حقا وحتما في إنني سأغفر لك يوما، وحتى لو طالت السنين وطال البعاد. أدعو الله لأجلك، ولو منك لكنت عمري ما توقف عن الدعاء. استأذنك قد حان موعد رحيلي، وتلك المرة آمل أن تكون تذكرتي فقط ذهاب."

طالما أردت تحذيره من لعنتي التي أصبته بها، طالما تمنيت لقاءه وإن كنت أمشي في شوارع وسط البلد أكاد أن أختفي بين جلدي وأتمني ألا اصطدم به، مازالت أخاف رؤيته وإن كنت أتمنى..

" كيف أنظر إليك وقد ضاق الصدر بالشكوى

وأنت كنت تعلم كل شيء أما الآن فصرت كالأعمى

تخيلت إنك قد فهمت كيف أفكر وما أهوي

ولكنك خذلتني تماما كخذلان جسد و لم أعد أقوي

لم أعد أثق بأحد بسببك لأنك أثبت إنك عديم الجدوى

أردت تغيرك للأحسن ولكنني اكتشفت إنك أغبي
مما تصورت ومهما تخيلت وكنت أظنك الأذكى
يا من لم تشعر بما شعرت وكيف لك تختار أن تطغي
علي قلبي وحبي لك وكنت أحسبني الأغلى
ولكنك نسيت كم وقفت بجانبك كي ترتقي إلي أعلي
وأنا لم أقرأ ما بين السطور تلك غلطتي الكبري
فقد وضعتك في منصبة الحب الاسمي
وفوجئت بغدرك كيف تصرفت و الحب قد فني
أما العقل فقد ذبل من كثرة الفراق وعلي القلب انطوي
يؤلمني حقا أن ألام علي ما لم أفعل
حتي أتمني إنني قد فعلته عن عمد
فاللوم لا يجبر الخاطر بل يزيد الجراح
ويقطع القلب إلي حد الندم
فينزف حتي توشك الدماء علي الانتهاء
أنا برئ كبراءة الذئب من دماء العزيز
فكيف أكون الجاني وأنا من وقع في البئر

هربت من الذئب حتي أجري إليك
فتركتني وحدي بل وأتهمتني بالخيانة
كيف أكون خائن للعهد الذي بيننا
وأنا من عاهدت بل وكنت أول من مضي
فاتفاقيتنا كانت فكرتي وكنت أنا البادئ
فكيف إذن تبعث لي برسالة مع الحمام
تشكي له مني ومن نقضي للعهود
كيف لا ترى الحقيقة واضحة كقرص الشمس
وحتي في عز الليل لا تري القمر ساطعا
كنت هلالي فأنا أنت
إذن كرر لي ووضح كيف لم أصن العهد "

كانت هناك بيننا أسرارا ورمزيات لم يفهمها غيرنا، فكانت عيناه تشبهان عينان البومة، غريبة، ولكن كنت أعشقهما، فكنت أغير صور الفيسبوك لبومة تلو الأخرى، حتى أنني لم أجد تفسيرا علميا لماذا عشقته سوي أنني أحببت عيناه. ظلت البومة تطاردني في كل مكان، أينما ذهبت وجدت صورة لها أو تمثالا، عيناها أخذت تلاحقني، لتذكرني، عشقتها، أحببتها بالرغم من إنها فأل سيء، إلا إنها في كل مكان في الولايات المتحدة طائرا يرمز للخير في أجواء عيد الميلاد. كذبت عادتنا وتقاليدنا،

وأحببت بومة، مثلت لي الاحتواء، فكانت بجناحيها ترمز لي بالدفء والقوة والحنان ... لكن ألم تحذرنا أعرافنا بأنها فالا سيئا، تظهر في الليل المظلم، الظلام الكئيب.. كيف يحب القمر بومة؟ فالبومة تتخفي من النور الساطع، تعشق البومة الليل، ولكنها أبدا لن تهوي القمر! كان يجب أن أسمع لنصح النجوم، فكيف لقمر يسطع نوره في عتمة الليل أن يحب بومة؟ فما هي سوي كائن هدفه الصيد من الأرض ومهما طال بصره لن يصل بجناحيه للقمر!

تذكرت اليوم زياد، هذا الفاشل الذي حاول أن يسيطر على العالم وهو بلا هوية، وبلا شخصية، وبلا حلم... هو فاشل، تلك هي الكلمة التي حاولت ألا اعترف بها لأنني ظننت أن اعترافي بفشله هو اعترافا بفشلي أنا... ولكنني الآن أري كم ظلمت نفسي ولم أظلمه، ولكن قد حان وقت الحقيقة. لقد تعديت اليوم ذكري أعطتني درسا للحياة ألا وهي حكمة أبي العتيدة " إذا أكرمت اللئيم تمرد" وها أنا اليوم فخورة بأنني قد تجاوزت كل هذا الفشل والظلم واخترت شيئا واحدا... النضوج! ثم يسألونني كيف تركت صفوف الشباب، بل واتهمت بأنني خنت الثورة، ولكن الحقيقة نور القمر يظهر فقط حين يكتمل البدر وكمال البدر هي مرحلة النضوج.. فالهلال لا يسطع في السماء، مهما كان جميلا... أحمق، بل وتافه، غيور مني وليس علي..

"أتذكر حين رآني أدخل لمقابلته

كيف تمشين طول العمر بهذا الكعب

ابتسمت لأنني تفهمت غيرته
فطالما سمعت إنه من العيب
أن أمشي أدق برجلي لغيره
فمازال يري إنه شأن فقط للحبيب
أن يسمع و يري بعينيه
حبيبته تمشي مختالة تلهب القلب
ضحكت علي كلامه فظن أنني ألعب بمشاعره
ولكنني كنت أوضح إن الغيرة ليست حب
فمهما ازداد طولي لن يقلل من شأنه
ولكن بالطبع يجعلني أشعر بالتعب"

طالما ظن زياد أن مع كل خطوة أخطوها للأمام اعايره بتأخره، لم أفهم دلالات واضحة عن خطته للفراق، كنت حقا حمقاء.

أخذت أنادي على القمر ليلا أطلب منه أن يوصلني بذلك البعيد عن العين وليس القلب ولا أفكر

"وصل يا قمر سلامي لمن سافر... فالفراق عن العين لم يفارق القلب، بل زاد اللهيب... كم كنت غبية حين ظننت أن البعد قد ينسيني.. بل هو تذكرة لكل ما أحببت... فالبعد عن العين ذكرني بكل تفاصيل الحنين... أعشقه أم أعشق كيف شعرت حينما كان يقول كلمة تحييني..

كنت أفهم رمشه عين تعني حياء من كلمة حب أو غزل قد يعنيني.. كم كانت كلماته صدقا، فهو الوحيد الذي عرف كيف يناديني... فلا ينادي القمر سوى نور الشمس يعكس نوره على ظلام القلب حتى يغرب هو وأما أنا فأنير... ضحي واختار البعد، كم كنت أنانية يا قمر، ولكن لا تنسي فقد حان شروق الشمس وسيرجع بنوره يدب الحياة في كل ما يحيطني ويشعرني مجدداً بالحياة بعد سنوات من الاشتياق والأنين."

ولكنه لم يعد، لم يسأل، لم يظهر، حتى كدت أن أيأس.

" اليأس مش خيانة... خاصة لو مش بإديك الاختيار

أنت صنت الأمانة... بس هو واقع وإجبار

عقلك رافض الإهانة... وقلبك أصيل مش غدار

معدش ينفع سد خانة... لازم امشي مفيش فرار

قصة وبقت خلصانة... مش فاضل غير أخد القرار

وإزاي قشة بس غرقانة... ما هو مبقاش فيه إصرار

كلام كثير قوي جوانا... بس أخترنا نكتم في الأسرار"

مر عام، فالثاني، فالثالث، وبدي وكأنه أبدا لن يعود. أما حياتي فكانت من العمل للمنزل، لا يتخللهما سوي كلماتي

" ممكن يوم يعدي ومفيش سؤال

وساعات بتمر من غير جواب

ولحظات بتجري بتزود الفراق

وهانت العشرة وبقينا أغراب"

وهنا ظهر "التاج"، كنت أتابع صديقا لصديق إذ اسمه مراد. وضع صورة بها هيثم معه ومع أخري تدعي مايا. من بروفايل للأخر، أدركت، كان بكل صورها، وحدهما.. بدي حقا مختلفا، كشبح سيطر عليه أو جان. لم يكن هو، بل شبحه..

" ليلة بكي فيها قمري لما رآك.. قد وصلت رسالتك فأنت لست على ما يرام لكنك تستغيث... قد تبتسم أو هكذا ما تهيئ لهم، ولكنك من داخلك تجري دموع الشوق تسري في العروق وينبض قلبك بعدما شعر بالفؤاد... فكنت أنا هنا، أما أنت فكنت هناك.. يشعرني بعطش وكأنني صائما ولم يحن الآذان. أما أنت فقد ارتويت، ولكن مهما كان لم تدق لذة الحياة.. مع من تحب وإن كنت وسط مليون ممن يتمنون الرضا، ولكنك لا ترضي عنهم فتبحث بين الأشلاء.. أما الغيام فقد كسي نوري حتى ظهرت هلالا بدلا من بدر التمام.. يقتلني الصبر فالأيام كالأعوام لا نفس فيها ولا هواء... وحدتي تقتلني فلا يوجد من يفهمني أو من يهتم بوجودي من الأساس.. أفتقدك وإن كنت قد خنت عهدي... أسامحك، حتى لو لم تندم، فمن شيم الحبيب الغفران... لكن أبدا لن أنسي يوما إنك قد أخفيت وجودي واخترت مناجاة النجوم عن قمر الفؤاد.... رحلت، ولكن لن تعود كما كنت في نظري، فمن رحل مرة يستسهل الفراق"

لم أكلمه، لم أتابعه، لم ألومه، بل لومت نفسي.. أصبحت أجلد ذاتي، أختنق كل ليلة بعد العمل حتى صرت سجينة ذاتي أكلم سجاني

" لا أعرف كيف تمر لحظة دون أن أجري إليك، بل وأشكي إليك ما آلت إليه الأمور بعدك... ليس وحده السفر ما يبعدك عني، بل سجن أفكاري. فأنا معتقل أحلام تكاد تصبح أوهاما.. ثم يسألونني كيف كان السبيل هناك واخترت السلام. فمن لم يحارب من أجل ما يحب لا يحزن على من تركه وراءه، بل وسيصير ملاما... هل أيأس في أن أجد ظلا أو سحابا يحميني من شمس الصباح... هل تفهم كم أعاني؟ فاليوم تحرقني وحدتي وتقتلني أحلامي، بل وتخنقني آمالي.. أسف، فأنا أحاول جاهدا أن أتخطاك لكن قد فات الآوان... أعشقك وكل يوم يزيد عشقي وتزيد كراهيتي للأيام. "

ثم أفيق لنفسي من ضلالتي، واستلذ عتابه، فهو من أختار البعاد، هو من أختار الفرار، أختار العقاب لي.. كنت تائهة ولم يدلني، ومن الواضح إنه أصبح يحتاج من يدله إلى طريق الأحباب..

" قد نال مني هذا الشعور بفقدانك

فكيف لي أحيا بهذا القلب المتهالك

أتعبني محاولة اللحاق بك في لفك ودورانك

وأنت تظن أنك واضح وسهل حتي في عقابك

فالبعد قد يصيب بالجفا وأنت اخترت البعد بمزاجك

فلا تمازحني قائلا إن الهجر هينا وأنت مقلل من وصالك

كم أنت مرهق للفكر، مؤلم هو خصامك

أما فرحتك، فهي نادرة ندرة دب قطبي تراه مرة في حياتك

لولا غلاوتك عندي لما انتظرت ولما احترمت غيابك

فأنت طماع وأناني لا تفكر إلا في ذاتك

أما أنا، فلي الجنة لأنني استحملت عذابك"

سألني حين قابلته لماذا عدت، لماذا لم استسلم في محاولتي اللحاق بزياد، لم يفهمها ولم يعرف دلالتها، وكانت إجابتي أعمق من أن يستوعبها وهو كالمحموم لم يسمع إلا ما كان عقله يمليه عليه، وليس قلبه، لم يعرف إنني قررت ترك سان فرانسيسكو لسبب واحد، لا ثاني له:

- وأنا في التاكسي جاية لقيت لافتة تاكسي كسر علينا مكتوب عليها "قمر" ثم لوحة إعلانية على مبني مكتوب عليها "breathe" وعربية فيها ولد بيضحك ولافتتها "وطن".. وأنت لسه بتسألني رجعت ليه؟

تمنيت أن أسأل عليه، حتى لو بكلمة "ازيك" لم أكن أستطيع أن أكاتبه، لم أجرؤ، لم أتابعه، أخذت أكلمه كل ليلة لكن في أفكاري، تلك التي دمرها يوم سافر، ويوم رأيته معها..

" وإ زاي أكتب لك جوابات وأنا مبقتش عارف العنوان... اللي

كان ساكن فيه قلبي وعقلي تحول محطة للأحزان.. أعمل إيه مكنش بيدي إنك تبعد ولا في الحسبان... روحت بعيد وسيبتني وحدي بس العقل مشغول والوجدان.. عارف إنك كنت تايه زيي بس على الأقل في التوهه طلعنا جيران... بكرة تقول كان ذكري وخلصت وراحت في طي النسيان... عجبي على اللي هجرني ويا ريتنا نعرف نغير الزمان... عشت بناضل، أيوه ده قلبي أصيل عمره ما خان... مهما بعدت، سافرت، هاجرت، مهما غيرت المكان... بدعي وأصلي إنك ترجع لي، والله بدعي في كل أذان... يا من تمنيت القمر، وركبت موج البحر علشان توصلي... قلبي حاسس إنك غرقان. "

كان غريقا كما بدي في الصورة تمام كغرقي في محاولات التأقلم، تأقلمي مع آلمي وأفكاري المشتتة، وأحلامي المدمرة ومشاعري الضالة. مؤلما أن تكون كلمة تأقلم هي الحل. فأنا من تمر على الأيام دون أن أعيشها كما أريد لأنني اتأقلم. لا يبالي أحدهم بماذا أشعر أو كم من أحلامي تدمر كل يوم وكل ليلة. منذ عدت أنظر للقمر كل ليلة أناجيه، أصبحت كالصوفي الهائم على الوجه، لا أكلم بشرا، ولكن كم من كلام أرفعه نحو السماء. حتى عقلي يرفض التأقلم، وكأنه سجينا يعذب كل ليلة لأنه يسمع صراخ سجينا أخر أحاول جاهدة ألا أفكر في آلامه.. قلبي! كل يوم أصر على المرور بقصر عابدين وأنظر له، وكأنه هو الحل.. وكيف هو الحل؟ انتظرته يكلمني حتى بات الكلام لا يشفي الغليل، وبات الجسد واهنا لا يشعر بما أصابه وأصبح كالعليل. أرجوك عد، فلم يعد الصبر حلا وإني في أشد حاجة لأي دليل.

أخذت أشاهدهم يأكلون ويشربون ويتكلمون، كم كنت فرحة كوني بين أهلي ومعارفي، أري في أعينهم مشاعر كانت عالقة في ذهني آثرتني في غربتي. كم من أحاسيس راودتني من مجرد أمنيتي بأن أكون بينهم مرة أخري. ابتسمت، لأن أحدا لن يفهم كم كان مشهد كهذا يقطع قلبي اشتياقي إليه، لكن رحيله جعلني أنسي معاناة رحيلي قبله، ثم عودتي لأجد كل شيء قد تبدل، كل شيء ينقصه شيئا وإن كنت لن أنكر أن كوني بين أسرتي، عوضني كثيرا.

لأول مرة لم أعد أثق في مشاعري، مترددة، خائفة، قد باعد بيني وبينهما أياما. تغيروا وتغيرت، لكن قلقي كل يوم قد زاد. فكل الوجوه تجسدت فيها معالم وجه زياد. أما هيثم فروحه قد عادت تحلق فوقي، وكأن شبحه قد عاد. كيف لي أن أعيش بين خيالهما، بل والكل يطلب مني ألا أرتاب! أشك في نوايا كل من عرفتهم، كدت أغلق على قلبي مائة باب. عقلي كاد يجن، فكنت أظن ذكراهم قد تحولت إلى تراب. لكن ليتني لم أرجع، وحجزت تذكرة ذهاب وآياب. لم أندم يوما على عودتي، ولكن لم أتخيل أن حتى الصاحب قد غاب. الكل تركني وراءه، كأنهم يندمونني على طول الغياب. قد ثقل قلبي بهمومه، وشل عقلي من أفكاره، ولا يرحمني أحدا، بل الكل قد كشر الأنياب.

وكأنني أفتح صندوق أفاعي، يبخ في وجهي سمه القاتل. صندوق ذكريات الغربة يشعرني برعشة تصيب يدي، دموع حبيسة عيني، صراخ بداخل صدري مكتوم. قطعت اللاصق لأفتحه لأجد كل ما يذكرني

ببيتي في سان فرانسيسكو. كل تفصيلة رفضت التخلي عنها وقمت بشحنها إلى مصر، لتظل في صندوقها حتى تلك اللحظة. اللحظة التي تحتم علي فتح الصندوق لجلب أغراضي المكتبية لأتسلم عملي بعد مرور فترة من الوقت منذ عودتي. مسكت ما كنت أخشاه، فانوس رمضان خشبي يبلغ طوله عقلتين من أصبعي. قد حفر على قاعدته أول حرف من اسمي "ق". وكأن ذلك لم يكن كافيا لتذكيري بكل ما تركته ورائي قبل الهرب إلى سان فرانسيسكو، فحتي مكان عملي كان في قلب أكثر المناطق التي أصابت قلبي... عابدين. فعملي الجديد هو عبارة عن شركة حديثة صغيرة أو كما تدعي "ستارت اب"، كان يمتلكها شابا يدعي محمود الزهيري، أحد خريجي الجامعة الأمريكية والذي تمسك بأن تكون شركته الصغيرة في مقر تعليمه في المبني الإداري للجامعة الأمريكية في شارع التحرير، على بعد خطوات من قصر عابدين.

مع كل لمسة من فرشاة المكياج على وجهي صباحا، أسمع قرع طبول الحرب وكأنني فتاة من الهنود الحمر تستعد للخروج لتفترس أسدا في الخارج أو كوليام والاس وهو يدهن اللون الأزرق على وجهه ليستعد لأشرس مواجهة في تاريخ تحرير بلاده، أو كشاب أخذ يصرخ في شارع محمد محمود وهو يرمي قنبلة الغاز لترد فيمن رماها. هو بالقطع قناع ... قناع يخفي شيئا وراءه، هو من يجعلك تقاوم. مع كل ضربة بالفرشاة، كل خط من الكحل، كل رفعة من الماسكرا، كل لون علي شفتاي ... هو استعدادا للحرب. كم المقاومة لكل الأفكار التي تدور في عقلك وأنت تنظر لنفسك في المرآة، أنت لا تري نفسك، فقط تري أفكارك، تري

أهدافك، تري اعداءك. مع كل نظرة ثاقبة لترسم الكحل، هي نظرة تحدي، تسمع صراخ الجنود في التحرير، صهيل خيل في معركة الجمل، صوت السيوف في العباسية، صوت الدم ينبثق من العروق. حربك اليومية مع نفسك لتخرج إلى عالم لا تشعر بالانتماء له، حيث الحبيب خائن، والصديق عدو. وأنت تحارب لتثبت نفسك أمام اهلك وقبيلتك لتحميهم وتدخل الفرحة إلى قلوبهم.. هذا هو سر حبي واحترامي للكحل والألوان التي تحدد عيناي فهي تجعلني كالصقر أري كل خطر محدق في المرآة فاستعد لحربي اليومية.. ولكنني لم أفهم أبدا أن نظري لم ير كيف ينظر لي محمود.

ليس قناعا للتخفي، بل انه قناعا للاستعداد للمقاومة اليومية.. للقوة.. للحرب.. للحياة!

لم أر محمود وقد عمي حبهما وغضبي منهما قلبي وعقلي وكم كرهت الغياب. سيطول غيابه وإن غبت أنا، بقت الذكريات!

" قد صرت وحيدة حتي إن نفسي تؤازرني

لا جدوي ممن يبقي حولي حتى نهاية قريبة تؤلمني

تكيفت حتي أصبح حواري مع ذاتي لذة تشبعني

فهي الأقرب للروح وعلي الأقل تشبهني

صحيح إننا نختلف لكن في النهاية تعذرني

فقد رأت هول ما رأيت وتحاول أن تدعمني

كنت محاطة بوهم ظننته حبا ثم فجأة في صحراء والكل يهجرني
فطال الوقت ومر حتي كاد الوقت يدهسني
دعوت الله ليلا أن يقبل توبتي ويهديني
فالنفس إمارة بالسوء وتجري للدعاء لتنجيني
من كثرة الشياطين التي تتراقص في عقلي تغريني
لأغير خطتي ومبادئي و أفكاري وكأنها لا تعنيني
هلاوس وصلت لحد الجنون وتؤنس وحدتي ونقص حنيني
إلي حب العمر ولهفة الاشتياق لحضن يحتويني
فاتني القمر مع إنه كل ليلة ظل يناجيني
يا من اسمك يعبر عني ويمثلني ويحيني
دقي بقلبك بدلا من أن تصبحي وحيدة مثلي أرجوك لا تعايريني
فأنا قد خاصمت الشمس حتي أصبحت وحدي حتي لا تطفيني
فنوري يسطع حين تغيب تلك الحكمة التي تحميني
من خوف و هلع كل ليلة حتي أن الشمس أصبحت تعاديني
فاقبلي اعتذاري فأنا مثلك لا تتركيني
كوني مثلي ومعي لا تفارقيني

ولا تعشقي سوى من يجعلك كالنجوم تلمعي ولكن لا تقتليني

فبلمعتك دنيا لك وبها تلغيني

لعنتك يا قمر أصبحت متعبة، أصبحت ترهقيني

خفت لأحزنك بكلمة فتكرهيني

ولكن يشفق علي حالك وأنت تهميني

افيقي من وهمك ولا تجادليني

كم أحببتك ولكنك لم تبادليني

تلك المشاعر أصبحت ماضي لأنك لم تحبيني

ومن لا يحب نفسه كمن ضل، ارجعي لتعشقيني "

لم أحب نفسي حتى، فكيف لي أن أري حبيبا جديدا؟ يلوح في الأفق، توقف قلبي مرارا لأنني لم أر سوي النهايات، فحتما سيأتي يوما يردد ما ردده قبله هيثم حينما أحتد حوارنا

" رسايل ضايعة بين كلام

كل حاجة بينا مش تمام

يا ريتك ما كنت رجعت

لأني خلاص كنت اتعودت

صحيح عمرك ما كنت مبسوطة

بس الأكيد فكرتك مرفوضة
إزاي ممكن نكون مثاليين
وفي نفس الوقت هنفضل إثنين
عمرنا ما هنكون واحد أو حتى مع بعض
كل الكلام كان خلص و الكيل كان فاض
بطل تبص لي كأني خاينة
احنا الأثنين بعدنا وبعدنا عن الدايرة
كنا رسمنا طريق مكملنهوش
وإزاي عن مصيرنا نقدر نحوش
قتلنا بعض أكيد معترفين
بس الرجوع زي نكتة ناس بايخين
دايما بنادي القمر وبرضه مبيردش
مع إني والله تعبت والعهد مخنتش"

ثم حدثت المعجزة، وصلتني رسالة منه على فيسبوك يدعوني للقاء.. في القاهرة! في عابدين! لم أنم، لم أتمالك اعصابي، لم أفهم، لم أتخيل، هيثم في عابدين...بعد أربع ثم توقفت، كمن شلت حركته، حينما أدركت ما أشعر به وسأقوله له حين أراه.

"أحب أوضح لو مكنتش واخد بالك
أنا يا ما تعبت علشان بس أجي على بالك
لكن توهتني وبعدت والله ما رجعالك
أصل لازم تدوق المر مع إني مشتقالك
ضحكت علي وأفتكرت إني سمعالك
ده الواحد قلبه بقي حجر ما يخطرش علي بالك
صعبت علي نفسي كثير لكن مصعبش عليا حالك
حتي إن كان وحشني كلامك أو حتي جمالك
يا عقلي زي الخيل جريت هربان من خيالك
ولا حتي في يوم شكيت من كل اللي طالك
يا قلبي احلم وطير واسرح بخيالك
وإن جيه في يوم يعتب عليك قول له أنت مالك
أنت أصلا مين.. فيه حاجة ضيعالك
ده القمر عالي بعيد وعمره ما في يوم طالك
مهما قلت وفتيت مبقتش فارقالك
شيلت الهموم بالكيل ومصيرك بقي هالك

في قلب الليل بكيت في ميدانك الحالك
لكن ضحكتك الصبح كفاية تكيد كل عزالك
وقلت يا ليل ويا عين غنيت في موالك
ده حظك قليل ورضيت ما هو ده فالك "

الفصل العاشر
مناجاة القمر

"عن حبي وحنيني... واشتياق يكويني
عن وحدة تؤلمني... وفي الليل تقتلني
عن صمت يخنقني... وكلام يجرحني
عن وهم يؤنسني... وخوف يذعرني
عن شارع يذكرني... بذكري تؤرقني
عن خطوة تسبقني.. وفي النهاية توقفني
عن صدمة تفاجئني.. بالألم تشعرني
عن قمر تخبرني... وفي عابدين ترجعني
عن خبر يفجعني... في أعماق البحر يغرقني
عن من لا يعرفني.. ولا بفرحة يبشرني
عن خيانة قهرتني... وهل فعلا خانتني
عن حظ يلعنني... وعن فكرة تخاطرني

عن عين سحرتني... وخاتم يراودني

عن فستان يساورني... وأبوها يشاورني

عن إجابة ترفضني.. ويرفض يشاركني

عن دنيا تلفظني.... ولعنة تخوفني

عن تراجع يعرقلني... وأزمة تباغتني

عن مشاعر تكبرني... وهل تبادلني

عن حيرة تقلقني... بيقين يدمرني

عن طريقة تنقذني.. وبالتنحي تأمرني

عن ساعة تؤخرني.. وعن شفاه تقبلني

عن حلم يوقظني.. وعن حبها يخذلني

عن قدر يراوغني... وعلى طريق يدلني

عن القمر يبعدني... وهل يقربني"

هل أعود؟ بعد كل تلك المخاوف؟ وكيف لي أن أعود وأنا أري كم ستلفظني قمر؟ ماذا سأقول لها؟

- أحب أعرفك هيثم بدرالدين... هارب، لكن راجع واثق، خايف، بس قلبي رجع يدق، على كل باب بيدور على وشك، وش القمر. القمر إللي غاب عني يوم ما قررت أهرب. أهرب وأسيب حبك لأنه خاف.

جبان.. معرفش يقف قدامك ويقول لك الحقيقة، إنك تستاهلي تتاقلي بالمال. المال إللي لا كان في إيده، ولا في إيد إللي قلبك له مال. لأول مرة مش خايف، بالعكس، راح الخوف وولي، ومفيش غيرك على البال. بدور بين الوشوش على وشك، وإن كنت كل اللي قابلته خيال. ظلك بيطاردني زي الشبح، لكن قلبي كان واثق إني هوصلك، ولو باعد ما بينا جبال!

لم أستطع معها صبرا حين رجعت، كان يحتم على الرحيل؟ وكيف لي أن أبقي وهي لزياد تميل؟ إللي بقي ملو هدومه، كما قالتها أمي ولأماني بقي عريس؟ وإن كانت من حين لأخر تراودني فكرة الرجوع..

" قالت لي راجعة وأنا مقدرتش.. أصدق وهم وميكملش

هي في قلبي ومتعرفش.... إن حبي لها برضه مخلصش

سافرت بعيد بلم القرش... يمكن توافق ومترفضش

إزاي أحاول وما يفرقش... دي لو رفضت أنا ماعش

جوه البحر و مبغرقش.. أصل المؤمن مبيتصبش

زي الطلقة عيار ميصبش... لكن برضه مبيهزرش

قمر رجعت وأنا مرجعتش... عمر السمكة ما تصبح قرش

حدوتة طويلة و مبتخلصش.. والأحلام مبتتحققش

رد طويل مبيوصلش... بس هقوله أنا مبخفش

عرفت عرفت ولا مبعرفش... بس إبقي اسمي قتلت الوحش "

أعود ولو لأجازة؟ هل ستقبل بي أم قد قسي قلبها؟ هل مازالت تتذكرني؟ هل مازالت ترغب في؟ أم قسي قلبها مثلي وجفي؟ خوفي لأعود وأكتشف أن قلبي عليها انفطر وقلب قمر بقي عليا حجر.

تجتاح قمر فكري كل ليلة مناجية القمر، كأنها حبيسة سجنها الذاتي تنتظر ميعاد خروجها وإن كانت تعرف جيدا أن حكمها مدى الحياة. ثم اسمع صوته بعيدا يعاتبني، كيف لك أن تكون سببا في سجنها؟ كيف كنت أملا ثم تحولت لسراب؟ كيف تحولت لمجرد صوت ينادي من بعيد؟ ليجذبني من يدي ويجبرني على مواجهة ذنبي؟ خطيئتي... وهي ترك قمر؟ لقد تركتها وحدها حتى جن جنونها، أصبحت لا تلمع، كل من حولها ظلام كسر قلبها قبل أن يظلم وجودها. كنا السبب، نعم، نحن السبب فيما وصلت إليه. لن أنكر أبدا تلك التهمة... تهمة خذلاني لثورتها، تهمة البعد عنها، حتى ضلت وضللنا. مازالت أفكر فينا كثلاثي، شخصان يعشقان حتى ظلها، ولكن كيف أواجه حقيقة أنني من أخرجها من مدار عقلها؟ فأنا أعلم ما تفكر فيه، وأشعر بسهام لومها تخترقني. لعنتها التي صبتها على بعينيها المكحلتين، ورائحتها الهفهافة. لعنة الله علي ذلك الحب... مؤلم، موجع، قاتل.

" يا من عظمت ذنوبي..

يا من أحببتها حتى صار الحب ذنبا

ثم يسألونني كيف لك أن تعيش هكذا حامل للذنب

قلت نورها سيطر على عقلي وليس لي أي ذنب
قلت لها ارحلي بعيدا حتى لا تبقي على ذنب
قالت أنت ظالم لي وما لي من ذنب
أنت من تركتني ابكي وحدي شعورا بالذنب"

ظننت أنني سأقوي على الرحيل، ولكن كان ذلك أول ما ندمت عليه. هروبي من فرصة كانت ستقربني من مرادي، من الوصول للقمر. ظننت أنني لن أندم، ولكن لم يمر يوما لم أندم فيه على تعلقي بأوهام، وحبال واهية. خطيئتي، أحببت من كنت أعرف جيداً أنها لن تكون من نصيبي. فهي كالهواء نتنفسه لكن لن نتمكن يوما من لمسه. كنت قاسيا على ذاتي أكثر من كوني قاسيا عليها. فعلي الأقل لم أعلقها بحبالي، أو هكذا ظننت، فأنا أشعر بألم، ليس بألمي، أعرف أنه قلبها الذي يعاني منذ رحلت. كم من النيران قد التهمت سراديب أفكاري ليلا، كالسوس ينخر في وجداني نهارا، قلبي يتمزق فينزف، كل ذلك وأنا بعيدا، فماذا سيحدث إن كنت قريبا. ماذا كان سيحدث إذا كنت تعلقت بوهم الارتباط. فأنا عرفت أنني لن أنوله يوما، لذا كان أسهل من تركها بعد التعلق بكل ما بها. أشتم رائحتها عبر البحار، اشتاق لنظرة عينيها التي كانت تلين حجر قلبي. أما ابتسامتها ولمعة أسنانها حينما كانت تضحك، فهي تحطم كل حياتي. أعواما قد مرت وصوتها مازال يرن في أذني. كيف لي ألا أندم؟ فأنا نادم على حبها من البداية، حتى وإن كان لندمها لذة. هل تترك العالم من أجلي؟ وإن كنت أشك!

فحتى لو عرضت ذلك، أعرفها... لن تتخلى عن كل ذلك من أجلي، فمن عرف العزلة، سيتقن فن العقاب... فأنا من عزلتها، أنا من تسببت في وحدتها... وذلك جرحا لا يشفي.

" يا سارق الفكر والأحلام

قالوا لي لماذا لا تنام

قد ذهب العقل وبقي الظلام

عاشق تائه في الأوهام

تمنيت أعيش يوما في سلام

ابتسامتك لا يصفها كلام

ولا يجوز حسنك أن يلام

شعرك يتطاير كالأفلام

يطير من عقلي كل العلام

شاعر خاص بوصفك وليس عام

يجري الدم ينادي القلب فقام

كقطعة ذهب تلمع بعد أن كانت خام

يا من ينول من حبك لو حتى جرام

إن كان عشقك سرقة فحياتي حرام"

طالما تمنيت أن أقول لقمر إن البعد ساعة مر كالقرن، فما بالك لو عرفت أننا أبدا لن نكون سويا؟ قد قالت من أحببت أن الحياة قسمة ونصيب، ثم إذ بها تمشي بعيدا وتلوم الدنيا وليس قلة الحيلة. كم قسوت دهرا حتى من قسوتي قد أدركت إن البعد قد أصبح عادة للهروب من مسئولية الوجود معي. ستقول إنني خنت العهد ثم تسأل كيف قسوت ودام فراقي، حتى يأتي يوما وتقول من أحببت... لا أعرف عن ماذا تتكلم فقد مرت لحظات مرة، قاسية، تجلد ذاتي وتؤرق ضميري وتقتل طموحي، حتى تقرر يوما إن من باعك، بيعه، فلا جدوى من الاحتفاظ به.

كنت أتمنى أن أكون قويا، وأثور، فثورتي أن أتحدى ما أخافه وأنا قد خفت فقدانها، لكن اليوم وإن كنت أظن أنني سأحارب، ولكن كمن فقد ذخيرته وحياته وهو يستبدلها، لم أثور، ولم أتمرد واخترت الهروب. أندم كل ليلة علي تركي لها، ولكن كنت أناجي القمر حتى يشفق بحالي..

" رحم الله قلبي من نيران الاشتياق

حتى صارت هشيما مثل بقية العشاق

تعب القلب من جهد شاق

أما من كثرت خطاياه من النوم قد فاق

وجري كالوحش على قدم وساق

يبكي ليلا كابن لوالده عاق

وللعذاب طعم مر له ذاق

وألتف الحبل واستحكم حتى ضاق

لم ولن تفرج حتى لو للقلب راق

فهي ضريبة العشق وجبت الاستحقاق"

لم يرد القمر، وظللت أشرب الخمر كي أنسي، ولم أعرف، بل زادت مناجاتي..

" تعبت من فراقك حتى صرت أناجيك

تشغل عقلي وبالي أعشق كل ما فيك

مهما طال البعاد سأظل أنا هنا أواسيك

ابعد فالبعد يأجج المشاعر مهما بعدت أراضيك

قلبي يقفز من فرحته يقفز كي يوافيك

في مكانك محتفظ بذكري لمسة من يديك

يدق قلبك فيوجعني ارحمني الله يهديك"

مهما حاول مراد أن يجعلني أن أعيش، ألا أهتم، أن أنسي، كنت أصرخ فيه..

- كيف تشعر بالعجز بالرغم من كل ما وصلت إليه؟

- لن تفهم يا صديقي، فالحياة أصبحت بلا طعم، كشعور كاتب

لا يقرأ له أحد، أو موسيقي يسمعه أصم، كأخرس لا يعرف كيف يستغيث، كطفل يرغب في الجري، ولكنه يحبي... كمن تركته معشوقته وحيدا كالظمآن في صحراء جرداء... يري السراب فيجري إليه، ويزداد عطشه بعد اللهث وراء وهم.. كملك فقد سلطانه... كحمام زاجل فقد رسالته... كأميرة أسيرة في برج عالي لكن ويا للأسف لا يطول شعرها ليتسلقه أميرها... كمن تاه في غياهب ضميره... وهو لص، بل قاتل... يجلد نفسه ذاتيا كل ليلة. هل مازالت تسأل كيف أعيش كل يوم؟ كل يوم هو كمعزوفة ناي حزين في تلال بعيدة في جزيرة منعزلة لا يوجد فيها سواها!

- أصبحت تكتب الشعر؟

قالها وهو يسخر، فارتجلت

" يا من تكتب ولا يقرأون له

كلامك به سحر لن يفهمه

هؤلاء ممن يكرهونه

فقد يكره نجاحك عذاله

ومن لا يحتمل عذابه

وكوي قلبه بناره

شيد قصورا من أفكاره

لم يتسلق أسوارها أعدائه

بل وصل إلي قلبه

كل من آمن به

نعرفه هو من أفني عمره

وأطالت مدة بنائه

فقد بني سلما من علوه

طال القمر بذراعه

لم ييأس ولم يفقده

وللأمل قد أختاره

ورفض طبعا فراقه

يعشقه فهو يموت في حبه

ولن يستسلم يوما أمامه

مرسالك قد نسي عنوانه

فضل الطريق إلي عقله

ووصل بدلا منه إلي قلبه

يا كلمات لا تصف عشقه

ولا تستطرد كيف يشبهه
فهو جميل كليل يغيم بسحابه
علي القمر يخفى ملامحه
وإن كان ضوءه يفضحه
فمشاعره واضحة تكشفه
اما عيناه فتحرجه
يا موسيقى تصل لأذنه
يا حلو مذاقه
يا حرير ملمسه
و رقيق صوته
يا كل ما لم أعرف يوما قيمته
ولم أفهم أبدا كيف أغادره
يا اسم أردده
وأرفض نسيانه
كفي لست قادر علي استكماله
فجرحك قد غرس في القلب بأنيابه

كالذئب ينهش في الجسد يؤلمه

ولكن يطيب جرحي بقبلته

ثم أنام لأحلم بحضنه"

حاولت أن أرمي نفسي في أحضان مايا، ولكن لم تحتويني، كنت أشعر بالاختناق أحيانا، وكانت قمة أزمتي حين أنطق اسمها أمامها "قمر"، كانت تصمت وتلوي شفتيها، حتى إنها لم تبال أبدا بالغلط فيه، بل على العكس طالما كانت تري أنني أنا المخطئ في حقها.. حتى مايا أبدا لم تنطق كلمة واحدة ضدها.. كنت ابتسم من ردة الفعل تلك لأنني كنت أعلم من قلبي إن كل شيء جميل، هو قمر.

" قد خلقك الله جميلا حنونا لا تعرف للقسوة عنوان

يا من تطيب المجالس بذكر اسمه أو يروي أحد من كان

فأصبحت في منصبة عالية في القلب لا يصل إليها سوي الشجعان

أنت نقطة ضعفي وقوتي، أنت كمن يروي الظمآن

تغلغلت في روحي حتي صرت بدونك أشعر الخذلان

ربط ذاتي بضلوعك، اعذرني فأنا فعلا جبان

وصلت في درجة حبي لك أعلي مراحل الغليان

أنت ملاذي من كل همومي، متاح لي في كل زمان

تترك كل شيء وراءك كي تصل لي في أي مكان

فيزيد حبي وعشقي وأشعر دائماً بالاطمئنان

أنت هنا لن تتركني لا تعرف كيف أدين لك بالامتنان

أنت حصني القاهر تحميني و تشعرني بالأمان"

قالها لي مراد في سهرة من سهراتنا، إن سرقت أسرق جمل، كان يقصد بها أن أطمع في المزيد من كل شيء وخاصة فيما يخص البنات. وبالرغم من إن كلامه كان عين العقل، وجدتني لا أفكر سوي في شيء واحد، فلا يوجد أجمل من ردي على كلمته ببقية الحكمة الشهيرة: " وإن عشقت، اعشق قمر."

وقفت سارحا، كيف لي ألا أعشقها وهي ملاذي حتى في غربتي، أغمض عيناي فأراها، أشتم رائحتها، أكاد ألمسها. هي سبب بقائي حيا، متنفسي من عذابي اليومي لنفسي. كالطيف يحوم فوق سريري لا يؤرقني، لكنه بالعكس يشعرني بالأمان حتى أنام. في حضنها الدافئ، وأري ابتسامتها القاتلة، تبتسم بجانبي حتى إنني لا أتذكر كيف تبدو دون الابتسامة. عيناها تبرقان ببريق فتاة من سعادتها لا تكذب عيناها، بل تلمعان لتآسراني طالما حييت. إن عشقت، لا يا صديقي، أنا عاشق منذ لمحتها، بكحلها الذي يجذبني إليه كالمغناطيس كي أصبح عاشقا للقمر، هاويا في غوايتها، فهي تعرف طريقها في شراييني حتى إنها تصل إلى قلبي، وتتوج ملكة بشرياني التاجي.

ثم فكرت إن سرقت، أسرق جمل، هذا بالضبط ما حدث. لقد سرقت كل أحلامي، دمرتها، بل وسحقتها حين تركتني، حين ذهبت

دون علمي ونستني ورائها، ثم ترجتني ألا أتركها حين رجعت هي. طالما كانت سارقة لجمالي، فكم من دقات قلبي قد خطفتها كلما تكلمت عن حبها لغيري ولم تشعر بي، حتى حينما واجهتها، لم تقف أمام حبي طويلا، بل سافرت وسرقتني. سرقت روحي، قلبي، عقلي حتى جننت ووقعت في خية كوني لا أفكر إلا في سواها. حتى أصبحت عاشقا للقمر ولا أحد سواها.

لم يفهم مراد علي عكس مايا كيف إنه لا يجوز أبدا أن ألوم قمر، ولا نفسي. لم يفهم كم كانت ساحرة، حتى حينما رأي صورتها مرة، لم تعجبه، أو لم يتخيل إنها تلك القصيرة المحجبة ذات الكحل، كنت أحتفظ لها بالقليل من الصور التي أوقفت قلبي بنظرتها فيها. لم أقبل رأي مراد فيما يخص قمر، بل هاجمته دوما

" يلوموك ولو يعرفوا يا قمر أنك حمال قاسية

ده القلب لو يقرأ الودع كان قال البت دي غزية

تدب رجليها على الأرض، من الكعب متحنية

بتميل زي غصن الشجر والنسمة معدية

أتاريك يا قلبي متحمل القسي فكرها جنية

مع إنك مجرد بشر وهي آنسية

بكرة تقول دي لعبة وتبقي منسية

وتدور علي حب جديد وتلعب علي دية و دية"

أخذت تراودني دائما فكرة الرجوع منذ وصولي، حتى ولو لأجازه، كنت خائفا، جبانا، لم أقو على اتخاذ القرار، فمرت السنين كالقرون.

" هيمر يوم وأسبوع وسنة... هيمر الزمن من غيرك جنبي هنا

هتتولد لحظات وهتموت حاجة... جوه القلب والعين وهيتولد الجفا

زي اللي كأنه في غربة.. ولا عمري ما شوفت لحظة دفا

والدنيا ألف على لحظة سكينة... تايه ومسيري أوصل مينا

وألاقي لو حتى سفينة... توديني بعيد لأخر الدنيا

بين النجوم وفي حتة بعيدة... يجمعها مع القمر في السما

قلبي بيدق دقة غريبة... ولو يعرف أن السبب هو أنا

محتار بين مليون طريقة... كلهم أخرهم فنا "

كنت أكتب رسائل لم أرسلها، كنت أمسح حرف حرف من على هاتفي، كنت أكتب في بعض الأحيان كلمة واحدة لا ثاني لها.. وحشتيني!

" كم تؤنسني كلمة وتشغل وجداني

فحتي كلمة توحشني لا توصف كم أعاني

أفتقدها فهي كالحياة تدب في شرياني

أما غيابها يقلب على كل أحزاني

أهواها وأعرف أنها لن تنساني

فلو قررت يوما أن تنسي فهو يوم أصبح كالفاني"

كنت أثمل، وأثمل، ومع ترنحي لم أر لحظة شعور بالفخر، ولا لحظة ارتياح، حتي حينما أصدرت رخصة القيادة أخذت أقود بين الإمارات لا أفكر سوى فيها. توقفت عند مسجد الشيخ زايد، توضأت، صليت، بكيت..

" أنا ولا حاجة وكل حاجة... أنا اللي تعب من كثر العناد

كل يوم بنفس العادة... ألف العالم ويقولوا عاد

عدت أبكي بالثلاثة... إني كنت كفرت من الجهاد

بحارب فكري من الغشاوة.. مع إن الكره كان ساد

نفسي أحس بالحلاوة... زي روح دبت في الجماد

قلبي أبيض وعقلي غابة... حتى طار العقل أو كاد

هربت أجري بالعبادة... لكن كل ركعة لازم تتعاد

قمر نور طريقي للقيادة... بس مش كل من له رخصة قاد"

افتح موبايلي، وأكتب وحشتيني، ثم أمسحها، كل يوم وكل لحظة

ومع كل دقة قلب.

" وحشاني يا قمر بكل أحوالك

يا عاقلة يا مجنونة كله باختيارك

مين يفهم واحدة زيك

أو يعرف إزاي يحلل أفكارك

يا غالية مين يوصل لباب دارك

وأنتي فوق الكل محدش يوم طالك

مش عارف أسيبك أو أعيش من غيرك

إمتي يوم يجي وأطير في سماءك

أو أكون زي الكواكب بلف في مدارك"

كنت فعلا ألف في مدارها، كانت محور حياتي، مهما حاولت ومهما فعلت. لم يتركني أبدا كابوس لوم زياد، وكان دائما يقول لي

- إزاي تخون صاحبك؟ إزاي حبتها وهي قصة حبي أنا؟

أعددت دوما رد لسؤاله، وكأنما سأتكمن يوما من قوله.. لكن طالما لم أعرف كيف أرد عليها هي. من كان يجب أن تختار بيننا؟ زياد؟ هي ظنت أنه اختيارها، ولكنها تعرف إنها أحبتني أكثر منه. كانت تصعب على أحيانا، كيف لها أن تختار؟

كنت أدخن الحشيش يوما ووجدت مايا ترقص، أما قمر فكانت ترقص حافية القدمين علي حبل أفكاري

"كل قصة وليها وشين... إلا قصتنا واحدة وبس

كنا بنفهم بعض ببصة عين.. وكأن فجأة بطلنا نحس

أتاريكي واقعة بين طرفين... وكل واحد أخرته يأس

قمر واحد وقلبين... وفي الأخر العقل برضه في الرأس

كأنك شجرة بجذرين... وكأن الحل هو الفأس

كنا ثلاثة وهما إثنين.. لإن الثالث لازم يبطل هجص

تعبت يا عالم في الحالتين... مهما في الحجر زودوا الرص

دنيا ودايرة على الجانبين... واتفرمنا بين الترس

زي البحر علي الشطين... والقنديل نازل قرص

روحنا وراحوا الحبيبين... ما هو الكل لازم يبطل رقص

كان نفسي في بوسة على الخدين.. لكن كلامك بيقتل زي القنص"

فكرت لو قمر كانت في دبي مثل مايا، هل أطلب المستحيل منها؟ هل هو حقا شيء غير قابل للتصديق؟ أن نكون أنا وهي في وقت قريب سويا، تمنيت أن نتوصل لأي نوع من التقرب. فأنا لا أطلب القمر، لقد كنت دائما واقعيا، ولا أريد حقا أكثر من مجرد لحظة، مع سقف واحد فوق رؤوسنا، بيت دافئ، حتى لو نمنا في أسرة منفصلة، ويمكن أن

ينام كل منا وحده. لن أوعد بأن أقدم لها الجنة في الأرض، ولكنني قطعا سأعاملها كأميرة.. فأنا واقعيا! هل ستوافق؟ الجواب هو على الأرجح، لا.

أنا لا أوعدها بالقمر، ولا بقوس قزح، مجرد حل عملي، لحياة سعيدة. سأكون أبا لابن منها، أو مجرد الكتف الذي يمكنك أن تتكئ عليه، كيف يمكن أن يكون سيئا، أن تكون زوجتي؟

لن أطلب منها أن تطهي الطعام لي، سوف لن أطلب منها حتى أن تتعلمه. وأنا لا أريد ذلك للأبد، مجرد لحظة، وليس لدي أي نية لخداعها، فهي أذكي كثيرا من ذلك.. لكننا يمكن أن نتوصل إلى هذا الترتيب، كحل وسط، وربما ستعلم مع الوقت أنني أعشق تراب رجلها وستحبني... مع الوقت. قد لا يكون عرضي رومانسيا كما كانت تأمل...ولكن هل يمكن أن تقبله على الأقل؟

أفوق من غيبوبتي ومن كثرة تفكيري، بقلم على وجهي من مجرد حلم كهذا. لا يصح ولا يجوز! فقمر من الممكن أن تقبل أن تكون زوجتي، ولكن للأبد، وليس لمجرد لحظة. فهي تعرف ما تريد هي الأخرى، تعرف أن سعادتها لابد أن تكون أبدية. سعدت بتقدمي، فأنا بدأت على الأقل أن أفكر فكرة طبيعية، فكرة الارتباط بها! إنه لتقدم لشخص جبان مثلي.

كان القمر الليلة كالبدر الذي غطاه الدم، لونه في حمرة وجنتك حينما قلت لك ما يدور في ذهني، فكل كلامي لم يكن ليكفي كي أعبر لك

عن مدي عدم رضائي عن حياتي بعيدا عنك. أتعرفين كيف يتمزق قلبي حينما أفكر في فكرة عدم وجودك؟ فأنا لا أري وجهك أمام عيني، واسأل القمر قبل أن اسألك... أأنت موجودة في هذا العالم؟ أين ذهبت تاركة إياي أبكي كل ليلة من ولعة الاشتياق لفكرتك. نعم، فأنا لا أعرف شكللك بعد، لكنني ممزق القلب لأنني لا أعرف من تكونين. خائنة، من قبل أن أعرفك، فخنتيني مع الزمن، أهملتي قلبي المتعلق بتفاصيلك، بكل نفس تتنفسينه. أشتاق لرؤيتك، للمسة يدك. أنا بالقطع غير راض عن بعدك عني، عن تأخرك، بل واختفائك غير المبرر عني. انتظرك كل ليلة، مع كل نظرة للسماء متمنيا أن تكوني بين ذراعي، لأشكو لك كيف تكون مأساتي في البعد عنك. أفتقدك وبشدة. بدأت أن ألعن وحدتي، وأكره الزمن الذي يبعدني عن لقائنا الاول.... الذي أتمناه وأعيش علي أمل أن يكون اليوم، إن لم يكن بالأمس.

في أحد الليالي حينما كنت على خلاف مع مايا حين أصبحت كالمدمن لا يقوى حتى على الخروج ولا مجال لأي لحظة سعادة أقدمها لمايا، تركتني وحدي في المنزل أمشي كالمجذوب، أفكر في هل تفكر في قمر؟ هل تسمعني؟ لماذا لا تسأل علي، لماذا لم تحاول مراسلتي؟

" انتظرتك كل ليلة كي تأتيني... حتى لو ذكري تحييني

لكنك لا تأتي لتواسيني.. وفي حزني لا تحتويني

بعدك قاتل لا يستهويني... وقربك صامت لا يكفيني

كم تؤلميني كنار تكويني... وكم شوهت في تكويني

حتى كلامك أصبح لا يغويني... وحتى صرتي لا تستحمليني

كالتائه ابحث عن مكان يأويني... أو عن حجة لتكلميني

انتظرتك كي تراسليني.. ولكن حتى عذرك لم يرضيني

أشعر بالعطش لم ترويني... وكالأبله دائما ما استدرجتيني

ظللت أنتظرك حتى تريني.. لكنك حتما لم تشعري حنيني

لحضنك، لصوتك، أحبطيني... لأنك أبدا لم تفهميني

أه لو كنت تصدقيني.. لكنت اخترت ألا تتركيني

من فضلك حاولي ألا تعايريني.. أو كالطفل تعامليني

لقد انتظرت ما يكفيني... لأجعل من شكي يقيني

شكرا لأنك احترمتيني... ولم تقصدي أن تهينيني

ليتك يوما أخبرتيني... إنك يا قمر لم تحبيني"

لم تحبني، اختارت زياد، لذا أنا سافرت، أليس هذا هو ما حدث حقا؟ كانت تحاول أن تجعلني أفهم ما عنت، لهذا أصريت علي قراري، لهذا غضبت وتركتها ولم أنس لها أنها من تركتني في الأصل. أشعر كمن كان قد استنفذ كل حيله لإقناعها، ولم تقتنع..

"طلبت النجم فأعطيتك السماء

اما الإخلاص فقد زاد حد الوفاء

حزين لعدم التقدير وصلت للرثاء

كيف أصبحت في أعلي مناصب الاستعلاء

تغريت في ذاتك فكاد الجفاء

ينسيك من كنت، قد كنت عطاء

تتشوق لرؤيتي في السراء

بل و تؤازرني في كل ضراء

حان الوقت للاعتراف بعدم الرضاء

أشعر بوحدة كأني وحدي في الخلاء

ظننتك قريب لبيتنا بناء

لمستقبل قريب وسط الأبناء

أشتاق حقا لبشرتك السمراء

فأدم مهما كان محتاج لحواء

تداوي جراحه من أي داء

كالنسمة تدب في روحه هواء

طال الانتظار وكثر الدعاء

يفصلنا عن بعض وهم الادعاء

فكلا منا يدعي الدهاء

حتي بعدنا عن كل الأشياء

لكن غربتنا كانت خطيئة من الأخطاء

يا قمر كنت قد تعبت ولكن الفرج قد جاء"

فعلا، الفرج قد جاء، ففي أخر مكالمة لي مع بدر بدأت ألمح بأنني سأراه قريبا. سأراها، أخيرا، بعدما كنت قد بدأت بالغيرة من إن كل من سواي يراها، حتى من الممكن أن يكون زياد!

"كم أحسدك يا قمر... فكل من غيري يراك كل يوم

لو يعرفوا أن من أهواه قد هجر.. يشعرني بعطش الصوم

قالوا لي استحمل لا مفر... والعين قد خاصمها النوم

يا قلب جامد كالحجر... لا تراعي معاشرة القوم

افكاري ترقص كالغجر... والبدر قد أخفته الغيوم

قد حسبتك من البشر... لكن ما يقتل مصاص الدماء إلا الثوم"

هل أظلمها بأنها ترى زياد؟ أصبحت قاسيا لدرجة إنني لا يمكنني أن أفرح ولو دقيقة، بالقطع لا يقابلها، فهو أحمق، لن يرضي بمقابلتها مجددا، حتى لو حاولت هي..

"قاسي الذات.. جلاد الروح

كيف تتعافى وأنت السجان

اغفر... فإنك مستبد

ولو تعلم النفس أنك لا تحكمها

قد أعلنت توبتي فمتي الغفران"

أعرف أن ردها لي قد يكون على عكس ما أهوي، طالما تخيلت إنها لن تغفر لي بسهولة، ستهاجمني، ستلومني. طالما تخيلت لقاءنا، وإذ بها تطلب مني الرحيل..

- حتى حبك قد أصبح ماسخا... كيف لي بالرحيل؟ كيف أهجر من جعلني أكره عشقه، فعشقه كاللعنة أو متلازمة تجعلك لا تفكر سوي في الرحيل.. قد قتلت كل حلم وكل أمل في البقاء، كم يؤلم القلب ألا يدق، كم يزعج القلب ألا يحب من لعنه ومن حول حبه جحيم؟ ألم تدرك بعد كم وددت المضي بعدك وكم رتبت من خطط للهروب، فالبقاء أصبح كالطوق يخنق الكبرياء ويسحق الكرامة، بل ويسبب الاكتئاب. أتعلم إن قد وردتني فكرة الانتحار ثم تساءلت كيف يكون هذا حب الذي يدفع للجنون، لاختيار دخول جهنم بدلا من النعيم؟ ثم اسأل نفسي دوما كيف يذكرني وجودك في حياتي بسجن قد طال انتظار الخروج منه والرجوع للحياة التي مرت أيامها داخل أسوار السجن لا تنتهي مهما عددت الأيام بالطبشور على الحوائط أو نظرت من شباكك لنور الشمس وكأنك وطواط لا يرى سوي في الظلام وحينما يري لا يري سوي لحظات من السعادة قد أخفتها عيوب

الفراق أو قسوة الاشتياق...

كيف لك ألا تشعر مهما وصفت إن حبي لم يعد كعهده السابق حينما عشت لما تنفست، أما الآن فوجودك تحول لمشنقة تلتف حول عنقي لتوقف الهواء عن شريان حياتي؟ هذا صنعك، فأنت قد قررت ألا تحلم بالأماني واخترت سهولة الطريق. هذا ما جنيناه بفضل طمعك وغرورك في ظنك بأنني دونك لن أدوم، حتى لو طال عمرك أم لم يطول!

لعنت تلك الفكرة مررا، وكنت أمحيها بتذكري لكل ما هو جميل في عابدين، حتى لا أجبن مجددا من فكرة الرجوع

"قلبي متشعلق في ترابها في ريحة طبيخ الجيران.. في عمارة في قلب البلد بتبص علي النيل من سطوح بيتنا حتي لو من بين الحيطان... يا ذكرى مش تايهة عن بالي هفضل أرددها لحد ما يقولوا الواد ده زنان... و المبدأ واحد متغيرش مهما بعدت عن المكان... يا شمس القاهرة يا حامية... يا اللي خليتي الواحد عرقان... احكي لي علي حصل في غيابي ومتنسيش تحكي عن الغربان... اللي أكلوا خيرك وخانوا العهد من الإسكندرية لحدود السودان... يا وش القهوة التركي في الحسين وبعدها نقرأ الفنجان... وسطه أبيض زي لون علمك، قالوا لي ده قلبك قلب أوطان... بيحن ولا عمره بيقسي مهما زعل وكان غضبان... ده أنا طيب وبسامح ولسه بحلم.... والله ده أنا غلبان"

حجزت تذكرة الطيران، سأعود لأجازه، سعد بدر بالخبر، وكان

يؤكد علي فرحة أبي حين يسمع عنه، كنت أسمع صوت أمي تسأله كيف حالي؟ وعجز لساني عن الرد، ولكن رد قلبي..

"يسألونك عني.. قل لهم قد مات قلبي حزنا منذ أن بدء الخصام.... وأحياه عقلي بفكرة أن أكذب كل ليلة كي أنام... كذبة أرددها كل يوم بأنني علي ما يرام... ولكنني أصدقها، فليس لدي سوي تصديقها... وكيف لي أن أشعر بذلك وأنا كل يوم أبعد عن المرام. قد بخلت الدنيا علي وكنت أنا من الكرام... وحين أجن وأخرج عن صمتي يقولون لماذا لا ترضي فهذا حرام.. مرت أيام من حياتي أرتدي فيها وجوها تخفي همومي وحدي ولم يظهر بعد أي أحد من الهمام... ثم يظهر من يبعدني كل مرة عن طريقي للغرام... قد صار العرف أن أحزن على الدوام... تعبت والنار تحرقني حتى في المنام. ظننتها وحدها تفهم ولذا اختلفت عنهم عندي في المقام، حتى اتضح أنها مخادعة وليست كما تخيلتها تمام.. يرجعون فيأكدون لك قد جن عقله وأصبح كالحطام... فمن يظن أن رسائل حبي لم يصلها لها الحمام... حتى من ظننته مثلي يعاملني بغلظة كالحكام، يعاتبني دوما على كل شيء والأحلام.. ينصحوك بطلب التوبة والغفران فهكذا قال الإسلام. يحلق قلبي فوق جسمي، بل وعقلي فأنا أصبحت في الحب إمام، أغيثوني أو افيدوني يا سادة يا كرام... ماذا أفعل حين أنوي أن أبحث عن نور في الظلام.. يا قمر القلب أسطع، قد عجز لساني عن الكلام... كل همي أصبح أن أرجع وأعيش تحت ظلك في سلام!"

هل فهمني بدر؟ لم أركز من قبل في أن اسمه قريبا إلى قلبي كاسمها.. لم أكن بتلك الرومانسية في مصر. حين بعدت علمت أن كل شيء أصبح له منطق جديد، فبدر في قلبي كقمر، كلاهما يلعبان على أوتار قلبي..

" ظلمك من سماكي قمر
ونسي إن وشك ولا وش البدر
ده أنا قلبي كان جامد حجر
ولما شافك لان وبقي واسع زي البحر
يا مين يفهم أن مهما الواحد هجر
هيلف ويرجع يسلم للقدر
ولا كان ضيع ثانية كمان في الفكر
ما هو أصل الحلم طريق في أخره نور
وكان لازم يعبر أي جسور
علشان بس يوصل لأقرب وأحلي بر
يا أيوب إزاي كان المفروض الصبر
وأنا عارف إن النهاية أكيد غدر
الخوف بقي يعلم العبر
بعد ما ملت دموعي النهر"

جلست في الشرفة أدخن وأنظر للقمر أشاوره، قل لي يا قلب... في أي لحظة نسيته؟ حينما أدركت أن تعلقي بالقمر ليس حبا، ولكنه كان عشقا أبديا. أعرف أنه بعيدا ولذا مازالت أحبه، فالبعيد عن العين، قريب للقلب على عكس ما تقوله الاساطير. وكم من اساطير الأولين كانت خدعة لنعظم من شأنهم بينما الحقيقة هي إن القمر لا ينسي مهما بعد وطال فراقه. فنسيت في ثانية عمري، وكم أفنيت في انتظاره!

عدت، كالهائم امشي بين شوارع عابدين، في قلب وسط البلد، رائحة الهواء التي كنت أتشممها وأشتهي العودة إليها، تلك المباني التي يسعدني مروري بجوارها، لتدب في أنفي رائحة مداخل العمارات ممزوجا بهواء منعش من ظلال المباني في شوارع عابدين العريقة. أسمع دقات قلبي، مع كل خطوة أخطوها، كل نفس أتنفسه، كل فكرة وكل ذكرى عالقة. فعلا كانت على حق، ها أنا ذا.. أنا عابدين، لم يكن هو، بل أنا.

تقتلني ذكرياتي كلما شعرت بغباء قراري بالبعد عما أحب، عمن أحب، حتى أهرب من ذاتي. فلعلي قد ارتحت قليلا بالبعد، نضجت، ولكن لن أنسي أبدا كيف كنت أشعر وأنا بين ضلوعها، تحتضني حتى تكاد تعتصرني، تلك المباني العتيدة التي تضمها شوارع قد خططت لتكون اشاعة شمس تصب في قلبي، في قلب ميدان... ميدان شهد بداية قصة حبي، وظلت ذكراه تطاردني في غربتي، حتى أتيت لأجد فيه ما هو أهم من ذاتي، أجد ظل القمر.

أخذت أفكر في كلمات أعدها لأي فرصة لقاء ولو بالصدفة، أعلم إني سأراها ولو بالصدفة، هكذا قال حدسي وأصدق فيه

" يا قمر، بعدك هلاك وقربك مهما كان نور.. يعمل إيه في وسط الحلاك، ده الليل اتخلق علشان أفكر في جمالك، وأكره نهاري من الغياب. لا ظلمة تشفع ولا نجوم السماء. يا قمر، أنا جيت أدور على طيفك، وإنتي قلبك هناك. قلبك يعشقه غيري، أما عينيكي بتحكي حكايات. كحلك تكرهه غيرتي، ده أنا بغير عليكي من ظلك، وأنتي ظلك يا قمر ينور بلاد. يا عالية في السماء مين يوصلك، مهما أنا طلعت فوق الجبال."

وقفت أمام جروبي في ميدان طلعت حرب، أنظر حولي لكل تفصيلة من تفاصيل الميدان، أخذ قلبي ينبض مع كل خطوة أخطوها. أسمع نفسي وكأنني مصاب بأزمة ربو حادة، أخذت أشعر بالحرية بعدما كححت آثر تلك الازمة التي أصابت صدري من تراب مصر، وتراب محل جروبي المغلق للتعديلات. سمعت صوت أغنية ترن في الاجواء " تيجي نقسم القمر.. أنا نصف وأنت نصف"، فتسائلت

- يمكن يكون ده الحل، يمكن بعد السنين نرتاح، يمكن لما كل واحد فينا يأخذ نصف يكتشف انه مبيحبهاش. أصل قمر كاملة زي البدر لا يمكن تكتفي بهلال. ممكن راحتنا تبقي على حسابها وممكن على حساب حد فينا لكن لا يمكن يكون أنا... على الأقل أنت زمان أخدت فرصتك وكنت زي أرمسترونج أول من وصل للقمر، بس لما

سيبتها بقت هي اللي استرونج لدرجة إنها رفضت تفتح قلبها للي وصل بعدين، للي وصل لدرجة إنه أختار يسيب الأرض ويطير ضد الجاذبية ويوصل للقمر. يمكن كان نفسي ابقي زيك، أول من وصل. بس بيقولوا انه مش شرط أول حب يبقى أحلى حب... تفتكر؟ تفتكر إن لسه فيه فرصة، ولو للحظة انتصار. لحظة الوصول للقمر، للبدر المنور، لنور الليل ونور العين. يمكن كان ممكن أشاركك لكن فات الأوان. وأخترت أنا الكل بدل النصف، فمن يرضي بالقليل ومعه الكثير؟ وأنا معي عقلها، عقلها اللي مبطلش لحظة يفكر فيا. أنا واثق إن ليلي سماه هينور بالقمر. أما أنت فليلك طال وعمرك فني.. فمن وصل للأماني، قد ضحى بالقمر.

زياد، نزل على كالسهم في قلبي، ولكنه لم يكن الوحيد الذي أحبطني. أشعر وكأنما ثقل قد حط على قلبي، أنام على فراشي وأنظر لمروحة السقف تعلوني تدور ثم تدور وأنا أشعر باختناق شديد يزيد. كيف أصبح بدر هذا المستهتر؟ أصبح لا يبال شيئا! لا يثق في أي شخص حتى فيّ. وكيف أصبح أبي لا يبال لاستهتاره هذا؟ وكيف تركه يصل لتلك المرحلة؟ مرحلة كونه خريج جامعة يعمل من المنزل يساعد صديق صديقه في كتابة محتوي موقعه الالكتروني، راضيا بأن يكون شخصا يعمل من المنزل مقابل عائد مادي حتى إنه لا يطمح للعمل في شركة. تدب في الغرفة رائحة الحشيش لتكسوها حتى حينما لا يدخنه. كيف أصبح أبي هذا الأب الذي يقبل بأن يصبح ابنه فاشلا كهذا، فنصبح إثنين! لماذا شعرت بغيرة أن بدر أكثر مني حظا حيث إنه

لم يتعرض لضغط نفسي ليصبح جديرا بلقب ابن أبا مثل أبونا، لكن تلك الغيرة تبددت حينما أدركت إنني بالقطع في حال أحسن حتى حينما ظننت نفسي فاشلا. ليس تقليلا من قيمة ما يفعل، بل على الاقل كنت أنا محاميا، حقوقيا، اسمه أشهر من النار علي العلم في أقسام القاهرة الكبري، إما لشخصه أو بصفته ابنا لمحام قد أشتهر بدفاعه عمن لا يملك حق الدفاع عن نفسه. ابتسم كلما أتذكر نفسي أمشي في ظل والدي، حتى يتوقف خيالي أمام واقعية مشهد وصولي إلى مطار دبي وكم شعرت بأنني لا قيمة لي دون ظل والدي أمشي فيه، ومن هنا تختفي ابتسامتي، ويدق قلبي، ويزداد اختناقي، فاستوقف نفسي عن التفكير في كيف سأشعر بعد عودتي، خاصة أنه لم يمر سوى يومين من إجازتي. فكرة إن الإجازة قد تمر دون الوصول إلى ما رجعت لتحقيقه أصابتني بفوبيا، فوبيا يصطحبها دوران خفيف صممت أنها لن تجعلني أتوعك، حيث حيرتي عادة تصيبني بتوعك، لم أكن لأكرره.

مشيت في شارع التحرير، وتذكرت حينما مشت بجانبي

"يموت الزمار قدام ضحكة من شفايفك... إزاي يعزف ناي ويغطي على صوتك

بتلف الدنيا ومفيش حد زيك... وقابلت اللي زيي ومش اللي زيك

يا وجع قلب كل ليلة ولا ليلة من ليلتك... ليلة منورة فيها السما بقمرك

يا عالية بعيد ومين يوصلك... يا نور عالي مش قادر أوصفلك

دنيتي ظالمة مش زيك... يا ريتني أشوف الدنيا لحظة بنظارتك

مبتسمة والكون مملي بصوت ضحكك.. ولو فيه مشكلة مفيش حد في عقلك

أكذب لو قلت قلبي ارتوى من لحظة أنا شوفتك... ما يكفيني فيكي سنة وبالعهد حلفتك

يا مين ينسيني الوجع ده أنا في لحظة كرهتك... من حبك نار بتزيد كوي وأنا حالف اكون ملكك"

ثم مشيت في كل شارع كنا نمشي سويا في مظاهرات فيه، حتى وصلت إلى كوبري قصر النيل، حين مشت تحت العلم في الحر. وددت أن أصرخ

"فليعلم الجميع كم عشقت القمر... وكم من الليالي كانت تمر

هي قلبي ولم تكن لتغدر... ولم تكن تنقهر

قد واجهت الصعاب وكل البشر... حتى صارت أقوى من الحجر

تحمل عيناها نوع من الصبر... فكم كان يلاعبها القدر

مثل الأعمى فاقد البصر... يري لو في القلوب من شر

تلك النخلة المليئة بالتمر... لم تكن جبانة ولم تفر

عدي الليل و ظهر الفجر... وكان النور كنجم انفجر

يا ليتني ما أحببت السهر... ولم ألعب بالبيضة والحجر

تدب رائحة الليمون علي الشجر... كلما تذكرت السفر

سلام لمن أصر على الهجر... ولم يعرف طريق للفقر

ووداعا لكل من شعر... بالتعب أو من القسوة انكسر

فلم يمر من العام سوي شهر... ولن يتذكر غيري الأمر

ابعد عنها لو تقدر.. فهي لم تهو جبان، بل ذكر"

لم أجدها في شوارع عابدين، ولم أشعر بأنني أرغب أن أراها إلا هناك، أخذت أبحث بين الوجوه كمن فقد أبوه

" تركتني وحدي أبحث بين الوجوه.. كيف تتركني هكذا وحدي أتوه

أشعر كالثلج على سطح جبل يعلوه... أو طفلا قد فقد أبوه

كسر بين اثنين قرروا يخفوه... أو برئ حكم عليه أن يعدموه

هلال لم يكتمل قمرا فعايروه... حتى المجاملة لم يجاملوه

كورد ذابل لأنهم لم يسقوه... وكيف يشعرون به وهم لم يعرفوه

أصبحت كالفاقد لهويته يشعر كالمعتوه... يسأل نفسه كل ليلة لماذا خانوه"

في أخر جولة لي بسيارتي المؤجرة، كنت في مواجهة قصر عابدين، نظرت نظرة حادة لبوابته. كان حلمي أن أصعد سلالمه، ولكني مازالت خارجه، مازالت في الميدان، في الإشارة أنظر إليه. تذكرت حلمي "أنت

حمار".. قالها فانديتا لي، بل وأقسم على ذلك، ثم خطف نظري سائق ميكروباص متعجرفا يكسر على، وسبقني، ولمحت ما جعلني ابتسم، فلست أنا بحمار، فقد علق على ظهر الكرسي في مؤخرة الميكروباص ماسك فانديتا، صحيح لم يكن أصليا كماسك كابو استيراد أمريكا، لكنه جعلني ابتسم. فهذا الاناركي الفوضوي قد خلصني أخيرا من رؤيتي التي طالما كسرت أنفي (فانديتا واصفا إياي بالحمار). ومع مرور الميكروباص، جاء بجانبي سائق تاكسي يستمع فريد الاطرش بصوت عالي "قال عايز تنساني، طيب انسي، وأنا هنسى" ومع دندنة السائق تيقنت أنني لن أنسي، فها هي... القمر! قمر تركب التاكسي متجهة إلي محمد محمود وتنظر هي الأخرى تجاه القصر، وتحرك شفتيها مع الأغنية " أنا مش هرجع لك ثاني".

الفصل الحادي عشر
لقاء السحاب

لم تراني، ولكن قلبي انتفض وأخذ يدق، كانت في وسط البلد، وفي محمد محمود. هل شعرت بي؟ هل ستلومني؟ هل ارتبطت؟

قد صدق حدسي... ليسوا كاذبين

ظننت القلب قاسي.. هم لي معذبين

لم يبيعوا الود... ولم يهن عليهم الاشتياق

لن يخونوا العهد.. حتى لو اختاروا الفراق

كم من اليأس قد شعرت... ومن الثقة قد فقدت

يا ليتني كنت فلحت... لكن كالثور الهائج طحت

ظل القمر لن يدوم كثيرا.. سيغيب حتما وقريبا

أهدأ يا قلبي ولو قليلا... فحتى أنت قد أصبحت غريبا

كمثل الذين يمشون في الصحراء، ولكن أدركوا إن كل ماء يرونه ما هو إلا سراب. فما عادوا يصدقون، ولا يستطيعون صبرا والعطش ينهش جسدهم والشمس تأكل بشرتهم. بدأوا في التهاوي... على

الرمال.

وقفت أمام بوابة الجامعة الأمريكية حتى أراها، حتى لو من بعيد، ألمحها مجددا. كان هذا أقصى طموحي.

"ظللت أبحث عن السعادة وهي أمامي.. لم تكن يوما ملكي، ولكن لخلاني

ليتها كانت لي، ولكنها في أحلامي... لم تعرف يوما أبدا عنواني

نورت لي طريقي وفرحتني بأيامي... ولأول مرة لم يفرق ظرفي ومكاني

لا يهم من هي ولا تهم الأسامي... ولكن يا لخيبتي تركتني أعاني

كتمت صرختي ولم أظهر آلامي.. وسمعت عن عذاب الحب في كل الأغاني

لم تشعر يوما بشوقي وغرامي.. ستعرف حتما وتجري وتترجاني"

رأيتها تخرج من البوابة بعد الخامسة. وقفت تحت شجرة كمن يراقب معشوقته، هل تخونني؟ كانت تنظر لميدان التحرير توقف تاكسي. كانت الشمس في مواجهتها، تلمع كالذهب، كم كانت جميلة بشعرها. من الواضح إنها تغيرت، أو ربما ثارت على كل شيء. كبرت، نضجت، أصبحت أكثر جمالا. كحلها لم يفارقها، ولا كعبها العالي. رفعت حاجبها حين رمقها أحد المشاة، لم أكن لأجري عليها لأدافع عنها، فأنا أعرفها، ستنهش أيا من كان يقترب منها دون إذنها. جامحة،

وازدادت جموحا..

" ثوري يا قمر.. متخافيش، أنا عارف الوضع ميسويش...اتغيرتي لكن منستيش، عهد بينا صعب ميتوفيش... كانوا قالوا لنا كل حاجة بشويش، لكن جريتي حرة متقيدتيش... عارف خذلتك ومخونتيش... بس برضه عارفة إني منستكيش... سألتك مالك قلتي مليش... دايما متفائلة مبتيأسيش... ده حتى سعد قال فايدة مفيش... ثم ضحكتي ومزعلتيش... وجربتي ثاني مبطلتيش... حاولت زيك بس الحشيش... كان طبع غالب وميرضيش.. والحال المايل متعديش.... والله ما عاجب التطنيش، ردي عليا أو متجاوبيش.. قلبي عاشق متحاوليش.. ولا تقدري على التطفيش... قاعد لابد مبمشيش... حلمت بيكي وما حلمتيش ... إني راجع، أستني متمشيش... أناني خايب بس مبخبيش.. اللي في قلبي إسمعيه أو متسمعيش... إستني متتهوريش... فكري ومتبخليش... دي نعمة مترفصيش... إتغيرتي متنكريش.. بس برضه بحبك زي المهابيش.... احلفي متكذبيش... إني لو قعدت متمشيش... يا قمر عالي متنزليش.. أنا حالف لأطلع للقمر لوحدي متساعدنيش... إزاي متسألنيش!

أرسلت لها رسالة على الفيسبوك أقنعها بمقابلتي، قرأتها ولم ترد. مرت ساعتين ولم ترد. كنت على وشك الموت في جلدي، فأرسلت لها رسالة ثانية.

"هل يمكن إعتزالك؟ فأنت قاسية لأقصي الحدود.... هل يمكن

الهروب منك؟ فأنت تعذبينني لدرجة الجنون... كيف أجري منك وأنت ممتدة لأخر الكون؟ في شدتك مسيطرة ولاغية الوجود... أيمكن مقاومتك أم يجب أن نبني السدود... بين خطايا تتزايد وذنب ممدود... أخافك فأنت مدمرة للأعصاب ومنفرة لأي ودود.... ولكني أعشقك.. فكيف الوصال والخطاب مردود؟ لن أيأس أبدا، فاليأس مرفوض... أما الأماني فهل تعود؟"

لم ترد وأخذت أكتب وأفكر

"يسألونك عن الغني، قل لهم قد استغنيت عن تلك الحبيبة التي طال فراقها فكوي القلب وقتل الأمل، ثم يرجونك أن تعود مرة أخري لعقلك، لقلبك، أن تكون من كنت منذ فات الدهر و مرت الأعوام. أعرف أنني سأخذلهم كما خذلتها، فهي مؤشر على كيف صرت، كيف أصبحت، وكيف فكرت. فمن أختار البعد، قادر على أن يختار كل شيء إلا القرب.

لكن ها هنا اليوم، يسألونني كيف وصلت لما أنت فيه؟ قد ظنناك جننت، ضللت ومن يهدي مثلك إلى الطريق. ابتسم لأنني لا أملك حتى الإجابة على هذا السؤال، فأنا نفسي لا أعرف ماهية هذا الشيء الذي سيطر على وقادني لهذا المكان، أقف أمام مكان قد طال فراقه، منتظرا من هواها القلب حتى الجنون. هل تعتبرني شجاعا أم ستقلل من جرأتي، فوالله لا تعرف كم حاربت ذاتي كل ليلة حتى أمشي برجلي لهذا المكان. يدق قلبي لمعرفة إن بعض دقائق تفصلني عن قرار مصيري،

لن يغير فقط كل ما هو آت، بل سيمحو آلام الماضي الذي بدي سحيقا منسيا أمام دقات أمل تدب في القلب تبهج القلب وتغذي الفؤاد. فأنا قد مت وأحيتني مجرد فكرة إنها على وصول، كماء يسري ليصل إلى القلب، ليبلل بحيرات جفت منذ البكاء."

حان وقت تحطيم القيود.. الخروج من العتمة للنور.. فقد رأيت قمر تمر أمامي حين ظننتها قد اختفت.. ظهرت لتنير الكون.. كوني أنا.. تتراقص وتتمايل فيطير شعرها في الارجاء.. تبتسم وتمد يدها لتسحبني من كبوتي الي عالم الخيال ... عالمنا المثالي الذي لا نقيد فيه بأساور تكبلنا ... دقات قلب تملأ الكون أمل ... لا أعرف لماذا اختفت ولماذا عادت.. ولكنها قد أعطتني درسا.. أنا فعل لا رد فعل.. أنا حركة لا سكون.. أنا أمل لا يأس.. لمعة عيناها حركتا وجودي.. استنشقت الهواء.. تنفست الصعداء.. شممت رائحة النيل ... وكم أعشقه!

لا حياة دونها ... فقمر هي شمس نهاري وقمر ليلي.. ونجوم أفكاري.. وكأنني كوكبا في مجرتها ... متألقة لامعة تتوسطه.. عالية.. لن يطولها سوي من يرغب في لمس السحاب.. فيمن يقفز عاليا، غير مقيدا كالمذلول المسجون المنتظر لحكم اعدامه... كنت واثقا من انها مازالت تماما كما تمنيتها ... ولمفاجأتي أصبحت أحلي!

من أنا في تلك اللحظة، لا أعرفني حقا، هل تغيرت أم رجعت لما كنت عليه قبل ذلك بلحظات. أراني شجاعا، أرى قوتي، ثم أتذكر كيف سأشعر في لحظة دخولها، فأهوي وأخر علي قدماي كمن لا يقوي على

حمل نفسه، فكيف لي بالكلام؟

انتظرتها... ثم!

هلي علي يا قمر، فالقلب حائم والعقل هائم أم الجسد فقد غادر المكان. أشرب قهوتي، ثم أرفع رأسي.. وها هي... تنير المكان!

دخلت على تمشي بكل ثقة، ثم بدأ الكلام:

- قلبي وجعني قوي لما لمحتك من بعيد

- شوفتيني؟ تفتكري أنا قلبي موجعنيش؟

- لا وجعك برضه، يبقي ليه وجع القلب؟

- كان لازم أكلمك، كان لازم أشوفك

- وأديك شوفتني، وصلنا لإيه؟

- بصي لي في عيني وقولي لي إنت شايفة إيه؟

- شايفة وشك في كل الوشوش، سنين عدت وخيالكم بيطاردني وكأنه لعنة. لعنة أبتدت قدام قصر عابدين وكل شوية تجيبني، أني أقف قدام الجامعة الأمريكية أتلفت حواليا، شايفة طيفك، شايفة وشك، شامة ريحتك في كل مكان.

- أنا ولا هو؟

- مبقتش تفرق! أنا قلبي وجعني من خوفي أن عيني تيجي في عينك

– عيني ولا عينه؟

– أنت عايز توصل لإيه برضه؟

– قمر، أنا مين؟

– أنت وجعت قلبي، قوي. أنا كنت بمشي زي المجاذيب في المولد أدور عليكم وملقتش حتى خيالكم. بدور بين الوشوش على حضن، حضن أرمي عليه وجع قلب يوم ما أنتقمتم مني. أنت فاكر إني مش عارفة إنك قبل ما تسافر قلت له الحقيقة؟ قلت له أنا قابلتها وعذبتها بالنيابة عننا!

– عرفتي منين! إنتي برضه كلمتيه؟

– قلبي! قلبي وعقلي فهموكم، غاويين تعذبوه.. بس يا تري هو قال لك إنه هو اللي كلمني؟

– كلمك! إمتي؟

– بعد ما أنت سافرت بسنة. كان خلاص هيتجوز، وغلط وكلمني

– قال لك إيه؟

– قال لي إنه بيتمني إني أفضل متعذبة، ملاقيش اللي يحبني زي ما هو حبني. قلت له وهتتجوزها وأنت مبتحبهاش زي ما حبتني؟ سكت و سب و لعن!

– فيكي؟

– في اليوم اللي كلنا أفتكرنا إننا بنحب بعض

– أنا مش فاهمك يا قمر. انتي ليه بتعاتبيني علي قصتكم؟

– أنت ظلمتني زيه . كلكم واحد ،كلكم سيبتوني!

– إنتي سيبتيني الأول

– أنت إيه اللي رجعك؟

– أنا راجع أجازة، ماشي بعد يومين

– يومين! طيب وليه وجع القلب علي يومين! ليه كلمتني، كنت سيبتني ، ليه بعت لي؟

– أمشي يا قمر! ولا أمشي أنا!

والله كدت أسمع دقات قلبها، و قد امتلئت عيناها بالدموع

– حرام عليك والله!

– قمر، إنتي وحشتيني

– وبعد ما أوحشك، هتسبني

صمت دام للحظات قاطعه قلبي الأحمق

– والله لو عليا أخدك ونسيب الدنيا ونروح أبعد مكان

ابتسمت وقد سالت دمعة واحدة من عينيها سال معها كحلها الذي طالما عشقته

- أنا مش عايزة أروح أخر الدنيا، وأنا عايشة في أمها

- لسه متعلقة بوهم قد الدنيا!

- لسه متعلقة بقلبي

- إنتي بتجادلي في إيه؟ أنا وأنت عارفين إنك بتعاني من ساعة ما سيبتي الهنا و رضيتي بالفقر

- أنا بعاني من ساعة ما اللي وثقت فيهم سابوني

- قصدك أنا! ولا البيه اللي بقي ملو هدومه وبيصيف في مراسي هو والمدام والعيال؟

- أديك قلتها... البيه! أنا مبحتش بهوات.

- إنتي حبيتي شحاتين

- عمرك ما فهمتني

- ولا بقيت عايز أفهمك، أنتي كل مدي بتبقي سلسلة غامضة و معقدة، بتتربط حول رقبتي تخنقني

- ومدام خنقاك، كلمتني ليه؟ لسه قاعد ليه؟ امشي!

- مشكلتي إني مش قادر، مش قادر ومش عايز أسيبك، يبقي أنا اللي لعنك، ولا إنتي اللي لاعناني؟

-أنا! أنا والله تعبانة، ووحيدة، وقلبي متقطع وعقلي متشتت... وتعبت! إفتكرت إني قربت من الراحة وإتاريني بعدت

- إنتي مبسوطة في شغلك؟

- مبسوطة؟ الكلمة دي مش عارفة معناها إيه. اتبسط بإيه؟ بإني وحيدة وكل الناس جبراني علي إني أشتغل علشان أنسي. أنسي حب قلبي ولا أنسى حياتي ولا أنسى حلمي ؟

- زياد!

- الحب!

- وهو الحب مش زياد؟

- وهو ليه الحب مش هيثم؟

- إنتي بتحبيني أنا! تصدقي ضحكتيني..

دام الصمت للحظات، مع نظرة أدركت إنها حقا تحبني أنا. لقد نست زياد، كانت نظرتها تعني شيئا واحدا، عقلها يؤلمها، عقلها لغي قلبها..أنا من دمر عقلها!

" يا مني العين ودقة القلب

رجعتي بعد ما كنت شديت الهلب

مركب وجري خاف من السلب

أصل الوجع كان حقيقي صعب

لكن عودتك جلبت الحظ جلب

ريح و حدفتني لكل مهب

طالع نازل كله بقي ضرب

فاقد لأحساس واحد حب

لكن دلوقتي روحه ثاني تدب

يا ضحكة ناعمة تفوت في الصلب

والله من غيرك كنت هموت من الرعب

حالف أشيلك في عيني وأقوم وأهب

أنا يا قمر.. طالب القرب"

رفعت حاجبها ثم قالت

" بحبك ولا جتنيش... إزاي من غيرك أقدر أعيش؟

قلت لطوب الأرض عليك... إنك غالي وعالي بس مفيش

لا أنت داري بناري و لا مصدق مراري كأن قلبك حطته في النيش

مش أول مرة تقول الكلام ده... ده ياما قلت و ياما عدت

وفي الأخر قلت لك استني... لكن برضه هربت، بعدت

راجع فاكر إنك هتنسيني الوحدة.... ده أنا عدت عليا أيام خلتني شيبت"

رددت عليها

"شوفتك واقفة بره ورافضة... إنك تدخلي تقابلي الوحش
كنت فاكرك طول عمرك جامدة... قلبك ميت مبيخفش"
أعتدلت في جلستها وقالت
"شوفتك من ورا الازاز قاعد تبص علي الرايحة والجاية
كأنك نسيت شكلي، بتشبه هل أنا هي؟"
سخرت
"سلام إيدك ناعم بس قلبك بقي قاسي... أما عيونك نار حامية
بتولع نار غضب ممزوج بحنية
يا تري إيه اللي قسي قلبك عليا...
عارف أستاهل بس أديني جيت لك وعملت اللي عليا"
تأفأفت
" اللي عليك! فات سنين ومعبرتنيش
عدوا قرون مبتنتهيش
لوحدي في ظلمة زي الخفافيش
بشك في كل حد ميطمنيش"
فلم أسكت

"هو أنا اللي خنت ولا هو؟
ولا إنتي حاسة باللي فيا
أنا يوم ما شفتك قلبي وقف جوه
أما عيني فجريت ولا سألت فيا
يا قمر فكري متتسرعيش
أنا من غيرك لا يمكن أعيش"
استهترت بما قلت
"أناني وفاكر إن الدنيا سهلة
ما كان من بدري إبتدينا الرحلة
جي ترمي سنين كأنها وهلة
أنت فاتك كثير محتاجة مهلة"
تحمست
"يوم ، يومين إن شاء الله مية
المهم تفكري صح وترجعي ليا"
هاجمت
"أنا عمري ما كنت معاك ولا حتى يوم

ده حبنا كان كل حاجة فيه شؤم
صاحبك اللي هجرني بعد ما عاشر القوم
لبس ألاجة و بقي ملوا الهدوم"
غضبت
" مين جاب سيرة زياد
زهقت من كثر العناد"
حاولت المراوغة
"بقي معاك مليون ولا أكثر
فاكر إن دلوقتي هفكر
زيك زيه فاكرينها بالمنظر
ونسيتوا حلمي بشاب بيفكر"
دافعت مجددا عن نفسي
" فكرت كثير ومليت الجيب
علشان أبوكي ميقولش عيب
البيه كان قرب شعره يشيب
مصروفه من أبوه ده أمر عجيب

لكن دلوقتي مبقتش غريب
أملي العين و قلب الحبيب"
لم تقتنع
"حبيب... أنت بيتهيألك"
لم استسلم
"أمال قلبك ليه بيندهلي
وعينك خايفة و بتقولي
كلام كثير ولا بيتهيألي؟!"
قاومت مجددا
" صمت رهيب بقي بيني و بينك
احكي عن كل اللي جيه بعدك
عن ده ولا الثاني ولا مش فارقة كلهم غيرك"
تسائلت
" كلمتيه ولا نسي أصله
من ساعة ما لبس و سافر وهيصله
يومين مع الجديدة ولا فرق له

أنا وأنتي وكل عيلته"

أرهقت من الجدل

"عايز ايه... انا تعبت"

جاوبت

"جاي إجازة لحد السبت"

تضايقت

"فرحتي بيومين ملهمش عازة

يا ريتك ما نزلت إجازة"

تغيرت حقا، تعجبت

"هو ليه أنا حاسس إنك في جنازة؟

كنتي زمان بتضحكي وأخر لذاذة"

وضحت

"فات زمن زي ما قلت

والضحكة راحت بعد ما رحلت"

حاولت احياءها مجددا

" اتغيرتي كثير

مش كنت دايما تنادي بالتغيير؟!"

قالت بهمس

" أشتاق لك حتي سئمت الانتظار. لم أكرهك ولكن أصبحت ألعن كل ما يذكرني بك. لم أيأس، فأنت عائد لا محالة. لكن قد تعبت من شدة الاشتياق. لم أعد أتحمل فكرة الاعتياد. فالصراحة أن أتقبل وضعا لا يعجبني قد يكون أشد عذاب... فأنا مسيطرة على أخر آمالي قبل أن أبدأ بالعتاب. أين كنت؟ لماذا تغيرت؟ وهل عجبك الغياب؟ هل كانت فرصة كي تمحيني من ذاكرتك أم كنت جهزت الحقائب علي الباب؟ هل حلمت يوما بحضني أم اعتدت علي المخدات! خفيفة الظل تماما كما كنت توصفني، فأصبحت ألقي بالنكات. أتعلم ماذا صار بعدك معي؟ أم تظنني كنت ألعب بالألعاب. قد توحشك قلبي أما عقلي فأصبح كالشتات..."

- لقد تغيرت كثيرا

قالها هيثم ثم تنفس الصعداء

" لقد نضجت... لا أعرف إذا كنت أحببتك يوما... ولكن اليوم أحبك أكثر بحجم كبرك في نظري وقلبي...."

فتنهدت وقلت

" اعذرني فقد وجب الرحيل بعدما طال الانتظار

ارحمني فقد ذاب القلب شوقا وصعب القرار

اتقي الله في كلام مخفي ومن كثرة التكرار

اقتلني فالدم يغلي والحل واحد هو الفرار

انتهى والله أمري مهما حاولت وقررت الإصرار

اتركني أمشي في طريقي قد كرهت الاضطرار

اعشقني عن بعد فالقرب أفني أي فرصة للاستمرار

ادفعني للأمام أجري أو أرحل لعنة الله علي الاستقرار"

حاول أن يقنعني بالبقاء ، لمس يدي ، لم أدفعها واستكملت

- واحشني فراقك... فبعدك عني يقربك من قلبي ومن تفكيري.. اما وجودك معي فإنه يجعلك كالواقع المتكرر كل يوم... لا جديد ولا فكرة من أفكاري... ففكرتك كانت محور تفكيري، تكون فيها البطل المغوار المحارب، إنما واقعك فأنت لا تلعب فيه سوي دور ثانوي.. لا بطولة فيه ولا تحارب. أيوجعك الكلام؟ وكيف لا يوجع بعدما حطمت آمالي وطموحاتي.. فصورتك ليست كحقيقتك، تلك التي من يأسها صرت أحلم بالإشتياق إليك.. لا أحبك، ربما! فكيف أحب شبحا حتي روحه قد فارقته وأختارت البعد عن جسد لا يشعر مرارة اليأس. أمشي أبحث عنك في كل الوجوه، وطالما شعرت طيفك في كل ما هو جميل... كنسمة هواء في الصيف أو ضحكة من القلب من طفل صغير.. كنت دوما خفيف الظل في ذكرياتك، خفيف الروح، وإن كنت تشعل قلبي بنارك ونار عزيمتك... وليس هزيمتك!

فرد:

- أتعلمين كم كرهت ضعفك لإنك إختارتيه علي؟ إخترتي الأسهل ولم تتخيلي أن يوما ستصبح ذكراكي أحسن من رؤياكي... ارحلي، فالقلب قد تحول لصخر حفر عليه من ذكريات كرهك كلمات توصف حلم قد أفقت منه منذ عهد كنت عاهدتيني فيه ثم خليتي... كم أرثي لحالك، فأنت قد صرت كمن لا روح لها، مجرد صورة لشخص قد رحل عن دنيانا ورؤيتك لا تكرم حياتها بل تشوه ذكراها.

قاطعته

- قاسية؟ لم أقسو بعد كقسوتك حينما لم تنتظر بل إخترت الفراق. يائسة؟ ليس يأس لكن تقزز، فكم أشعر بالغثيان من فكرة الإعتياد. أن أعتاد وجود حلم قد تحول إلي كابوس يلازمني كطيفي كل يوم، كل لحظة حتي الممات. ارحمني، فالرحمة حلوة، وعذابك مر كالدواء وإن كنت دائي لا دوائي.. أنت آفة من الآفات... أعلم قد خانني لفظي، لكن من قال أن الحقيقة لا تؤلم كل من علي رأسه بطحة فما بالك لو بطحات. أعتذر، فلم أكن أنوي أن أعاتبك، قد نقضت عهدي، فأنت ماض، والباقي آت... يا ليتك تعلم إن وجودك لم ولن يكون في المخططات.

صمت وحكي عن حلم حلمه يوما

" دعني أحكي لك ما رأيته في منامي

إني أردد إنني سأحل كل مشاكلي ولكن ليس الآن
لم أفقد الأمل ولكنني تعبت من الدوران
فيلف الكون حولي يجعلني أشعر بالغثيان
أم إن جسدي يلفظ كل تلك الأفكار "
فحكيت له عن صندوق ذكريات الغربة وما فيه
" صندوق ملئ بالعادات والأعراف
هل يمكن أن أكسر كل ذلك وحدي وكيف لا ألام
لا أريد أن أتحدي كل العالم وكأنني بطل همام
في الأول وفي الأخر أنا فتاة تحمل ما لا تحمله الأكتاف
حزن ذلك أم مسئولية أم خوف من التوهان
أمشي علي خطي ثابت في غابة مليئة بالغيلان
مختلفة، متقلبة، أنانية في بعض الأحيان
أشعر بالأسى على كل من أعطته فرصة للتقرب فجري مثل الفئران
تخيل لو فكر القمر يوما ألا يظهر في أول يوم صيام
حتي العيد ستؤجل فرحته فيحزن كلا من الفتيات والصبيان
تعلم جيدا أنني لم أقف مكاني وظللت أحارب كي لا أهان

فقد أهنت حينما تركتموني وحدي وكأن ثورتي كانت مجرد تجمع في ميدان

هل فكرت يوما فيما شعرت به وأنا أراكم تتهاون واحدا تلو الاخر فمنكم من فقد ظله وأخر فقد الإيمان

يا هيثم، استيقظ من تلك الحالة من السرحان

هل فقدت عقلك أم مازالت كل ليلة سكران

تعتقد أنني لا أعرف ما آلت إليه حياتك أم أنني لا أعرف عن تلك الفتاة من لبنان

مايا اسمها... كم أحسدك فعلي الاقل اخترت من يفرحك فلماذا رجعت للأحزان

لم أعد أصدق حبك، فقد أخترت السهل أما الصعب فهو فقط للجدعان

نعم أصبحت قاسية، ولا أريد أن أرتبط بمثلك يظن أن الحل هو النسيان

أن ننسي أصلنا بل وذكرياتنا، أتتذكر يوم تركتني وسافرت كمن خان

قد خنت عهدي وعهد صديقك الذي إذا عرف سيقتلك أم تعتقد إن الود قد هان

أسفة، اردتني ألا أذكر إسمه ولكن ألم تقابله قبلي، هل عرضت عليه فكرة إنك تتقدم لحبيبة عمره الذي كان

أم إنه الأخر قد نسي أصله ونقض العهد ليكون مع المدعوة أماني ولا إيمان

لعنة حبكما قد أوقفتني عن الحياة و حقيقي كما تدين تدان

أرفض عرضك ولو أخر رجل في الكون، وإن كنت وحدي للأبد لأخر الزمان"

تنهد، ورشف رشفة من القهوة وطفي السيجارة ثم قال

" كنت بفكر بدل المرة مليون

في فكرة ممكن تغير الكون

بس خايف يقولوا ده مجنون

أو تطلع غلطة في القانون

واحد بيحب واحدة

وهي هنا لوحدها معاندة

وأنا مسافر ووضبت الشنطة

مفيش حد يقنعها لو حتى أونطة

إني مش ناوي أفارق وأعيد الغلطة

مهما فكرت ومهما عدت الكلام

هي خايفة وأنا بحاول أخفف الآلام

مخها يوزن بلد ما هو من كثر العلام

بس قدامي ساكتة وكأن ده التمام

قمر عالية وقلبها غالي

بس عقلها هو الوالي

مستبد ولا يبالي

باللي حصل واللي بيجرالي

دقيقة لو سمحت من فضلك

وقفت تبص حواليها بتتلكلك

من هو ويا ترى مين ندهلك

سألوها فقالوا ده هلالك

وبسهولة بيبص خلالك

وإنتي عاملة مش فارقة لك"

تهكمت ،

- أنا اللي مش فارقة لي؟

" كان عندي أمل ولو واحد في المائة
إنك تكون كنت بتفكر فيا
أصلك على طول سرحان و دماغك مش هي
بس أتاريك كنت مشغول عني و مش بيا
حلمي كان إنك تكون ليا
طلعت راسم طريق طويل محتاج معدية
و سايبني أفكر إزاي أعيش لوحديا
وأنت هناك بعيد نادر ما راجع ولو ثانية
إتغيرت ولا أنا مخدوعة فيك ودخلت عليا
لافف كرهك جوه قلبك وأنا اللي كنت فاكره هدية
مبقتش خلاص مستحملة أي قاسية
نفسي في حضن مليان حنية
حركاتك حفظتها كلها حركات إبن جنية
وبرغم كدة قلبي اتقتل أصله ملوش دية
وأنا اللي كنت عاملة ناصحة و موقعتش في الخية
أتاريني كل مرة بتنقذني التدخلات الإلهية

وأنا زي البقر بلف مربوط في الساقية

بيتضحك عليا ما هو أصله شر البلية

إزاي أبقي قمر والسما متكونش مكفية

لازم أروح لمحامي يرفع لي ألف قضية

مع إنه هيبقي زميلك من أيام الكلية

أهي دي أخرة جنون حب واحد كأنه فاقد الأهلية "

سرحت حين دام الصمت، وفكرت..أدمنته أم أنها لعنة.. بالقطع ليس شيئا حسنا أن تفقد عقلك كلما اختفى من أمامك.. هل ظننت حقا يا قلبي إن القلب سيرق حينما يسمع الكلام؟ أم ستقنعه دموع التماسيح وكأن شيئا ما كان... أسف قالها، وكأنه قد دهس الأقدام... لا يعرف كيف عانينا حتي إننا لازالنا نخضع بكل سهولة للعنته كلما فتح فمه أو قال أي كلام. أعرف إن اللعنات سيئة ولكن لعنته لا ينفع معها النسيان... فأنا في حاجة لكل لحظة لسماع ما يقول أو حتي نظرة في العيون.. كم تلمعان كلما رأوني وكم تلمع عيناي وتبتسم الشفاه للأذان... يا حب يؤنب لي ضميري فمن أحب صديق الحبيب بالطبع خان.. لكن قصتي بدأت بعد أن مرت العديد من الأيام. يا عشق الاختلاف فلم نعد نتفق علي رأي ولا حتي علي فكرة في الوجدان... تسب وتلعن حظك أما أنا فأرد حين يسألونني بأنني راضية ولا أعترض علي ما فعلته بي الأيام... هل ظلمت؟ نعم، لكنني الآن أشعر بنشوة الإنتصار فتخيل كم البؤس

إن كانت الخطط قد استمرت كل ذلك الزمان.. أو أنني لم أرى الدنيا ولم أعرف معني وقيمة المكان.. فالمنزل هو ملجأي فلمن ألجأ ولمن أقص قصصي وأحكي عن كل ما في العقل والقناعة وبداخل الروح ويمس القلب بل ويداعي البكي في العيون... حقيقي أشتاق له لكننا نعرف إن النهاية موشكة فأنا قد أخترت المضي قدما أما هو فمازال يحلم بالماضي وبكل تلك الأحلام... أشفق علي نفسي من قسوتي علي نفسي وأشفق علي روحه فهي معلقة بحبال ذائبة لن تطول طويلا... ولن أستطيع النظر خلفي كثيرا فقد تعبت حقا من الجري واللف والدوران.

حين صمتت قمر، فكرت

" دنيا فانيه مهما وثقت فيها دايما غدارة

الإسم في وسط ناسك والكل بقي ندل بجدارة

قال وأنا اللي كنت قلت أرجع وهبقي في الصدارة

طلعت أعمي مش شايف ومحتاج لنضارة

داسوا عليا و هرسوني ولا كأني عقب سيجارة

أو زي اللي نفسه يعدي بس نقصه عبارة

يا ريتني ما خطيت خطوة ولا ركبت طيارة

وكنت زي الأهبل فاكر عندي شطارة

مشكلتي أول ما بشوفها دايما يحصل شرارة

ووشي ينور بنورها ولا عواميد الإنارة
ضحكتها تنسيك إسمك ولبطاقتك تخليك تلف ألف ادارة
بلطية تجننك زي الصياد بس يا عيني من غير سنارة
تشغل عقلك وتنسيك حتي ميعاد السفارة
دي قمر دي قادرة دي طلعت جبارة
عاملة زي النور وسط ضلمة البحر.... أيوه زي المنارة ولا اسمها فنارة؟
في غيابها الدنيا تبقي ناقصة ملح تخليك تجري للعطارة
رأيها يوزن بلد تقولشي مستشارة
بس في الحب خايبة وناقصها مهارة
قاعد بقنع فيها لحد ما هتجيب لي المرارة
جننتني والله بجمالها، حلوة وجدعة زي سمارة
أه لو كنت مسافر، كنت طلعت علي أول خمارة
أنسي بكأس خيبتي وأحاول أنسي الخسارة
ما أنا سيبت القمر لوحده بين الذئاب وكل أنواع الحقارة
غبي ما شوفتش ولا حتي فهمت كلامها ولا الإشارة
يا ما نفسي بس تهز رأسها ولا حتي تدي أمارة

زي ما كاظم قالها دي صوتها زي القيثارة

ولولا الملامة كنت قلت دي ملكة الإثارة

بس يلا خليني ساكت لحد ما أفهم العبارة "

ردت مصممة علي النفي والرحيل ، أوقفتها

"هو ده أخر كلامك

يا ريتك اتمسكتي بسكاتك

كنت فاكر إني راجع بس علشانك

قمر بقت حطام من قمر زمانك

كنتي نوري وكنت بفرح بأفكارك

كأنك اتبدلتي وجابوا حد مكانك

كانت ضحكتك تسحر الواحد قدامك

دلوقتي عينك مليانة بخوف حتي من خيالك

ردا علي سؤالك.. رجعت فاكر إني لسه في بالك

إني هتجوزك وهبقي أبو عيالك

إنك نسيتي زياد اللي سابك وخانك

لكن أنا... ده أنا ياما شرحت وزدتها لك

كان لازم أمشي أبقي ملو هدومي وفي مقامك
وصنت العهد صحيح اتأخرت بس رجعت بس علشانك
غلطت كثير بس سامحي متنشفيش دماغك
ومعايا سافري وابدأي صفحة جديدة فى كتابك
يا تري تقبلي عرضي ونقابل أبوكي علشان يبارك
وأشتري لك فستان أبيض تمام زي اللي في خيالك
يا ضميري الحي كل ليلة مش عايز يفارق
سكتي برضه نفسي أفهم أنتي مالك
ليه نسيتي إزاي كنتي في يوم عشقي من ساسك لراسك
أنتي عارفة إني بعشق حتي طيفك وجمالك
ولا كحلك من يوم ما شوفتك بيحكي قصص عن حياتك
ليه بقيتي قاسية حتي في حكمك واقفة لي بالمشانق
والله ده القلب غاوي وعمره ما ناوي ثاني يفارق
أعتذرت وبكرر أعتذاري مش فاهم إيه أعذارك
زياد سيبيهولي أنا هواجهه ، أنا أتغيرت ميكونش في بالك
إنتي ليه لسه ساكتة ليه مش باصة في عينيا وهي باصة تجاهك

ردي قولي عني إيه مخبية شكل فيه حاجة في دماغك "

لم توافق، ورحلت. وفاجأتني في المطار يوم سفري بظهورها تخترق الجموع. وقف بدر مهللا كم صارت أحلى مما كانت، ظنا منه إنها ستقول ما تمنيته، ويا ليتها ما قالت

"أنا موسيقتك وأنت ألحاني
هكذا قلتها جملة كالأشعار
دامت محبتك وطال انتظاري
لعلك ارتضيت بالمسار
أتيتك واقفة في صالة المطار
أعتذر لك عن سوء اختياري
فأنا عازمة علي القرار
يا من أحببت كل أفكاري
في كلماتك انعكاس لضميري
لكن سيمفونية حبك تصعب قراري
ليس بيدي حيلة أصبت بالافتقار
لكل ما هو ذكي أو خبيث أو مصيري
يا من وثقت في وخذلتك باضطراري

كيف لي أن أختار الفرار
وأنا قد وعدت نفسي وأعدت التكرار
لست حرة كما تتخيل ولست من الأحرار
أنا حبيسة عقلي وقلبي واستقراري
قد أحببت وصفك لقصة غرامي
فأنا جزء منك مهما غيرت الأسامي
كنت قمرا أو بدرا أو حتي هلالي
فكل ذلك لم ينفي كونك في كل أحلامي
هل تصدق إنك كنت دوما من الأبطال
وعمري ما نظرت لك كمن هوت غلام
فأنت قد نضجت وكبرت في نظري
حتي رحيلك اليوم في صمت أبكاني
لن أغير رأيي لأنني قد فقدت إيماني
بالحب، بالمنطق بالأماني
هل تخيلت يوما إنك دواء لدائي"
ورحلت قمر...

الفصل الثاني عشر
البدر في تمامه

وقفت كالصنم في الجوازات أفكر
" لم تمر لحظة بعد ما مشت
والقلب ينبض وكأن الدنيا قد انتهت
أشعر وكأن غدا بعيد والشمس قد أشرقت
ففاتني جمالها ولكنني حتما سأحزن لو غربت
أعرف انه لم يمر سوي لحظات أو أوشكت
أن تمر ساعة منذ أن غادرت
لكن قلبي يشعر بوحشة أول ما فارقت
كم تمنيت أن تبقى معي للأبد إن وافقت
حبيبتي قمر تنير سمائي إن نورت
وضحكتها لا تتوقف إلا في لحظات قد بكت
فكانت وقتها قلقة ولكنها الآن قد أيقنت

إن حبي لها يفوق وصف الكلمات مهما وصفت

كنت معذبا منذ تركتني و سافرت

لكنها عادت لي فأنا أعرفها مهما نفت"

كانت لحظات صدمة، لواقع رفضته، لفظته مجددا. يا ليتني ما عدت لعابدين. جلست في البلكونة في دبي أكلم القمر، أعاتبه..

" مسألتش يعني النهاردة ولا كأنك أخدت بالك مع إنك عارف إني مستني...

مطلتش ولا قلت حتى معلش مع إنك دايما بتستغفلني....

أكذب وأقول مخدتش في بالي وعملت مطنش، بس الصراحة إنك بقيت فعلا أناني..

يا مين يفهم إني كنت قفلت الباب، وموربتش، كل ده علشان مش عايز قلبي يعاني...

خدعتني وكل مرة بعديها وكل مرة بقول متفرقش... لكن الحقيقة واضحة قدامي...

ده أنا قلبي مبيستحملش، أنت مش فاهم ولا قاصد تجرح في مشاعري...

قالوا الثقل صنعة وأنا قلت مبيمثلش... بس طلعت كالعادة مغفل و مش واعي

يا مثبت العقل في الراس خليها ماتطرش، ده الواحد بقي ساذج ومحدش في غبائي

اتصل طيب وقول كلمة متطولش، أعمل إيه يا ربي داهية لينساني

خايف أقول راجع وميرجعش، كان فيها ايه لو امبارح مكنش ميعاد السفر و بتاريخ العودة مكنتش داري

مكنتش هسيبك وأسافر وأنت لسه مردتش... يا قمر يا حب العمر و العالي

كان حصل إيه لو قلتي ألو، استني متسافرش، كلام هموت وكان نفسي أسمعه من الغالي

لكن كل ده محصلش، والله لأقتل نفسي ولا أنط من هنا.. ومش راجع في كلامي"

ترجلت من التاكسي أشعر بالفخر لأنني قد قابلته ورأيته بعد سنين قد طال فيها الفراق، دق قلبي جعلني أجري بالكعب وكأنني فراشة تطير من الفرحة، فحتى بعد كل ما قاله لم يخيب ظني فيه، مهما لومته ومهما عاتبته، ظل على العهد. لم يتغير، هو ذلك الفكر الذي طالما تعب وجداني في تقبل أفكاره، بل وجعلها جزءا من شخصيتي. كان سائق التاكسي شابا لطيفا أوصلني بسرعة لم أشعر فيها سوي بدقات قلبي تطاير بعدما عرض على عرضه... أن أتزوجه. أخيرا قد جاءته لحظة شجاعة بعد سنين من الخوف، حتى لو رفضته. وما أن تحرك التاكسي

بعدما نزلت ووقفت حائرة للحظة في مشاعري، لمحت رقمه وكأنها إشارة سماوية أخرى تجيبني... كانت أرقامه تبدأ من اليسار بالأحرف ق...م.....ر! هل أحتاج لإشارة أخري يا تري؟

لم أنم بسهولة بعد تركي له في المطار، كان قلبي يدق بشدة أما بكائي فكان لا تفسير له..

" اللهم فرحني كما يفرحني لقاءه ولو حتى في المنام

قلبي يقفز من الفرحة ولكنهم سيقولون هذا جنان

كم كنت أفتقد ثقة كتلك و استرسال في الكلام

وابعد عني واصرف كل خبيث نمام

أعشق من يفكر خارج الصندوق وليس بجبان

شجاع قوي قادر يدمر الأحزان

بهمسة كلمة حب تسري في الأذان

أو حتي عتاب في لحظة خصام

أحمدك ربي وهبتني صبرا ولو في الأحلام

وأسعدت قلبي بكلمات بها ولو نسبة من الحنان"

ثم استيقظت وكأن القمر يناديني ينقل لي رسالة، سمعتها وفهمتها..

" جلست أنظر في المرآة أري وجهه

قد بدي حزينا يظلل الحزن فوقه

أعرف إنني قسوت عليه فتلك كانت فرصتي

لأعبر عن كل ما أخافه، بل خفت منه في دنيتي

كم مريحا أن أكون كمن جري علي فريسته

أقتنصته ثم جرحته كل ذلك بمخالبي

لكن قلبي يؤلمني كلما تذكرت نظرته

قد ذهل وذهب عقله بل وحبس دمعته

مازلت أعاني كل ذلك بداخلي

لا أعرف كيف وصلت حتي لمنزلي

هل أكلمه أعتذر أم للأبد أتركه

و أنسي يوما إنني عرفته

فتحت أبحث عن صفحته

أخذت أنظر لصورته ولابتسامته

ثم فكرت لحظة و صرت أبحث عن صاحبه

ماسك يد حبيبته زوجته أم ابنه

قد صار أبا منذ عام وأصبحت هي كل دنيته

تظن نفسها قد كسبت رجلا ولا تعرف ماضيه
فقد كان ولدا لم يكن حتي يملك حق سيجارته
فرجعت أجري علي صورة هيثم وكأنني أناشده
أن يكون قد أصبح رجلا بل ولن يرجع في كلمته
تلك الحيرة حتما لن ينهيها سوي والدي
ولكن كيف أشرح له إني يوما كنت خائنة لمن قابله
هل خنته فعلا أم تلك فكرة تطاردني
وهل سيوافق مثلا علي سفري وغربتي
مع شاب غاضب لن يرجع مصر حبيبتي
هاربا من ثورة ضميره التي للجنون قد قادته
هل يوافق أبي علي من ثار يوما في حب ابنته؟"
ولغيت الفكرة من ذهني لإدراكي حقيقة واحدة..
"سيأتون ويرحلون ويتعلق القلب بالهوى
تتبخر الأحلام دوما حتى لو طال المدي
يزيد التعلق حتي يتحول لحبل مشنقة
ثم تأتي لحظة إدراك إنه مرض لا الدوا

كيف المقاومة والمحتل قد غزي

كل قلاع القلب والعقل و السما

لمن ألجأ كي استطيع الهرب من هنا

فالنهاية أوشكت وقد حان وقتها

وإن كنت يوما ظننت إننا سنموت معا

ولكن الدنيا تحولت أما أنت... أما أنا!!"

كنت في انتظار تاكسي بعد العمل، ثم سمعت بصوت خافت أحدهم يقول

- خدوا عينة من دمي هتلاقوا طاقة إيجابية وزي العسل...

قالها المجذوب في عابدين حيث وقفت، ابتسمت كيف يمكن أن تكون الحياة مماثلة للروايات حينما تقال الحكم علي ألسنة المجاذيب والدراويش؟ كم كنت سخيفة معه، كم حزنت أنني لم أستطع أن أواجهه كعادتي، قد صارت حياتي بلا طعم حينما قررت أن أعيش دونه. وحتى عابدين بدت غريبة بعد رحيله. وإن كنت أقف كل يوم في ميدان باب اللوق استنشق عطره في ذهني، ولو إنه يدري إن دمي مثل العسل وملئ بحبي للحياة، ولكن بالقطع حياتي ليست كتلك التي أرادها لي.. مع شبح، فاقد للاهتمام، بل وكاره ليس فقط للحياة، بل حتى بأي شيء ليس على هواه. قد خنقته كل كلمة قيلت، وإن كان رده بسخرية "قالوا إيه علينا دولا؟" تعليقا على مواجهتي له بمعرفتي بكيف فسد وفسدت

صورته أمامي قد أضحكتني كثيرا. أعلم، تلك ليست النهاية بالرغم من فراقنا، ولكن ها أنا الآن لا أسمع سوى كلام المجاذيب، ثم أبتسم لأنني لا أسمع أي صوت أخر، بل وأصبحت أصرخ من كثرة الزحام في عقلي مرددة " مش سامع حاجة "!!

وقفت اليوم أنظر للسماء وأرى أشباح الماضي وكأنها تلاحقني ثم ابتسمت لأنني قد تجاوزتها. وإن كنت أحمل منها فقط تلك الذكريات التي تجعلني أحمد الله أنني الآن في زمان ومكان مختلف. أشعر وكأنني قد وصلت تلك المرحلة التي لا تري فيها سوي مخاوف القادم أما الماضي فسحقا له... فكرت؟ كيف تكهنت يوما بالعودة إلي عابدين حتى إنني خفت من توقعاتي. كيف رأيت حاضري في الماضي؟ أتلك ملكة وهبني إياها الله؟ ولكن لماذا سلبت مني الآن؟ أتذكر ما قالته لي زوجة صديق الغربة حينما قرأت فنجان القهوة وقالت" قلبك أبيض، ولكن الكلام دائما ما سيلاحقك، فلا أرى سوي كلام كاد أن يخرق الفنجان من كثرته". وحين سألتها عن ماذا غير ذلك؟ قالت إن على قمة عالية يقف أحدهم يعطيكي زهرة. مرت أعوام ولم أتلق حتى الزهرة ولم أر سوي كلام، عني ومني ونادرا ما قيل لي. أصبحت حائرة، كيف يتوانى الكل عن قول الحقيقة لي. هل هي حقا مؤلمة ولهذا يتجنبون مواجهتي. من الواضح إنها كذلك، فالكل يرفض قولها. ولكنه قالها اليوم.. تظنين أنك قد أصبحتي تعرفين ماذا تريدين، ولكنك اليوم قد فشلتي في الرد على سؤالي. كيف أواجهه بردي الذي لم أجيبه.. بتلك الكلمة المدمرة التي أوقفني لساني عن قولها... ألا وهي: أحبك!

هل تنتهي أسطورتي؟ فلم أعد حتى أهتم بلماذا ثرت يوما؟ لماذا كنت غاضبة؟ بل ولماذا ظننت أن غضبي ثورة؟ كيف وصلت إلى مرحلة لم أعد أعي فيها حتى كيف صار رفقاء الدرب أغرابا، والغريب حبيب؟ كيف وصلنا لتلك النقطة حيث يراني الجميع قبيحة أخفي قبحي بكحلي؟ كيف أصبحت تجاعيد وجهي تذكرني بوجه القمر في أواخر الشهر. ظننت أن ثورتي قد أوشكت على الانتهاء. إنني لن أغضب مجددا. ولكن تبقي حقيقة راسخة، إني راكبة قطار تربو ولن يتوقف، وعلى من يرغب باللحاق به أن يريني حقيقته وكيف سيقفز عاليا من أعلى نقطة في جبل طموحي حتى ولو لم يكن يري أرض الواقع. وما أرض الواقع سوي نقطتي القابعة في ميدان عابدين... حيث أجد ذاتي كلما تهت وكلما إرتبت في ماذا أريد!!

أخذت أفكر طوال الليل في رمزية ما في ذهني. فكان قد قيل من قبل تلك الفتاة القصيرة ذات الكعب العالي والألوان الصارخة تخبئ وراءها فتاة صغيرة تحاول أن تدعي ما ليست عليه. وها هي تتكرر، ولا أرى في المرتين سوي عنصر مشترك... الغيرة. أتذكر آنذاك كان زياد يرى أنني أسبقه بخطوات، أو كما قالت والدته راكبة قطار إكسبريس، بينما هو مازال يحبي، فضحكت، تلك هي الطريقة إذن، هؤلاء حينما يغارون من النجاح يقذفون الكلام وكأنه إهانة، بينما أنت قد كنت في قمة التواضع حتى في حبك لهم. لم تفكر في ماذا ستجنيه ومتي تجنيه؟

صورة زياد تلوح أمامي مرة أخري، ولكن في صورة أخري، وهذا يفسر حقيقة علمية ثابتة، إن يناير شهر كاشف للوجوه المتخفية، ليست بالألوان، ولكن بالكذب والخداع، وجوه لا تري فشلها، ولكنها ترى إنها لا تمتلك حظا كحظ هؤلاء. كم أنا سعيدة، لأن وببساطة على الأقل أنا أعي أنني أرتدى الكعب العالي والألوان الصارخة لا لأخفي حقيقة، بل لأظهر نقاط قوتي، تلك الألوان هي حيلتي لتلوين حياتي المليئة بظلام الحاقدين، بينما بالنسبة لكم فترتدون الأقنعة لتخفوا عيوبا، من قبحها أصبحتم كلكم نفس الشكل، نفس الكلمات، بل وتفوحون نفس الرائحة، رائحة الفشل!!

كل هذا هو ما فكرت فيه حين عرض علي محمود مساعدته بعدما هاجمني أحد الزملاء في العمل واصفا إياي بالقبيحة ذات الكعب العالي، كان محمود واضحا يتوقع حبي له ردا لحبه لي. كنت أجبن مما تخيلت، أخذت عامين حتى حان موعد التغيير، ولكنه واجهني بما لم أتوقع..

" حبيبي يقتلني فراقه

تطول المدة ببعاده

ثم يرجع يوما في ميعاده

ملهمي يؤازرني بكلماته

أعتقد إنني قد أدمنته

حتي أصبحت لا أقوي بدونه

يجن عقلي في غيابه

وأعود لطبيعتي في وجوده

أعرف إنني أقسو عليه

أحيانا أغوي عتابه

كيف قدر علي العيش وحده

ليلة دوني في أحضانه

لم يعانقني بعد في صدره

لكن القلب يغوي عناقه

أيقن كيف تمر أيامه

تمر لتدمر أحلامه

تدهس كل طموحاته

وتسحق حتي محاولاته

أعتذر لكن أغوي مشاكسته

فحينها فقط أدرك كل مشاعره

أسمع صوته وحتي أهاته

مهما حاول إنكار ذاته
يعرف كيف أقدره
وكيف أشتاق لرائحته
لعطره أو همساته
ينير القمر كوجهه
أو بحر لا تتوقف موجاته
حزين لكن سعادته
أن يظل بجانبي بأشواقه
حبيبي يتدارك مشاكله
يتحدى كل صدماته
لكن حينما أواجهه
يرفض الاستسلام أمام رغباته
قد يرغب في عتابي فيؤلمه
تصور إنني أحزن من تصرفاته
بالرغم من جدية عقيدته
يعرف متي يستخدم استثناءاته

فأنا نقطة ضعفه

وقوته بل وفخره وسعادته

يمشي مختالا سيادته

حينما يعرف إنني أعشقه

أو يدرك حبي لصفاته

شجاعا لا يخاف علي نفسه

أنا على قائمة أولوياته

مهما تعقدت حياته

يعرف كيف يريني ابتسامته

وكيف يخفى عني أحزانه"

خرجنا سويا عدة مرات، وكان يواجهني دوما..

" قدام عيني لكن حاسك بعيد

يا ريتك كنت فرحان أو سعيد

ده يومك كله عذاب وزعيق و وعيد

وحبيبك عاجز وإيه الجديد

فاكر نفسك جامد زي الحديد

لكنك مغلوب علي أمرك و وحيد

يا قمر عالي مطفي و نوره مين يقيد

ما هو أصل ده اللي خلاك فريد

مش عجبك العجب أصلك عنيد

ده حتي عتابك بيبقي شديد

ترجع ندمان ولكن الأسف بإيه يفيد؟"

قتل وحدتي، أخترق حياتي، دخل بعد مقاومة شديدة وعناد، دفعته بعيدا، ثم أعتذر، ألومه ثم أصالحه.. ثم فتحت القلب وثرت على ماضي سحيق..

"يا من وهبتني ذلك القلب الصامد مهما طال الفراق، كيف أصبحت اليوم أقف منتظرة يدق قلبي تماما كما تعودت الوقوف للانتظار منذ آنذاك. أشعر بالعجز الشديد عن تلك الفتاة خفيفة الروح وإن كان دق القلب الآن وقعه أشد وأقوى.."

ها هو يمشي بخطوات ثابتة، مرتديا بدلته، يدب كعبه يمشي مختالا واثق الخطي يقترب حيث انتظرته أمام بوابة المبنى في محمد محمود في ذكرى أحداثه. من كان يظن أنني سألتقي حبيبا قد طال انتظاره أعواما حتى ظننت أنه لن يجئ، ولكنه جاء، وتماما في ميعاده. مشينا خطوات تمسك يدانا بعضها وكأنها كيانا واحدا، حتى وصلنا أمام قصر عابدين. لا أعتقد أنني قد تخيلت سيناريو كهذا الجمال من قبل، قلبي يدق، أمام

نظرته في عيناي في قلب منطقتي المفضلة، وفي يوم خاص جدا.

لا يعرف كيف أفكر، وفيما أفكر، لا يعرف أهمية أنني فرحة لأنني ولأول مرة أشعر بجنون عقلي الذي تحدى الكل ليصل لتلك اللحظة. تلك اللحظة التي سرقناها من الجميع منذ التقت عينه بعيني، ويده بيدي. أعرف أنني لم أخطط أبدا لمثل تلك اللحظة، حتى لو صمم هو، يمكن لذلك أصبحت أحلي. وفي الحقيقة أحلى ما فيها إن الأشباح لم تعد تلاحقني، فقد أخترت تركها للأبد، أو هكذا آمل.... فإن وقت الثورة قد فات وولي، ووجب تغيير الأبطال!